بسم الله الرحمن الرحيم

" ملخص المذكرة "

لقد تناولت في طيات هذه المذكرة موضوع البنية القصصية في رسالة التوابع والزوابع "دراسة فنية" إذ أن هذه الأخيرة التي ألفها أبو عامر بن شهيد الأندلسي إبان القرن الهجري الخامس،وصور من خلالها تقلبه في مراتب الإجازة والتفوق على خصومه وحساده في قالب قصصي،ما عدها البعض منهم غير مكتملة البناء الفني،وبالتالي انتقصوا من قيمتها الفنية،كما لاحظوا فيها سيطرة الجنب النفسي على مجريات الأحداث ،والإغراق في الذاتية إلى حد بعيد،الشيء الذي انقص واضعف من القيمة الفنية للقصة.

ثم إن عددا من هؤلاء النقاد والأدباء – ونقصدها هنا المحدثين منهم – وان اهتموا بدراسة البنية القصصية في "التوابع" فهم وان تناولوها بالدراسة والتحليل فقد اغفلوا الجوانب النفسية ،ونضرب لذلك مثلا بالدكتور "الموافي ناصر عبد الرزاق" في كتابه القصة العربية عصر الإبداع دراسة للسرد القصصي في القرن الرابع الهجري.

لذا أبينا إلا أن نسلط الضوء على الجانب المظلم من قبل هؤلاء الدارسين ولمعالجة هذا الموضوع ارتأينا هذه الخطة التي نخالها الأمثل لمعالجته.

وقد افتتحنا هذه الخطة بمدخل كأرضية تمهيدية أكثر ما تتمركز حول الحديث عن نشأة القصة عند العرب و عند الغرب و ابرز سماتها الفنية وفروعها وأنواعها .

أما الفصل الأول الموسوم بـ : إبن شهيد الأندلسي الإنسان الفنان ،ففي تعريف المتلقي بشخصية المؤلف البدع و حياته وابرز أعماله الأدبية .

و أما الفصل الثاني والمعنون بـ: "رسالة التوابع والزوابع " دراسة في الشكل والمضمون،ففيه وقفة بالقارئ عند طبيعة الرسالة و شكلها الأدبي وتاريخ تأليفها و أقسامها وابرز مصادرها ،والسبب من تأليفا،وأهم القضايا النقدية في ثنيا رسالة "التوابع والزوابع ".

أما الفصل الثالث و هو الفصل التطبيقي و المعنون بـ: التحليل النفسي للبنية القصصية في رسالة التوابع والزوابع ،فهو مخصص للكشف عن البنيات الفنية والنفسية في "التوابع والزوابع ".

لنختم بحثنا هذا بخاتمة كانت عبارة عن نتائج عامة كما توصلنا إليه من خلال بحثنا في هذا الموضوع وأبرزها هي :

- أن الكاتب قد افلح في تشكيل وولادة عمل أدبي جديد يمثل طفرة في الأدب الأندلسي بخاصة والأدب العربي بعامة ،يتمثل في عمل قصصي يرحل فيه صاحبه من عالم الإنس إلى عالم الجن ، وفي نسيج غير مسبوق ،وفكرة جديدة حطمت كل أشكال النثر البسيط و الممثل في الخطبة والوصية ، إذ انه وثبة إلى الضفة الأخرى التي لا تتناول أحداثا من عالم آخر غير عالمنا هذا إنها قصة "التوابع والزوابع ".

- إن رسالة التوابع هي رسالة من حيث قصة تأليفها ،وقصة من حيث موضوعها وبنائها الفني ، وان ابن شهيد في التوابع قد ابرز بحق معالم القصة الأدبية الفنية ،ذلك النتاج الأدبي الذي يمتاز بالتحليل والتعليل والقص والنقد ،وظهور الصور الذاتية ،وعليه يمكننا اعتبار "التوابع والزوابع " قصة أدبية مكتملة النمو من حيث البناء الفني والمضمون معا ، سواء من حيث اللغة أو البنية السردية المكونة من الأحداث والوصف والحوار والشخصيات وغيرها من العناصر الأخرى .

"Note de synthèse"

J'ai abordé dans les plis de cette note est l'objet de la structure des histoires courtes dans la lettre des disciples et les cyclones "étude technique", car celui-ci formé par la Abu Amer Bin andalouse Shahid cours de siècle de l'Hégire V, et des images à partir de laquelle la variabilité dans le classement de congé et de la supériorité de ses rivaux et Hsadh sous la forme d'histoires, ce qui compte Certains d'entre eux sont incomplets construction artistique, et donc Antqsoa une valeur artistique, a également noté la commande sur le côté psychologique sur le cours des événements, et le déversement dans le CV dans une large mesure, celui qui a perdu et plus faible que la valeur artistique de l'histoire.

En outre, un certain nombre de ces critiques et les écrivains - et Nqsdha ici modernistes d'entre eux - et ils ont pris soin d'étudier la structure des histoires courtes dans les «disciples» à comprendre qu'ils ont mangé de l'étude et l'analyse, ils méconnaissaient les aspects psychologiques, et en appuyant, par exemple, le Dr "Mowavi Nasser Abdul Razak" dans son livre l'histoire de l'ère arabe d'étude sur l'innovation de la narration narration en siècle de l'Hégire quatrième.

Donc, notre père, mais pour faire la lumière sur le côté sombre de ces étudiants et pour résoudre ce problème, nous avons décidé ce plan, qui Nkhalha traitement optimal.

Nous avons ouvert l'entrée de ce plan comme une plate-forme préliminaire basé sur l'histoire la plus récente sur l'émergence des Arabes et de l'ouest et les principales caractéristiques techniques et ses branches et types.

Le premier chapitre est marqué par: le fils d'un martyr des droits de l'artiste andalou, dans la définition de la DCP destinataire et l'auteur charismatique de sa vie et les œuvres littéraires les plus en vue.

Et le chapitre II, le droit: "un message les disciples et les cyclones" une étude de la forme et le contenu, est soumis à une pause le lecteur lorsque la nature du message et la forme de la morale et la date de sa constitution et ses divisions et les sources les plus en vue, et pourquoi il est prolifique, les questions monétaire la plus importante dans le païen message "disciples et les cyclones."

Le troisième chapitre est intitulé du chapitre et appliquée: ". Disciples et les cyclones" analyse psychologique de la structure du récit dans la lettre des disciples et des cyclones, il est destiné à la détection de structures fonctionnelles et psychologiques dans le

Pour conclure que notre conclusion était une des conclusions générales, que nous avons constaté par nos recherches sur ce sujet, la plupart sont notamment:

- Cet écrivain l'a réussi dans la formation et la naissance d'une œuvre littéraire un nouveau, un bond en avant dans la littérature andalouse en particulier et la littérature en général, est l'œuvre du récit quitter le propriétaire est du monde de l'humanité dans le monde des djinns, le tissu est sans précédent, et une nouvelle idée a brisé toutes les formes de simple prose et Représentant l'engagement et le commandement, comme c'est saut de l'autre côté qui ne traitent pas des événements d'un autre monde autre que le nôtre, c'est l'histoire de «les disciples et les cyclones."
- Le message des disciples est le message de l'endroit où l'histoire de sa constitution, et l'histoire de l'endroit où l'objet et de construire la technique, et le fils d'un martyr dans les disciples avaient l'art le plus à droite de premier plan l'histoire des sites d'intérêt littéraire, la production littéraire, qui se caractérise par l'analyse et le raisonnement, et de cisaillement et de la critique, et l'émergence d'une image de soi, et donc on peut considérer "les disciples et les tempêtes », l'histoire des sous-développés littéraires en termes de construction et du contenu technique ainsi que, tant en termes de langue, la structure narrative, consistant en des événements, la description, le dialogue, les personnages, et d'autres articles.

حظيت القصة العربية بقدر من اهتمام بعض أدباء الأندلس و هي و إن لم تشغل حيزا كبيرا مثل ذلك الذي احتله الشعر من موشح و قصيد أو مثل ذلك الذي ناله النثر الفني إلا أن ما وصلنا من قصص على قلته جدير بالعناية و الدرس .

و قد تضافرت الجهود الأندلسية في سبيل ألا يعيش الأندلسيون بمعزل عن الثقافة المشرقية، و من ثم كان التقارب الفكري و الثقافي بين الأندلس و المشرق العربي ثمرة لهذا الالتقاء و أثرا من آثار الرحلة بين الإقليمين .

و قد قدّر للثقافة الأندلسية أن تنعم بنهضة عامة كان من أوضح معالمها بروز الشخصية الأندلسية العلمية و قوتها و استقلالها إلى حد كبير بالابتكار و الإبداع في أكثر فروع المعرفة بسبب ما تمتعوا به من حرية فكرية مع إقبالهم على العلوم الفلسفية و الطبيعية و الاتصال بينابيع المعارف الإغريقية و اللاتينية فكان لهم من وحي خيالاتهم ما طغى على أقلامهم، وشاع في كتاباتهم وصوغهم للحقائق المعرفية في صور قريبة من الخيال ،ممتعة غاية الإمتاع ،تروق النفس ، وتثير الحس ، وتلهب الشعور .

و قد تجلى ذلك بوضوح في قصة " حي بن يقظان " " لابن طفيل " التي تتحدث عن تدرج الإنسان في مراتب الكمال و تقلبه من حال إلى حال، في ثوب قصصي جميل، و يمثل هذا الاتجاه القصة الفلسفية في الأدب الأندلسي،ومثل ذلك صنع " ابن شهيد " في "التوابع و الزوابع" إبان القرن الخامس الهجري،صوّر من خلال هذه القصة تقلبه في مراتب الإجازة و التفوّق على خصومه و حساده.

ونحن يهمنا –هنا– بطبيعة الحال هذا التحول الكبير في مسار الأدب الأندلسي و ارتقائه لمنافسة الأدب المشرقي،لا بل و تجاوزه أيضا، فهذا " ابن شهيد " يطالعنا بعمل أدبي فريد من جنسه و لم يسبقه إليه أحد من المشارقة قط.

ودراستنا لرسالة " التوابع و الزوابع " " لأبي عامر بن شهيد " سنعنى بالنواحي القصصية فيها، فندرسها ونحللها دون التعرض ألى الجوانب المدروسة حول الحديث حول عصر الكاتب و نسبه ووظائفه و غير ذلك من بقية القضايا، مثل ما قام به الدكتور " إحسان عباس" في مؤلفه "تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة"؛ إذ أن الإطالة في الحديث عن هذه الجوانب لن تضيف جديدا إلى ما سبق و أقره جل الباحثين.

و سنحاول من خلال هذا العمل أن نقدم صورة لما نزعم إنجازه و المتعلق بدراسة البنية القصصية في رسالة " التوابع " اعتمادا على المنهج النفسي الذي به سنفسّر نفسية " ابن شهيد " و نحلل دوافعه فيها مستعينين في ذلك بأحداث عصره و رؤيته للحياة.

و لعله ليس من المماراة في شيء أن يلاحظ الباحث الدارس أن الفرش النظري موضوع الدراسة يتطلب التواطؤ مع ترسانة من المتون المعرفية و الدراسات و البحوث السابقة التي من شأنها إنارة الزوايا العاتمة. فنجد صاحب الطرح الأكثر نضجا – على الأقل في نظرنا – الدكتور " علي الغريب محمد الشناوي " في " كتابه فن القص في النثر الأندلسي " في محاولة لمعرفة مختلف العناصر القصصية الفنية المستخدمة في رسالة " التوابع " مع تفسيره أحيانا أخرى لدوافع "ابن شهيد " في وضعه " للتوابع و الزوابع ".

و عليه فإن دراستنا ستستفيد من هاته الدراسة التي قام بها الدكتور " محمد الشناوي " مع توظيف المنهج النفسي في تحليل البنية القصصية فيها و لكن بشيء من التعمق و التوسع في إبراز الآليات النفسية الموظفة في تشكيل البنية القصصية .

أما دافع اختيارنا لهذا الموضوع عائد أولا إلى:

1- اعتبار الأهمية العلمية للموضوع المتمثلة في نزوغ عمل فني فريد من جنسه يمثل طفرة في الأدب الأندلسي و لم يعرفها المشرق العربي إلا بعد تأليف " ابن شهيد " لرسالته الدنيوية

فهي أول عمل يرتحل فيها صاحبها من عالم الإنس إلى عالم الجن و أول عمل يزاوج فيها صاحبها بين الأسلوبين الشعري والنثري لعرض أحداث رحلته.

2- انتقاص مجموعة من الأدباء و النقاد الأندلسيين أنفسهم من شخصية الكاتب و مكانته الأدبية و التشكيك في قدراته النثرية و الشعرية و النحوية، يأتي على رأسهم النحوي الشهير" أبوالقاسم الإقليمي"و"أبو محمد" الذي اتهم شعر " ابن شهيد " و شك فيه.يضاف إليها "أبو بكر" الذي توجه إليه "أبو عامر" برسالته هاته .

3- كما أن عددا من هؤلاء النقاد والأدباء . و نقصد هنا المحدثين . منهم و إن اهتموا بدراسة البنية القصصية في " التوابع و الزوابع " فهم وإن تناولوها بالدراسة والتحليل فهم أغفلوا الجوانب النفسية،و نضرب لذلك مثلا بالدكتور " الموافي ناصر عبد الرزاق " في كتابه " القصة العربية عصر الإبداع دراسة للسرد القصصي في القرن الرابع هجري "

لذا أبينا إلا أن نسلط الضوء على الجانب المظلم من هذه الرسالة من قبل هؤلاء الدارسين لتثبت ما تحتويه من عناصر قصصية فنية تجعلها في مصاف الأعمال القصصية المكتملة فنيا، وترقى إلى مستوى القصة الفنية الحديثة .

ووفقا لهيكلة البحث الموزعة على مدخل و ثلاثة فصول سنطرح الإشكالات التالية :

- هل يمكن اعتبار رسالة " التوابع و الزوابع " عملا قصصيا مكتمل البناء الفني ؟
- و هل كان للدوافع النفسية الواعية واللاواعية أثر في ولادة هذه القصة في الأدب الأندلسي ؟

و بغية تجلية هذه الإشكالات المطروحة سنتوسل في جمع و تحليل مادة هذا البحث منهجا متكاملا :إستقصائيا وفنيا ونفسيا.فالإستقصاء لما يتطلبه من إحاطة بحياة الشخوص و الترجمان لها

سواء الترجمة الذاتية أو الأدبية، والمنهج الفني لما له من مزية في دراسة بنية النص للوقوف على الجوانب الفنية التي تنتظم هذا العمل الأدبي .

أما الفصل التطبيقي ففيه سنعتمد المنهج النفسي . بصفة خاصة . إذ من شأنه تفسير و تشخيص نفسية الكاتب و تحليل دوافعه لوضع مثل هذا المؤلف مع الإستعانة بمحيط الكاتب الإجتماعي والإستدلال لدلك بنصوصه .

و قد إقتضت طبيعة الموضوع إتباع الخطة التالية :

1- المدخل : كأرضية تمهيدية للمتلقي للولوج إلى الموضوع لذلك سنخصصه للحديث عن نشأة فن القصة عند الغرب ،وعند العرب، و أبرز أنواعها و سماتها الفنية.

2- الفصل الأول : و سنسمه بـ " ابن شهيد الأندلسي الإنسان الفنّان " أين سيتعرف القارئ على شخصية المؤلف المبدع و أبرز أعماله الأدبية و غيرها من الأمور الأخرى المتعلقة بحياة المبدع.

3- الفصل الثاني : و سنعنونه بـ " رسالة التوابع و الزوابع "دراسة في الشكل والمضمون،و فيه سنقف بالمتلقي عند طبيعة الرسالة و شكلها الأدبي بغية تسهيل مهمته في الفصل الموالي في إدراك أبرز المعالم الفنية لجنس القصة في هذه الرسالة.

4- الفصل الثالث : و هو الفصل التطبيقي و سنخصصه للكشف عن البنيات الفنية والنفسية .

لنختم بحثنا بخاتمة ستكون عبارة عن نتيجة عامة لما سنتوصل إليه من خلال بحثنا في هذا الموضوع.

و لعله لا ضير في الاستفادة من بعض المضان والمراجع ذات الصلة بالموضوع، و عليه سنعتمد و بشكل أساسي على كل من كتاب " رسالة التوابع و الزوابع لابن شهيد الأندلسي "

صححها و حقق ما فيها و شرحها " بطرس البستاني "، و" رسالة التوابع و الزوابع " درس و منتخبات بقلم "فؤاد أفرام البستاني "، و كتاب " فن القص في النثر الأندلسي " للدكتور " علي الغريب محمد الشناوي " إلى جانب كتابي " تاريخ الأدب الأندلسي " للأستاذ الدكتور " مصطفى محمد السيوفي "، و " الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه " تأليف الدكتور " مصطفى الشكلة "، بالإضافة إلى مؤلف الدكتور " محمد سعيد محمد " " دراسات في الأدب الأندلسي "، و كتاب " الرسالة الأدبية في النثر الأدبي " لصاحبها الدكتور " فوزي عيسى "، و كذا المجلد الأول من كتاب " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " – الجزء الأول – لصاحبه " الشنتريني ابن بسام ".

و يبدو أنه غالبا ما تصطدم متعة المغامرة و البحث بقلة الزاد العلمي و المصادر و المراجع خاصة فيما يتعلق بموضوع بحثنا. هذا إن لم نضف سببا آخر و هو ضياع النص الأصلي لرسالة " التوابع " فقد ضاع أكثرها بين ما ضاع من آثار أدبائنا فهي قصة طويلة لم يسعد الأدب العربي بإثباتها كاملة،و كل ما وصلنا منها ذلك الطرف الذي حفظه " ابن بسام " في " الذخيرة ". بالإضافة إلى صعوبة لغة الرسالة إذ أن فهمها يستوجب في كثير من الأحيان اللجوء إلى معاجم اللغة و قواميسها لشرح و فهم مفرداتها.

و نسأل الله تعالى التوفيق في مسعانا هذا في الإلمام و الإحاطة بجوانب هذه الإشكالية فنستفيد و نفيد غيرنا من الباحثين في الموضوع ذاته.

و لا يفوتنا في هذا المقام أن نتوجه ببالغ الشكر و العرفان لربان سفينتنا الأستاذ الدكتور المشرف :" فاتح حمبلي " الذين لم يبخل علينا بمساعدته ونصائحه واقتراحاته لإثراء هذا الموضوع ،والذي رسم لنا طريق الحياة العلمية ، و علمّنا أن البداية جدّ و كفاح و النهاية نصر و نجاح.

كما يسرنا أن نتقدم بالامتنان و الشكر الجزيل للجنة العلمية التي ستشرفنا لمناقشتنا المذكرة ، و إن ذلك طبعا لمن كرم عطائها و تفضلها علينا ، و لحبها العلم أيّما حب بالدرجة الأولى.

وأقدم شكري لكل من أمدني بالعون من قريب أو بعيد ، من أساتذة ومكتبيين ، دون أن ننسى زوجي الذي كثيرا ما أزعجته بإنشغالي عنه بدفاتري ومسودّات بحيثي .

I – مدخل إلى فن القصة

1) نشأة فن القصة :

1-1- عند الغرب

1-2- عند العرب : 1-2 : في الأدب الجاهلي

2-2 : في الأدب الإسلامي

2) مفهوم القصة العربية :

1-2 – لغة

2-2 – اصطلاحا

3) أشكال القصة :

3-1- القصة القصيرة أو الأقصوصة

3-2- المقامة

3-3- القصة بين الأقصوصة و الرواية

3-4- الحكاية

3-5- الخبر

3-6- الرواية

3-7- الملحمة

3-8- المسرحية

4) العناصر الفنية للقصة :

4-1- الوسط أو البيئة

4-2- الزمن

4-3- الحدث

4-4- شخصيات القصة و أبطالها

4-5- الوصف

4-6- الحوار

4-7- السرد

4-8- الحبكة

4-9- الفكرة

4-10- العقدة

4-11- الحل

مدخل إلى فن القصة :

1 – نشأة فن القصة :

لقد تأخر ظهور الفن القصصي في الآداب العالمية عن الملحمة و المسرحية ، فالقصة آخر الأجناس الأدبية وجودا في تلك الآداب ، وكانت أقلها خضوعا للقواعد ، و أكثرها تحررا من قيود النقد الأدبي ، وكانت تلك الحرية سببا في تموها السريع في العصور الحديثة ، فسبقت تلك الأجناس الأدبية الأخرى في أداء رسالة الأدب الإنسانية ، و أصبحت في الآداب الكبرى تفوق المسرحية وحلت مكانها اجتماعية و فنية لا يفضلها فيها جنس أدبي آخر .

و إذا كانت بداية بزوغ النثر القصصي مع الغرب مع ما كان يعرف بالملاحم القصصية فان ذلك لا ينفي وجود نقطة تلاقي تاريخية بين أدبنا العربي و الآداب العربية .

ومما يندرج في الجنس القصصي في أدبنا القديم " رسالة التوابع و الزوابع " للشاعر الكاتب الأندلسي " أبي عامر أحمد بن شهيد " .

ولكن قبل التطرق لمعرفة و معالجة هاته القصة ، دعنا أولا نتعرف على مسار فن القصة ، و أصولها الغربية ، وكيفية نشأتها عند العرب ، ومنة ثمة سنورد مفهوم القصة العربية و أهم أشكالها و خصائصها الفنية .

1-1 – عند الغرب :

تعد الملاحم اليونانية القديمة تمهيدا لظهور النثر القصصي الغربي فيما بعد ، نظرا لما تضمنته من عناصر قصصية ، وقد تم أول ظهور للنثر القصصي في الأدب اليوناني في القرن الثاني بعد الميلاد ، وكانت القصة آنذاك ذات طابع ملحمي ، فكانت حافلة بالمغامرات الغيبية و بالسحر وبالأمور الخارقة ، ويتمثل النموذج العام لأحداث قصص ذلك العهد في افتراق حبيبين ،تقوم الأخطار المروعة ، و

العقبات المؤنسة حدا فاصلا بينهما ويفلتان منها بطرق تفوق المألوف ، ثم تختم القصة ختاما سعيدا بالتقاء الحبيبين .[1]

ومن أشهر القصص اليونانية لذلك العهد قصة " نياجينس " و " خاركليا " théagenes and chakilea وهي من تأليف " هيلودور الفينيقي " في القرن الثالث بعد الميلاد .[2]

و أما في الأدب اللاتيني ، فقد ظهرت القصة فيه في أواخر القرن الأول بعد الميلاد على نحو مخالف للقصة اليونانية في بادىء الأمر كما في قصة " ساتيريكون " التي ألفها " بترونيوس " وهي هجائية ، تصور مغامرات شائنة لصعلوكين وخادمهما ، وتكشف عن حال الطبقات الفقيرة في[3] عهد " نيرون " وتصف العادات و التقاليد في سخرية مرة ، كما تحكي كثيرا من حيل السحرة و اللصوص . ثم تأثرت القصة اللاتينية بالقصة اليونانية ، و أشهر قصة يمثل بها هي قصة " المسح " أو " الحمار الذهبي " ألفها " أبوليوس " apulius في النصف الثاني للقرن الثاني بعد الميلاد ، و لها أصل يوناني مجهول المؤلف .[4]

وفي هذا كله كانت القصة قريبة من أصلها الملحمي ، فالقاص ينهج منهج الشاعر في نزعته الى الواقع و القاص و الشاعر كلاهما كان يتخيل ويصف ما يتخيل ، أكثر مما يصف الواقع و يواجهه ، وكانت الجماهير في عصور الإنسانية الأولى تهتم بالأحداث العجيبة ، و بالأخطار الخيالية ، على حين لا تعبأ بالواقع و لا تحفل به وبذلك سبقت القصة الخيالية إلى الوجود القصة الواقعية ، كما سبق الشعر النثر الفني وإن كان كل منهما ينطلق من مورد واحد .

(1) : هلال مجمد غنيمي،الأدب المقارن (د . ط) دار النهظة للطباعة و النشر و التوزيع ،مصر، سنة 1928 ، ص 164.

(2) : المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

(3) : المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(4) : المرجع نفسه ، ص : 164،165.

وفي العصور الوسطى الأوروبية وجدت قصص ذات طابع شعبي هي " الفابليو " على أن هذه القصص لا تندرج في القصة في معناها الفني ، ولم تساعد في تطور مفهوم القصة بعامة . و أهم ما نعني بذكره هنا من قصص العصور الوسطى ، هو قصص الفروسية و الحب ،وفيها بدأ تأثير عربي ذو قيمة كبيرة ظل طوال العصور الوسطى وشطرا من عصر النهضة .[1]

وفي الأدب الروماني ألف " أفيديوس avidius " (43 ق.م – 18 ق.م) كتابا أسماه" فن الحب " يعلم فيه الرجال كيف يحظون بحب النساء ، ويعلم فيه النساء كيف يكتسبن مودة الرجال على طريقة لم يلتزم فيها حدود الخلق ، ولم يراع فيها أية مكانة للمرأة ، و المؤلف في هذا الكتاب مستهتر ماجن يدمغ عصره بالفسق و الفجور ، و من هذه الناحية اكتسب الكتاب صورة هجاء اجتماعي ، وقد أراد " أفيدوس" أن يستدرك ما صنع ، فألف كتابا آخر عنوانه " علاج الحب " في لهجة ساخرة أيضا ، يستثني فيه السراة و الشرفاء من القوم في كتابه الأول ويسدي نصائح لمن يبتلون فيرون نقائص النساء فضائل ... ويظهر من كتابيه السابقين أن الحب مجون ودعابة ولا جد فيه .[2]

وفي العصور الوسطى الأوروبية ظلت المرأة على حالها في المجتمع و في الأدب لا يؤبه بها حتى القرن الحادي عشر ، وحين ذاك أخذ يظهر خلق الفروسية الذي يزاوج بين أخطار الحرب و أخطار الحب ، وقد يكون لروح الفروسية في الحروب آنذاك وبخاصة الحروب الصليبية ، بعض الأثر في النظر إلى المرأة نظرة تبجيل ، إذ أن من طبيعة الفارس أن ينبل في عاطفته ويصدق ، وقد يكون لانتشار الثقافة بين صفوة النساء ، ومخالطتهن قصور الملوك ، أثر كذلك في الإشارة بمكانته المحبوبة . [3]

وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي ألف " lechepllane " كتابا باللاتينية سماه " فن الحب العف " وفيه يذكر إدراكا جديدا للحب لم يكن للأدب الأوروبي به عهد حتى ذلك القرن ،

(1) : المرجع السابق ، ص : 165.

(2) : المرجع السابق ، ص : 166.

(3) : المرجع السابق ، ص : 166 – 167.

وفيه ترتفع المرأة إلى مكانة لم تحظ بها من قبل في أوروبا ، ويخضع الفارس لها كما يخضع السيد صاحب الإقطاع في تلك العصور ، فالفارس يضحي في سبيل حبها ، ويبكي حين يهدده الخطر في حبه ، ويعد ضعفه أمامها نبلا وسموا ، و الحب طاهر ، بل هو على رأس الفضائل فهو الذي يعلم المحب الكرم ويبعث على التمسك بالخلق الكريم ، ولا يصح للمرء أن يحب أكثر من امرأة ، ولا أن يحب امرأة غير كريمة الخلق ، فالطهر و الحياء و الصدق و الوفاء و التضحية هي دعائم الحب النبيل ، حب يكتنفه الحرمان ، ويطيب للمحب فيه العذاب ، ويشق عليه الظفر بما يأمل من غاية .[1]

ومن أشهر القصص الاسبانية التي اتخذت نموذجا لقصص الحب و الفروسية طوال عصر النهضة و أثرت بهذا الطابع في الآداب الأوروبية ، قصتان أحدهما للكاتب الاسباني " سان بيدرو " من رجال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وعنوان قصته " سجن الحب " وقد نشرها عام 1492 م و القصة الثانية للكاتب الاسباني الأخر : **جارثي أور دونييس** و عنوانها " أماديس دي جولا " وقد نشرها عام 1508 م ،وفي القصتين يتفق الجانب العاطفي مع روح الفروسية فالوفاء لدى المحب غاية في ذاته وفي سبيل الحب تهون كل الغايات ، ويتغلب على كل الصعوبات ، وعلى المحب أن يبرهن على صدق حبه بالخضوع التام لأمر حبيبته ، ولو كان في الخضوع هلاكه ، وقد أثرت القصتان السابقتان في جميع الآداب الأوروبية في عصر النهضة .[2]

وقصص الفروسية و الحب تحتوي على جانب عاطفي ذاتي و طابع إنساني تفوق به الملاحم ، ولكنها بعد ذلك تقرب من عالم الملاحم ، لأن أخطار الحب فيها شاذة تشبه ما في سيرة بطل الملاحم ، فالبطل في القصة مثال الفارس الكامل ، يعيش في عالم بعيد عن الحقيقة ، و تحميه قوى غيبية ، ثم إن هذه القصص متخلفة ن نضجها الفني ؛ إذ لا يربط الحوادث فيها سوى شخصية البطل الذي لا

(1) : هلال غنيمي ، الأدب المقارن ، ص : 167.

(2) : المرجع نفسه ، ص : 170 – 171.

يزال ينتقل من نصر إلى نصر ، فالوحدة العضوية لا وجود لها ، على أن مثل هذه القصص في مثاليتها تبعد كثيرا عن الواقع ، وتسير رتيبة في أحداثها ، فهي تصوير لكفاح الفارس المنتصر دائما ، وتأتي النهاية المكررة غالبا من ظفر الفارس بإعجاب حبيبته وقضائه على كل العقبات .[1]

وكانت قصص الرعاة في عصر النهضة أقرب إلى الواقع من قصص الفروسية السابقة ، على الرغم من أن إدراك الحب واحد فيهما ، وذلك أن قصص الرعاة تقل فيها العناصر العجيبة الموجهة للأحداث ، وتكاد تنحصر في السحر و استطلاع المستقبل ، فالحوادث فيها إنسانية في جوهرها على الرغم من أنها رتيبة ، وقد صور كتابها أماكن واقعية في بلادهم جعلوها مجال الحوادث التي دارت بين الرعاة . وليس هؤلاء الرعاة إلا أشخاصا حقيقيين أرستقراطيين ، يلبسون من الرعاة و الراعيات قناعا ، فكان هؤلاء الرعاة و الرعيان يمثلون شخصيات في قمة المجتمع ، لا في طبقتهم الوسطى أو الدنيا وهذه القصص نشأت أولا في الأدب الإيطالي ، ثم الإسباني ، ثم الفرنسي .[2]

وفي القرن السادس عشر و السابع عشر في أوروبا وجد جنس جديد من القصص ، خطا بالقصة خطوات نحو الواقع ، يطلق عليه **قصص الشطار** ، ووجد أول ما وجد في اسبانيا ، وهو قصص العادات و التقاليد للطبقات الدنيا في المجتمع ، وتسمى في الاسبانية picaresca و تختص بأن المغامرات فيها يحكيها المؤلف على لسانه ، كأنها حدثت له ، وهي ذات صبغة هجائية للمجتمع ومن فيه ، ويسافر فيها البطل (المؤلف) على غير منهج في سفره ، وحياته فقيرة بائسة يحياها على هامش المجتمع ، ويضل ينتقل بين طبقاته ليكسب قوته وهو يحكم على المجتمع من وجهة نظره هو حكما تظهر فيه الأثرة و الإنطواء على النفس، وقصر النظر في اعتبار الأشياء من الناحية الغريزية النفعية ؛ فكل من يعارضه فهو خبيث ، ومن يمنحه الإحسان فهو خير. و أول قصة من هذا الجنس القصصي في الأدب الاسباني

(1) : المرجع السابق ،ص: 171-172 .

(2) : المرجع السابق ، ص : 172.

هي قصة عنوانها " **لاساريودي تورمس وحظوظه ومحنه** " وهي قصة تتبع من واقع الحياة في الطبقات الدنيا ، وتصفها كما يمليها منطق الغرائز الصريح . وهي معارضة لقصص الرعاة السالفة الذكر ، وتسير على نقيضها ، لأنها تصف وقائع مثالية ، بينما هي تصف وقائع حقيقية ، وتصف واقعا لا مثالية فيه ولا أمل .[1]

وممن تأثر به في الأدب الفرنسي " شارل سورل charles sorel في قصته " **تاريخ فرانسيون الحقيقي الهازل** " وقد نشرها في باريس عام 1622 م وهي أول قصة من قصص الشطار في فرنسا، وهي على لسان شخصية " فرانسيون" يهجو فيها العادات والتقاليد بواسطة أشخاص من المتسولين ،ومن يعد في حسبانهم ،– في نظر المؤلف–كما يهجو مختلف الطبقات الأخرى في عهد ه من خلال أولئك الأشخاص .وقد كانت هذه القصة وأمثالها أصلا لما سلكه الكاتب الفرنسي " **لوساج le sage** " في قصته " **جان بلا** " التي ظهرت طبعتها الكاملة في فرنسا عام 1747م وفيها يهجو المؤلف العادات و التقاليد على لسان البطل الذي سميت القصة باسمه .[2]

وفي أواخر القرن الثامن عشر نهضت القصة في الآداب الكبرى الأوروبية ، فتطورت قصص العادات و التقاليد السابقة الذكر ، فنتج عنها ما يسمى : **القصص ذات القضايا الاجتماعية** . وبذلك سبقت القصة المسرحيات في مجال الثورة الاجتماعية . فأصبح وصف التقاليد وسيلة لأجلاء الحقائق ، و الكشف عن النواحي النفسية في الفرد ، ثم النواحي الاجتماعية في مختلف الفئات بغية إنصافهم في المجتمع وصارت القصص بذلك ذات صبغة ديمقراطية في علاج مشكلات الشعب ، وقامت بأخطر دور الأدب في الحضارة الحديثة .[2]

(1) : المرجع السابق ، ص : 173.

(2) : المرجع السابق ، ص : 174.
(2) : هلال غنيمي ، الأدب المقارن ، ص : 175.
(2) : المرجع نفسه ، ص : 175 – 176.

وفي العصر الرومانتيكي ساعدت العاطفة أو – **الفلسفة العاطفية –** على الدعوة إلى حقوق الفرد في المجتمع على لسان شخصيات القصة في الأدب الفرنسي و الانجليزي ، وكانت هذه الدعوة هي جوهر الرومانتيكية في ناحيتها الاجتماعية ، وفيها وضح اتجاهان كانا يتلاقيا ن آخر الأمر ، هما : الكشف عن حالة الفرد في حقوقه المهضومة التي تتطلب تغيير النظم القائمة في ذلك الحين ، ثم ما تستلزمه سعادة الفرد بعد ذلك من تعاون اجتماعي نم نوع جديد . وتشابهت هذه القضايا في الآداب المختلفة في العصر الرومانتيكي ، وكانت تدور حول إثارة الرحمة بالبائسين ، و الإعتداد بحقوق الفرد في وجه المجتمع ، ثم الحد من حقوق الطبقات الارستقراطية .[1]

وفي ظل الرومانتيكية أيضا نشأ جنس **القصة التاريخية** ، بقواعدها الفنية الخاصة بها ، وكان الرومانتيكيون يقصدون في هذا الجنس إلى إحياء ماضيهم الوطني التاريخي ، و الكاتب الانجليزي الرومانتيكي " **ولترسكوت valter – scott** " هو أب القصة التاريخية في أوروبا .

لم يلجأ ولتر سكوت إلى الحوادث التاريخية المعاصرة ليتخذ منها مادة لقصصه ، بل اختار موضوعاته من عصور سحيقة وبخاصة من العصور الوسطى ولم يجعل الشخصيات التاريخية تحتل المكانة الأولى في قصصه ، ذلك أن قيود التاريخ تمنعه من التصرف القصصي ، وتحرمه الحرية الفنية ، لذلك كان " ولتر" يحل تلك الشخصيات التاريخية في المحل الثاني من قصصه ، على حين يختار شخصيات غير تاريخية تمثل روح العصر الذي يكتب عنه في أدق خصائصه التاريخية ؛ وهو يتخذ من الحوادث التاريخية كل العناصر التي تكسب قصته القوة و الحياة ، ليبعث من جديد صورة ذلك العصر فيما له من طابع زماني ومكاني ،مراعيا دقة الوصف في اللوحات التاريخية التي يعرضها ، ولذلك يختار أشخاصا

(3) : المرجع نفسه ، ص : 176 – 177.

غير تاريخيين ،ولكن كلا منهم يمثل طبقة من الطبقات الاجتماعية في العصر الذي يكتب عنه.وبذلك تحتل الحقائق التاريخية المكان الأول في قصص " **ولتر سكوت** " .[1]

فلم يعد التاريخ – في القصص التاريخية – جزءا مملا يتعجل القارئ في قراءته ليفرغ منه ، بل أصبح التاريخ هو الغاية المقصودة في كل أجزاء القصة ، على حين أصبح العنصر الخيالي في القصة غير ذي بال ، ومسائل الحب في قصص التاريخ عامة ، وقصص **ولتر سكوت** خاصة لا تقصد لذاتها ، ولكنها تتخذ سبيلا لربط حوادث القصة في أجزائها المختلفة ، ثم لجذب القارئ ، وإثارة انتباهه .

وتختفي العواطف و المشاعر أو تكاد تختفي في قصص " **ولتر سكوت** " لتحل محلها الإحساسات العامة و المشكلات الاجتماعية ، فما شخصيات القصص التاريخية عامة وعند ولتر سكوت على سبيل التخصيص ،.سوى نماذج لتصوير المجتمع التاريخي و ما به من مشكلات ، وبهذه الاتجاهات الفنية فتح "سكوت " طريقا جديدا في القصة لكل من سار على نهجه ، وقد عاشت القصة التاريخية وازدهرت طوال العصر الرومانتيكي ، وماتت – أو كادت أن تموت – في الأدب الأوروبي ، بانتهاء الرومانيكية ، حوالي منتصف القرن التاسع عشر .[2]

(1) : المرجع السابق ، ص : 176 – 177.

(2) : المرجع السابق ، ص : 177.

وبعد الرومانتيكية استكملت القصة نواحيها الفنية ، في الآداب الأوروبية في ظل المذهب الواقعي و المذاهب الأخرى التي تلت الرومانتيكية .

1-2 – في الأدب العربي :

أما في الأدب العربي ، قلم يكن في قديمه للقصة شأن يذكر ، وكان لها مفهوم خاص لم ينهض بها ولم يجعلها ذات رسالة اجتماعية أو إنسانية .

على أن القصة في الأدب العربي القديم ، لم تكن من جوهر الأدب (كالشعر و الخطابة و الرسائل مثلا)؛ بل كان يتخلى عنها كبار الأدباء لغيرهم من الوعاظ و كتاب السير و الوصايا ، يريدونها شواهد قصيرة على وصاياهم وما يسوقون من حكم ، وقد يكون لذلك صلة بنبوغ كثير من مسلمي ايران في القصص و المواعظ العربية ممن كانوا يجيدون اللغتين : العربية و الفارسية ، على ما يروي الجاحظ ، مثل الخطباء القصاصين من أسرة الرقاشي ، ومثل موسى الأسواري ، وكان هؤلاء يفيدون من إطراءهم على قصص الشاهنامة .[1]

ومن عيون الأدب العربي قديما مما يمت بصلة للقصة ؛ ألف ليلة وليلة ، و المقامات ، و رسالة التوابع و الزوابع ، ورسالة الغفران ، ثم قصة حي بن يقضان .

أما ألف ليلة وليلة فهي مدونة في عصور مختلفة ، ومن المقطوع به أن الكتاب في أصله كان معروفا لدى المسلمين قبل منتصف القرن العاشر الميلادي ، ويشهد " المسعودي " و " ابن النديم " أن الكتاب في أصله مترجم عن الفارسية ، ولكن المسعودي يقرر أن الأدباء في عهده تناولوا هذه

(1) : هلال غنيمي ، الأدب المقارن ، ص : 177

الحكايات بالتنميق و التهذيب ، وصنفوا في معناها ما يشبهها .[1] فأصل الكتاب كان مدونا ، ثم نزل الأدب الشعبي " الفلكلوري" فغير منه وزيد فيه .[2]

وحكايات ألف ليلة وليلة ليس لها طابع تعليمي إلا فيما تحتوي عليه من قصص الحيوان ، وهي قليلة نسبيا ، أما بقية القصص فهي زاخرة بالمخاطر وعالم السحر و العجائب ، و الرابطة بين حوادثها مصطنعة ، تمتد – عن طريق التساؤل – في الزمن كما يشاء القاص ، فالخيط الذي يربط بين الحكايات بعيد عن فن القصة في معناها الحديث .[3]

أما الحكايات القصيرة العربية الأخرى الأصيلة النشأة الغير مترجمة فهي المقامات ، و المقامة في الأصل معناها المجلس ، ثم أطلقت على ما يحكى في جلسة من الجلسات على شكل حكاية ذات أصول فنية ، وموجز هذه الأصول أنها حكاية قصيرة يسودها شبه حوار درامي ، وتحتوي على مغامرات يرويها راو (وهو عيسى بن هشام) في مقامات **بديع الزمان** و " **الحارث بن همام** " في مقامات " **الحريري** " عن بطل يقوم بها هو " **أبو الفتح الأسكندري** " في أكثر [4] مقامات " **بديع الزمان** "

و " **أبو زيد السروجي** " في مقامات الحريري ، وقد يكون هذا البطل شجاعا يقتحم أخطارا و ينتصر فيها ، وقد يكون ناقدا اجتماعيا أو سياسيا ، وقد يكون فقيها متضلعا في مسائل الدين أو مسائل اللغة ، ولكنه في حالاته كلها تقريبا : متسول ماكر ولوع بالملذات ، مستهتر يحتال للحصول على المال ممن يخدمهم ، ثم هو دائما أديب يجيد في أسلوبه عن بديهة و ارتجال ، وفي المقامات وصف للعادات و التقاليد التي تسود الطبقات الوسطى و الدنيا في كثير من المجتمعات الإسلامية .

(1) : المرجع السابق ، ص : 178.

(2) : المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

(3) : المرجع السابق ، ص : 179.

(4) : المرجع السابق ، ص : 180.

وكان يمكن أن يكون هذا الجنس أخصب جنس أدبي في العربية ، و أن يقوم في مقام نقد العادات و التقاليد و القضايا الاجتماعية – مقام القصة والمسرحية في الآداب الغربية ، لولا أنه سرعان ما انحرف عن النقد الاجتماعي في صورة جدية إلى المماحكات اللفظية و الألغاز اللغوية و الأسلوب المصطنع الزاخر بالحلية اللفظية التي لا تعود على المعنى بطائل يذكر .[1]

و أول من اخترع المقامات في معناها الفني السابق ، و أعطاها هذا الاسم في العربية هو " **بديع الزمان الهمذاني** " المتوفي عام **398 هـ (1007م – 1008 م)** وهو متأثر في اختراعه بنموذج واقعي لمقاماته ، هو الشاعر " **أبو دلف الخزرجي اليبنوعي مسعر بين مهلهل** " وهو معاصر لبديع الزمان ، وقد كان مثال الجوال جاب الآفاق ، المحتال على كسب الرزق بالأدب والشعر و الحيل الأخرى التي تنبو عن الخلق الكريم . وكان " بديع الزمان " يعجب به ، ويحسن إليه ، ويحفظ من شعره وقد ضمن مقاماته بعض شعره ، مثل هذين البيتين من قول " أبي دلف " :

ويحك !هذا الزمان زور ◌ فلا يغرنك الغرور

لا تلتزم حالة ، ولكن ◌ در بالليالي كما تدور

ضمنها بديع الزمان مقامته القريضية .[2]

وقد أثر الأدب العربي فيما يخص جنس المقامات في الأدب الفارسي ، ففي مقامات "**حميد الدين** " الفارسية للقاضي حميد الدين التبخي (عمر بن محمود المتوفى عام 559 هـ) يسير مؤلفها على نهج " **بديع الزمان** " و " **الحريري**" كما يعترف في مقدمة مقاماته الفارسية ، على الرغم من أ، مقاماته تختلف عن المقامات العربية من وجوه؛ فشخصية المؤلف تحتل المكانة الأولى المباشرة فيها . فليس فيها راو معين ، و إنما يروي المؤلف أحداثه عن كثير من أصدقائه ، لا يذكر أسماءهم . ثم إنه ليس في مقاماته بطل تتعدد مواقفه في مختلف المقامات ، كما في مقامات البديع و الحريري ، بل إننا نرى في كل مقامة

(1) : المرجع السابق ، ص : 180.
(2) : المرجع السابق ، ص : 180 – 181 .

من مقامات الفارسية بطلا يقوم بمغامراته ،ثم يختفي دون أن يبين عن إسمه أو مصيره ، ويظل مجهولا وراء ستار الغموض و الإبهام . [1]

وقد أثرت المقامات العربية كذلك في الأدب الأوروبي تأثيرا واسعا متنوع الدلالة ، فقد غذت هذه المقامات قصص الشطار (picaresca) الإسبانية بنواحيها الفنية وعناصرها ذات الطابع الواقعي ، ثم انتقل التأثير من الأدب الإسباني إلى سواه في الآداب الأوروبية .(2)

ومما يندرج في الجنس القصصي في أدبنا القديم أيضا رسالة(التوابع و الزوابع) للشاعر الكاتب الأندلسي (أبي عامر أحمد بين شهيد (382 هـ – 426 هـ) وهي رحلة خيالية في عالم الجن يحكي فيها كيف التقى بشياطين بعض الشعراء من توابع وزوابع ، وتجري بينه وبينهم مناظرات ومساجلات أدبية دائما ، وكذلك بينه وبين ما يجده من مخلوقات في عالمهم ، وهو ينتصر في هذه المساجلات الأدبية دائما ، وتسود هذه الحكاية روح الفكاهة مع سخرية سطحية ، وفكرة شياطين الشعر قديمة وهي الرمز الأسطوري للإلهام ، وقد كان لمؤلفها الفضل في البدء برحلة أدبية إلى عالم آخر ، يشبه عالم الأرواح في الإسراء و المعراج .(3)

وكذلك رسالة (الغفران) التي ألفها (أبو العلاء المعري) المتوفى عام (449 هـ) وهي رحلة تخيلها أبو العلاء في الجنة وفي الموقف و في النار كي يحل – في عالم خياله – مسائل و مشاكل ذاقها في عالم واقعه ، من العقاب و الثواب ، وتناسخ الأرواح ، و الغفران ... مع الكثير من المسائل الأدبية و اللغوية ، ثم يوردها مورد الساخر تارة ، و الناقد اللغوي المتبحر تارة أخرى .[4]

(1) : المرجع السابق : ص : 183

(2) : هلال غنيمي ، الأدب المقارن ، ص : 183 .

(3) : المرجع نفسه ، ص : 184.

(4) : المرجع نفسه ، ص : 184.

كما نذكر من القصص العربية القديمة قصة " **حي بن يقضان** " لأبي الحسين بن عبد الله بن سينا الملقب بالرئيس ، و المتوفى عام (980 هـ – 1037 م) وهي رسالة فلسفية ألفها صاحبها على طريقة الصوفية في الرمز ، و (حي) يقصد به العقل الفعال ، أو النفس الملكية المفكرة ، وهذا العقل حي دائما ، غير متغير لا يهرم أبدا ، و (إبن يقضان) كناية عن صدوره عن القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، و الرحلة الموصوفة في الرسالة رمزية ؛ ترمز إلى طلب الإنسان المعارف الخاصة ، بصحبة رفقته من الحواس وفي حركة تطلب المعارف العليا، يستعين الإنسان بالعقل الفعال الذي يهديه عن طريق المنطق و الفلسفة ، وبفضل مصدر المعارف الذي هو مصدر النفس الملكية ، وهذا العقل الفعال قدسي ، وبفضل هذا العقل الفعال يهتدي المرء إلى الحقائق العليا . [1]

وللتوضيح أكثر و التجلية لموضوع نشأة القصة عند العرب ، سأتتبع مسار القصة في عصورها المتعاقبة ، من الطفولة حتى النضج :

أ – في الأدب الجاهلي :

من جملة الفنون التي عرفت للعرب في العصر الجاهلي فن القصة النابع من بيئتهم و المصور لحياتهم وعقائدهم ، وبطولاتهم ومغامراتهم .

ومن الثابت أنهم كانوا مشغوفين بالقصص شغفا لا حد له ، وساعدهم على ذلك اتساع وقت فراغهم ، فكانوا إذا جن الليل وأرخى سدوله اجتمعوا للمسامرة ، و لا يبدأ أحدهم في مضرب من مضارب خيامهم بقوله : " حدث أو كان " حتى يرهف الجميع أسماءهم إليه ، ولا مانع من مشاركة بعضهم له في الحديث أو القص ، ويتابع الحاضرون الحديث في لهفة وشوق ... وكان القاص يسبغ على قصصه الكثير من خياله وفنه حتى يستحوذ على إعجاب المجتمعين ، ويملك مكانا في قلوبهم ، فيحولهم من جو

[1] : المرجع السابق ، ص : 185 – 186 .

الشفقة إلى جو الصرامة ومن أفق الهزل و الضحك إلى أفق الجد الصادق ، فإذا بعيونهم تلمع في وجوههم السمر ، وبقلوبهم تحقق من آن لأخر ... مع تموجات الحديث .... [1]

وليس بين أيدي الباحثين شيء من أصول هذه القصص التي كانت تدور بينهم ، غير أن بعض اللغويين و الرواج دونوا في العصر العباسي ما انتهى إلى علمهم منه ، وطبيعي أن تتبدل الأسس و تحرف الأصول أثناء هذه المرحلة الطويلة التي قطعتها القصة من عهد الجاهلية إلى القرن الثاني الهجري ، وان كان من الصحيح أنها ضلت محتفظة بالكثير من سمات القصص القديم و معالمه .

ومن خلال ما دونه العباسيون يمكننا أن نتعرف على ألوان هذا القصص الذي كانوا يتناقلونه بينهم على أن أكثر هذه الألوان شيوعا على ألسنتهم هو قصص أيامهم وحروبهم وما سجله أبطالهم فيها من انتصارات دونت أسماءهم في سجل الخلود ، وما منيت به بعض القبائل من هزائم منكرة ، وقد ضلت أحداث هذه الأيام ووقائع تلك الحروب تقص ويستمع إليها الناس حتى تناولها لغويو القرن الثاني الهجري ورواته ، فدونوها تدوينا منظما على نحو ما هو معروف عن **أبي عبيدة** وشرحه لنقائض " جرير " و " الفرزدق " ثم ما تلا ذلك من عناية و تصنيف و تأليف .

ولقد قصوا كثيرا عن ملوكهم من العساسة و المنادرة ومن سبقوهم أو زامنوهم مثل تاريخ ملوك الدولة الحميرية و **الزباء** ملكة تدمر ، مما نجده مبثوثا في مثل تاريخ"الطبري" ، و السيرة النبوية " لإبن هشام " وقد وصل كثير من هذه القصص إلى صاحب الأغاني فدوّنه فيها .[2]

ومما لاشك فيه أنهم كانو يقصون كثيرا عن كهانهم وشعراءهم و سادتهم ، وهي قصص أستمدت منها كتب الأدب و الشعر و التاريخ ، واتخذت منها معينا لا ينضب من الأخبار ، وتراجم صاحب الأغاني [3]

(1) : السيوفي محمد مصطفى ، تاريخ الأدب الأندلسي ،(د ، ط) دار البيان للطباعة و النشر،سنة 2003،ص : 60-61.
(2) : المرجع نفسه ، ص : 61.
(3) : المرجع نفسه ، ص : 62.

تحفل بمادة غنية من هذه القصص ، وقد بتوا فيها غير قليل من قصص الهوى كقصة " المرقش الأكبر " وصاحبته **أسماء بت عوف** وغيرها من القصص ، ومثل ذلك خرافاتهم القصصية عن الحيوانات ، مثل خرافة الحية و الفأس التي رواها " الضبي " و الميداني و غيرهما .[1]

ذلك بالإضافة إلى ما قصوه عن الجن و العفاريت ، و الشياطين وقد تعارفوا بينهم على أنها تتحول إلى أي صورة شاءت ، إلا الغول فإنها تبدو في صورة المرأة فيما عدا رجليها ؛ إذ لابد أن تكون رجلي حمار وكثيرا ما تصوروا الجن في صورة الثيران و الكلاب و النعام و السنور [2] ، وكانوا يعتقدون أن أهم منازلهم هو صحراء الدهناء ، وقد حفلت مدونات العصر العباسي بالكثير من الأعاجيب و الأساطير في ذلك الشأن .[3]

ب – في الأدب الإسلامي :

ولما أشرق نور الإسلام أتحفهم بأحسن القصص ثم تكونت على هامش تفسير القرآن الكريم وتوضيح قصصه جملة حكايات بنيت على أساس تعاليم الدين الجديد و استمدت بعض عناصرها من قصص التوراة و أساطير اليهود ، ثم ظهرت " **قصص الأنبياء** " و قصة " **المعراج** " ثم نمت هذه القصص وتضخمت حتى أصبحت في العصر الأموي عملا رسميا يعهد به إلى رجال رسميين يتفاوضون عليه مرتبات مادية ونصب الحلفاء قصاصا يعظون الناس ويقصون عليهم سير الأنبياء و الملوك في المساجد ، وكان لهم مكانة سامية بين أبناء الأمة حتى كان الرجل يجمع بين القضاء و القصص أحيانا .[4]

(1) : المرجع السابق ، ص : 62 .

(2) : المرجع السابق ، ص : 63 .

(3) : المرجع السابق ، ص : 63 .

(4) : المرجع السابق ، ص : 63 .

ولعل أول من تمرس بهذا النوع من القصص هو "تميم الدارمي"منذ عهد عفان ؛إذ كان يتوسط المسجد ويتلو على الناس هذا النوع من الفصص الديني الذي كان يأخذ بألبابهم ويستأثر باهتمامهم،ويستقر في مجامع قلوبهم ...لما يضفيه الراوي على قصصه من خيال واستعانة بالصور الأسطورية .[1]

وقد ظل هذا النوع من القصص ينموا باطراد حتى انتقل من المدينة المنورة إلى الشام و العراق ، وكان الأمراء يستعينون بالقصاص في الحروب ، ليذكروا الناس و يحرضوهم ،ويضربوا لهم الأمثال ، ويصوروا القدوة في سير المجاهدين الأولين ..

وكان قصاصو المسلمين يتحدثون إلى الناس في مساجد الأنصار ، فيذكروا لهم قديم العرب و العجم و ما يتصل بالنبوات ، ويخوضون معهم في تفسير القرآن و الحديث و رواية السيرة و المغازي و الفتوح إلى حين يستطيع [2] الخيال أن يذهب بهم وكان الناس مشغوفين بما يلقى إليهم من حديث .

على أن خلفاء بني أمية منذ عهد معاوية أحسنوا استغلال هذه الظاهرة من الوجهة السياسية ... فكان القصاص يحدثونهم أو يكتبون لهم من الواقع و السير ما يروقهم فاصطنعوها وسيطروا عليها واستغلوها استغلالا شديدا و أصبح القصاص أداة سياسية ..

على أن المستنبط لحياة القصاص الذين كانوا يقصون في البصرة و الكوفة و مكة و المدينة وغيرها يتعرف في غير ما عناء إلى الصلات التي وصلت بين هؤلاء القصاص والأحزاب السياسية .

على أن الدين قد شارك السياسة في تأثيره في القصة وتوجيهها ، بالإضافة إلى روح الشعب الذي يتحدث إليه القاص ، ومن ثم كانت العناية بالأساطير و المعجزات وغرائب الأمور تفسيرا أو توضيحا أو إضافة ..[3]

و الروافد الثقافية التي أمدت القصص بمصادر القوة يمكن إجمالها على النحو التالي :

(1) : المرجع السابق ، ص : 63 – 64 .
(2) : المرجع السابق ، ص : 64.
(3) : السيوفي مجمد مصطفى ، تاريخ الأدب الأندلسي ، ص : 65.

1/ – رافد إسلامي عربي وهو القرآن الكريم و ما يتصل به من الأحاديث النبوية الشريفة والروايات وما كانت تتحدث به العرب في الأمصار عن أخبارها و أساطيرها و أيامها ... وما كانت تروي من أشعار و أمثال ... وما يحدث به الرواة من السير العطرة للرسول عليه الصلاة و السلام ، و الخلفاء وغزواتهم وفتوحاتهم ..

2/ – رافد شعوري نفسي لغير العرب ، من أهل مصر و العراق و الجزيرة و الشام من الأقباط و السريان ومن إليهم من هؤلاء الذين كانوا متفرقين أو مقيمين في هذه الأقطار ، و الذين لهم سيادة سلطانية و ليس لهم كيان سياسي ظاهر .

3/ – رافد نصراني أو يهودي وهو ما كان القصاصون يأخذونه عن أهل الكتاب من أخبار الأنبياء و الأحبار و الرهبان وما يتصل بذلك ، ولا ينبغي نسيان هذا التأثير من أولئك اليهود و النصارى الذين أسلموا و أخذوا يصنعون الأحاديث ويدرسونها مخلصين أو غير مخلصين .[1]

تلكم هي المصادر التي أمدت القصاص بألوان من القول ، وفنون من الحديث ، قد لا يرضى عنها العلامة المحقق لاضطرابها ، وطغيان سلطان الخيال عليها ، ولكن على الرغم من ذلك يوجد فيها جمال أدبي أخاذ ، وفن رائع يرضى عنه ويعجب به من بإمكانه أن يقدر التئام هذه الأجزاء المتباينة التي تتصل بشعوب مختلفة و أجيال متباينة الميول بين الناس ، ويرتاح إليها – بنوع خاص – الذين يحاولون أن يتبينوا نفسيات الشعوب و الأجيال التي كانت مصدر الهام لهؤلاء القصاص .[2]

(1) : هلال غنيمي ، النقد الأدبي الحديث (د.ط). نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ،تاريخ النشر، يناير 2001،ص: 518 .

(2) : المرجع نفسه ، ص : 518 .

وبعد هذه الفترة خطا القصص خطوات واضحة ، و اتجه اتجاهات مختلفة ، ولكن تدرج آخر الأمر بين طرفين متقابلين : أولهما محافظ يستلهم التراث و يتأثر ببعض قوالبه ، و آخرهما تجديدي يحاكي قص الغرب وينسج على منواله ، و بين هذين الطرفين وجدت ألوان أخرى تختلف قربا وبعدا من هذين الطرفين ، باختلاف طبيعة أصحابها وثقافتهم و أهدافهم .

وقد تنوعت الأعمال القصصية التي تسير في الاتجاه المحافظ ، و تستلهم التراث و ما فيه من ألوان قصصية مثل " **ألف ليلة وليلة** " **و** " **المقامات** " في العصر العباسي ، وبواكير الفن القصصي في هذا العصر نفسه تعود إلى رسالة " الغفران " التي ألفها أبو العلاء المعري (ت . عام 449 هـ الموافق لـ 1059 م) ، وهي رحلة تخيلها " أبو العلاء " في العالم الآخر؛ عالم الحساب و العقاب ، كي يحل مسألة أدبية ولغوية ، ومشاكل أقضت عليه مضجعه في مجتمعه ، فراح يوردها مورد الهازل تارة ، و الناقد المجد مرة أخرى و الرسالة تتضمن عددا من العناصر القيمة للقصة .[1]

تردف هذه الرسالة مقامات "لأبي الفضل بديع الزمان الهمذاني" ، فالمقامات بمنظور كثير من الأدباء "كتوفيق الحكيم" ، أعمال قصصية قصد بها سرد حكاية وتصوير أشخاص ، ولكن الإغراق في الوشي اللفظي ، و الاحتفال بالوضع اللغوي صرف همّ الكتاب عن التعمق في التحليل و الإضافة في السرد و الإجادة في البناء .[2]

كما يقر" توفيق الحكيم" أنه ليس الروس هم أساتذة القصة ، و لا الأنجليز و لا الفرنسيون ، بل نحن بما لدينا من قرآن عرف القصص ، وما خلقنا في مجتمعاتنا من أشباه عنترة و ألف ليلة ، وما وضعنا في لغتنا من مقامات تعد أساسا لفن القص " .[3]

(1) : هلال غنيمي ، الأدب المقارن ، ص : 184 .

(2) : الموافي ناصر عبد الرزاق ، القصة العربية ، عصر الإبداع " دراسة للسرد القصصي في القرن 4هـ ، (د .ط) ، كلية الآداب ، القاهرة ، ص : 71 .

(3) : المرجع نفسه ، ص : 71 .

وقد صنف الباحثون مقامات الهمذاني ثلاث أصناف :

- **مقامات قصصية:** وهي التي تتوافق مع شروط القصة
- **مقامات شبه قصصية:** وهي التي تتضمن بعض العناصر القصصية
- **مقامات غير قصصية:** وهي مقامات لا تتوفر فيها أي عناصر قصصية .

ويضاف إلى رسالة"أبي العلاء المعري"ومقامات "بديع الزمان الهمذاني" ، مقامات " الحريري " التي ألفها على غرار مقامات بديع الزمان ، وتفوق عليه ، وخطا بهذا الجنس الأدبي خطوات لم يبلغ فيها شأوه أحد من الذين قلدوه قبل عصرنا الحديث فيما يخص النضج القصصي .[1]

ومن أشهر الأعمال القصصية كذلك في العصر العباسي **كليلة ودمنة** من ترجمة ابن المقفع .

أما في العصر الحديث فقد تنوعت مادة هذه الأعمال ؛ روحها و أهدافها ؛ فكانت أحيانا خيالية المادة شاعرية الروح ، تهدف إلى التسلية مثل " **ورقة الآس**" لأحمد شوقي التي تأثر في مادتها " **بألف ليلة** " وفي أسلوبها بالمقامات ، كما كانت أحيانا أخرى اجتماعية المادة تأملية الروح ، تهدف إلى الإصلاح مثل:

" ليالي سطيح " لحافظ إبراهيم التي تأثر في مادتها بالمقالات و الأحاديث الاجتماعية و السياسية ، ولكنه استلهم في أسلوبها المقامات وبعض شخصيات التراث حيث استخدم شخصية " **سطيع** " وهو كاهن بني ذئب في الجاهلية ، ليجري على لسانه ما يريد أن يقدم من آراء و تأملات .

على أن أهم هذه الأعمال القصصية المحافظة التي كانت تستلهم التراث ، هو اللون الاجتماعي الغاية ألمقامي الأسلوب ، الروائي البناء ، الذي يمثله " **حديث عيسى بن هشام** " لمحمد المويلحي (

(1) : المرجع السابق ، ص : 72 .

1858 – 1930) و الذي يمكن أن يسمى **الرواية الاجتماعية المقامية** باعتبار غايته وطابع أسلوبه ، فحديث عيسى بن هشام يمكن اعتباره رواية أخذت طريقا تهذيبيا ، يهدف إلى تبصير المواطنين بطائفة من عيوبهم ليعدلوا من سلوكهم ، وعلى هذا يكون هذا العمل رواية تهذيبية ذات طابع اجتماعي ، ويكون بهذا تطويرا لمحاولة " **علي مبارك** " السابقة في " علم الدين " ويمكن من جهة أخرى اعتباره رواية أخذت طريقا اجتماعيا يرمي إلى تصوير ما في المجتمع من مفارقات ، ورسم مابين جيل المؤلف و الجيل السابق من اختلافات وتوضيح ما بين المجتمع الشرقي و المجتمع الغربي من تباين ، وعلى هذا يكون هذا العمل أول رواية اجتماعية مصرية في الأدب الحديث ، برغم إفادتها من محاولة " علي مبارك " و تأثرها بالمقامات .

أما **مصطفى لطفي المنفلوطي** فقد اتجه في أعماله القصصية وجهة خاصة لا يستوحي فيها المقامات و لا غيرها من قوالب التراث ، و لا يحاكي القصص الغربي كما سيفعل آخرون من بعد ، و إنما يقدم نوعا من القصص فيه بعض العناصر القصصية ، ولكنها غير مكتملة من الناحية الفنية الخالصة ، لأنه إلى جانبها عناصر أخرى أقرب إلى فن المقال أو فن الخطابة ، ومن هذا المزيج القصصي الخطابي اتخذ المنفلوطي طريقته القصصية هادفا إلى غاية تهذيبية ، وهي تعميق الإحساس بالمثل العليا و القيم الإنسانية الكبرى ، كالوفاء و الشرف و الشجاعة و الفضيلة و حب الخير و الحق و الجمال ، مستخدما للتعبير عن طريقته و الوصول إلى غايته ، أسلوبا بيانيا أخاذا ، يقوم على تجويد التعبير ، ورعاية موسيقى الكلام ، و الاهتمام برسم الصور ، وإثارة العاطفة ، كل ذلك من غير التزام للسجع و لا لغيره من المحسنات ، ومن غير محاكاة للمقامات ولا لغيرها من مخلفات التراث ؛ بل مع إبداع و ابتكار و أصالة وشخصيته تتضح في طريقة القصص وغايته جميعا .

و أعمال المنفلوطي القصصية من حيث مصدرها نوعان ، نوع أساس فكرته و أهم أحداثه من أدب أجنبي [1] ، ونوع أساس فكرته و أحداثه مخترع .

أما النوع الأول فيتمثل في قصصه ورواياته التي أعاد كتابتها بطريقته و أسلوبه .. و تلك الروايات هي : **الفضيلة** التي أساسها " **بول وفرجيني** " ، " لبيرناردين دي سان بيير " و **مجدولين** التي أصلها : **تحت ضلال الزيزفون لـ** " **ألفونس كار** " و" **الشاعر** " **التي مردها إلى – سيرانودي برجرال – لـ** " **أدمون روستان** " و" **في سبيل التاج** " التي أصلها مسرحية شعرية لـ " **فرانسوا كوبيه** " .

و أما النوع الثاني المخترع ، فتمثله قصص غير ناضجة قد ضمنها " المنفلوطي " كتابيه " **النضرات** " و " **العبرات** " وعالج فيها مواقف اجتماعية و إنسانية عديدة ، و أهتم بشخصيات بائسة كاللقطاء و ضحايا الخمر و المعدمين و المظلومين ، و اعتمد فيها على طريقته البيانية المشرقة ، وقصد من ورائها إلى غايته الأدبية العامة و هي التهذيب وتعميق الإحساس بالفضيلة و الخير ، ومحاربة بعض المفاسد و العيوب الاجتماعية .

وبعد المنفلوطي جاء " **جورجي زيدان** " لينحى بفن القصص منحى آخر جديد ، وهو الاتجاه الروائي التاريخي ، " وجورجي زيدان " هو أحد الشوام المسيحيين المهاجرين إلى مصر ، والمستوطنين لها ، وقد كان إلى جانب اشتغاله بالصحافة يميل إلى كتابة التاريخ العربي و الحضارة الإسلامية ، مجاريا في ذلك الميل الثقافي العام الذي غلب على تلك الفترة ، وجذبها إلى الاعتزاز بالماضي و العمل عل كشف الغطاء عنه .

وهكذا قدم سلسلة من الروايات التاريخية التي تضم في ثنايا البناء القصصي أطراف التاريخ الإسلامي في المشرق و المغرب ؟ فقدم " **فتاة عسان** " لعرض الأحداث التاريخية التي صاحبت الغزوات الإسلامية الأولى و التي شاهدت ظهور الإسلام و انتشاره في بلاد العرب و الشام و العراق ، وقدم "**أرمنوسة**

(1) : عز الدين بوبيش ، محاضرات في الأدب الحديث ، السنة الثالثة جامعي ، مخطوط سنة 2003،جامعة أم البواقي ص: 1-5.

المصرية" لعرض الأحداث التاريخية التي صاحبت فتح العرب لمصر . وكتب " **عذراء قريش** " **و** " **غادة كربلاء** " **و** " **الحجاج بن يوسف** " للتأريخ للوقائع التي حدثت خلال الصراع السياسي منذ أواخر عهد عثمان إلى سيطرة العهد الأموي . وكتب **أبا مسلم الخراساني و** " **العباسة** " و " **الأمين و المأمون** " ليفصّل القول في أحداث قيام الدولة العباسية ، ثم في الصراع بين الرشيد و البرامكة ، و أخيرا في الصراع بين العرب و الفرس .. و أخرج "**فتاة القيروان** " لتسجيل أحداث الفتح الإسلامي للمغرب ، ووضع " **فتح الأندلس** " **و** " **عبد الرحمان الناصر** " ليقدم أهم أحداث الإسلام و المسلمين في الفردوس المفقود .

وفي أواخر فترة النضال من الاحتلال البريطاني إلى نهاية ثورة 1919 (1882 – 1922) وصلت القصص و الرواية بشكل خاص إلى نهاية الطرف الثاني الذي يستدبر التراث و يحاكي قصص الغرب . ويمكن اعتبار ذلك رد فعل لما سبقه من محافظة اختلفت درجاتها ، وبالغ بعض المتشبثين بها حتى كتبوا روايات في لغة المقامات ، وقد تمثل هذا الاتجاه المتجه تماما إلى القصص الغربي في رواية " **زينب** " للدكتور"محمد حسين هيكل "(1888 – 1956) الذي بدأ كتابتها و هو في باريس .[1]

وتعد " زينب " أول رواية فنية في تاريخ الأدب المصري الحديث ، وذلك لواقعيتها وسيرها على القواعد الفنية للرواية إلى حد كبير ، ورواية زينب تصور واقع الريف المصري في تقاليده القاسية ، وطبيعته السمحة ؛ فهي تحكي قصة شاب مثقف من أبناء الطبقة المتوسطة أسمه " حامد " يحب ابنة عم له اسمها " عزيزة " و تحول التقاليد القاسية في الريف دون التعبير عن هذا الحب ، بل تقسو التقاليد أكثر فتفرض على عزيزة زوجا أخر يختاره أهلها ، ويحرم" حامد ا " منها نهائيا. ولكنه يجد بعض العزاء و التنفيس عند فتاة ريفية من الطبقة الكادحة ، اسمها "زينب"، تسمح ظروفها كعاملة أن تلتقي بحامد .. ولكنها لا تفهم الفتى المثقف ابن الطبقة الوسطى حق الفهم ؛ فتفضل عليه " إبراهيم " رئيس العمال التي

(1) : المرجع السابق ، ص : 6 .

تعمل تحت إشرافه ..ويتم حرمان " حامد " من زينب حين يزوجها أهلها ، فيغادر القرية نهائيا . أما زينب فكونها لم تستطع الجهر بحب إبراهيم ، بسبب قسوة التقاليد ، فإن أهلها يزوجونها لرجل آخر لا تحبه وان كانت تخلص له وتؤدي حقوقه الزوجية بصبر و أمانة ، ويبتعد إبراهيم حيث يجند للخدمة في الجيش ويسافر إلى السودان تاركا منديله لزينب تذكار حب ، وتنتهي الرواية بمرض " زينب " من أثر الجوى وتصاب بالسل ثم تموت .[1]

وليس من شك في أن " محمد حسين هيكل " قد اعتمد في روايته على محاكاة ما قرأ من أدب فرنسي ، وخاصة أدب الرومانسيين ، وليس من شك أيضا في أنه استوحى خياله وعاطفته المشبوبة بسبب بعده عن مصر وحنينه إلى الوطن وريفه . واعتمد الكاتب على محاكاة ما قرأ في الأدب الفرنسي ، يفسر ذلك ما يتخلل لوحة روايته أحيانا من خطوط و ألوان غريبة عن البيئة المصرية الريفية ، مثل تصوير " زينب " العاملة " بواسة حضانة " على حد تعبير الأستاذ " يحيى حقي " في كتابه " فجر القصة " كأنها بطلة من أبطال قصة فرنسية ، ومثل تصوير حامد متقدما إلى شيخ صوفي ليحدثه عن خطاياه ، كأنه فتى مسيحي يتقدم للاعتراف أمام قسيس ، ومثل رسم هذه الصورة الدرامية لنهاية " زينب " حيث تلفظ أنفاسها و الدم ينزف من فمها ومسحته بمنديل إبراهيم وكأنها **(غادة الكاميليا)** .

وبالرغم من وجود هذين العيبين ،**عيب الخطوط و الألوان الأجنبية** وعيب الإفراط في وصف الريف وتصوير محاسنه بطريقة لا تخدم أحداث الرواية وبيئة أبطالها ، فإن الدكتور " محمد حسين هيكل " يقف في طليعة من كتبوا الرواية الفنية ، ويعد من روادها الأوائل في الأدب الحديث .[2]

(1) : بوبيش عز الدين ، محاضرات في الأدب الحديث (مخطوط) ، ص : 6 .

(2) : المرجع نفسه ، ص : 6 – 7 .

وإذا نحن تركنا " محمد حسين هيكل " و " ميلاد الرواية الفنية ، و انتقلنا إلى صاحبه في الكتابة القصصية " **محمد تيمور** " وجدناه هو الآخر يمثل الرّيادة الأولى الناضجة و الأدنى إلى الكمال في ميلاد فن جديد هو (فن القصة القصيرة) .

فهي خطوة تالية لخطوة المنفلوطي مثله في قصصه التي احتواها كتاب العبرات ، و أفسح منها و أقرب إلى المعالم الصحيحة التي أرساها كتّاب هذا النوع الأدبي في الآداب التي سبقت إليه ، وهي الآداب الغربية ، وذلك من خلال قصصه التي ضمتها مجموعة " **ما تراه العيون** " .

وقد كان" محمد تيمور " على صلة قوية بالفن القصصي الغربي ، وكان متأثرا إلى درجة كبيرة بـ **موباسان** القصصي الفرنسي الشهير ، كما كان " مجمد تيمور " كذلك على صلة بالمحاولات التي سبقت محاولته في الأدب المصري الحديث ، كمحاولة المنفلوطي .

ولذا نجد في قصصه القصيرة الأولى آثار ذلك كله ففيها كثير من المعالم الفنية للقصة القصيرة كما عرفت عند كتاب الغرب ، وعند " موباسان " بصفة خاصة. ويبدو ذلك في واقعيته الصادقة ، واتجاهه إلى الأحداث العادية و المشكلات اليومية ، واهتمامه بالأناس البسطاء ، ثم نجد في قصص " محمد تيمور " الأولى أيضا بعض آثار المنفلوطي التي تبدو أحيانا في إدارة الكاتب الحديث حول نفسه ، و كأنه بطل من أبطال قصصه ، كما تبدو كثيرا في خلق الأجواء العاطفية ، وإثارة المشاعر نحو الفقراء و المساكين وضحايا المجتمع على وجه العموم ، ثم تبدو أحيانا أخرى في التقديم للقصة بمقدمة تصور الحالة النفسية للكاتب ، و الغالب على هذه الحالة أن تكون حالة ضيق أو حزن أو قلق غير معروفة الأسباب من جانب الكاتب ، وإن كانت القصة بعد ذلك تفسر هذه الأسباب أو توحي بها على أقل تقدير .

و أولى قصص "**محمد تيمور** " وهي قصة " **في القطار** " التي نشرها سنة **1917 م** ، و التي تمثل ميلاد القصة القصيرة الفنية في الأدب المصري الحديث ، أما بالنسبة للأدب العربي عامة فقد رأى

الدكتور " **محمد يوسف نجم** " أن قصة " **العاقر**" لميخائيل نعيمة أسبق من محاولات " مجمد تيمور" الأولى ، ويحدد سنة 1915 تاريخا لنشر قصة " نعيمة " ، تؤكد هذه الحقائق سيطرة روح الفترة

على هذا النوع الأدبي منذ ميلاده ، تلك الروح التي رأيناها توجه كل الأنواع الأدبية إلى نواحي[1] النضال من أجل حياة مصرية أفضل ، وقد كانت القصة القصيرة سببا لهذا الميدان النضالي و خاصة في الميدان الاجتماعي ، لارتباطها بالواقع بحكم طبيعتها الفنية .

ومعظم القصص الأخرى التي تضمها مجموعة " **ما تراه العيون** " تتفق مع هذه القصة في الخطوط الفنية العامة ، وإن خالفتها في بعض التفاصيل ، فهي قد سيطرت عليها روح النضال من أجل مجتمع مصري أفضل ومن هنا نراها تعالج موضوعات اجتماعية مستنبطة من الحياة اليومية ، وتصور شخوصا من الناس العاديين ، وخاصة من المظلومين طبقيا و المنكوبين اجتماعيا ، كما نرى هذه القصص في جملتها تهتم برسم الشخصيات ، وتقديم المضمون من خلال حوار الأبطال و تصرفاتهم ، و تؤول إليه الأحداث الدائرة بينهم .[2]

كان ذلك مسار القصة العربية ، ونشأتها ، استنادا تارة إلى الموروث العربي القديم الأصيل ، و اعتمادا على المنتوج القصصي الغربي تارة أخرى ، إلى أن استطاعت أن تشد عضدها و تقوم بذاتها ، و تكون أسسها و خصائصها الخاصة بها ، و التي تفرقها إن عن نظيرتها الغربية المستقبلة ، أو العربية الموروثة ، فكونت بذلك كيانها الفني الخاص ، الناضج ، فانبجست عنها فروع و أنواع قصصية شتى في مختلف جوانب الحياة و موضوعاتها .

(1) : المرجع السابق ،ص :8-9 .
(2) :المرجع السابق ،ص :من 8 إلى 10 .

2 – مفهوم القصة العربية :

2-1 – لغة : مأخوذة من فعل :

قصّ ، يقص ، قصصا وقصّا عليه الخبر أي : حدّثه به على وجهه ، وقصّ أثره ؟ تتبّعه شيئا بعد شيء ومنه قوله تعالى : ﴿ وقالت لأخته قصّيه ...﴾ ، أي أتّبعي أثره .[1]

و القصّ : فعل القاصّ ، إذ قصّ القصص ، و القصّة معروفة ، ويقال : في رأسه قصّة ، يعني الجملة من الكلام ، وقوله تعالى : ﴿ نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن و إن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [2] أي نبين لك أحسن البيان .[3]

ويقصد بالقصّ ذلك المعنى المتصل بالسرد ، و القصة : الخبر ، وهو القصص ،والقصص : الخبر المقصوص ، و القصص ، جمع القصّة التي تكتب .

وتقصّص كلامه : حفظه ، وقال " أبو زيد " : تقصّصت الخبر أي حفظته .

و القصّة : الخصلة من الشعر ، وقصّة المرأة : ناصيتها ، وهي جمع قصص و قصاص .[4]

ويقصد بالقصّ ذلك المعنى المتصل بالسرد و الإخبار ، وهما ركنان يقومان إلى إتباع الخبر بعضه بعضا .وسوق الكلام شيئا فشيئا ، إذ يقول الأزهري : " القصّ إتباع الأثر ويقال خرج فلان قصصا في أثر فلان وقصّا وذلك إذ اقتص أثره ، وقيل القاص يقصّ القصص لإتباعه خبرا بعد خبر ، وسوقه الكلام سوقا و القصّ كتركيب فني صيغ على نحو خاص ، تتحرك فيه الأشخاص ، وتنمو الحوادث ، وتبلغ ذروتها ، في إطار حبكة مقصودة ، وتخطيط معين ، يتحكم فيه قلم القاص موجود في تراثنا العربي القديم ،ومن نماذجه حكايات ألف ليلة وليلة " [5].

---

(1) : ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق عبد الله العلا يلي ، دار لسان العرب للنشر ، بيروت ، المجلد 9 ، ص : 102 .
(2) : سورة يوسف ، الآية [3].
(3) : ابن منظور ، لسان العرب ، ص : 102.
(4) : المصدر نفسه ، ص : 102 .
(5) : الشناوي علي الغريب ، فن القص في النثر الأندلسي ، (د . ط) ، كلية الآداب للنشر ، جامعة المنصورة، ص : 11.

2-2 – اصطلاحا :

اسم القصّة بالعربية على خلاف ما يسبق إلى الخاطر ، يفيد معنى غير التوهم و خلق الحوادث على سبيل المحاكاة أو الحكاية ومعناه مأخوذ من الفعل " **قص الأثر** " لأن الذي يقص الأثر يتتبع أخبار القوم ويعرف مذاهبهم في الأرض و مقاماتهم فيها ، فهي مادة بحث وتحقيق وليست مادة توهم وتلفيق ، وللقصة معنى آخر : وهو المعنى الفني الأدبي الذي يجعل لها تركيبا معينا تتحرك خلاله الشخصيات وتنمو الحوادث ، وتترابط العناصر القصصية على خطى مقصودة وتدبير محكم من خارج حياة القصة نفسها.. أي بقصد القاص وتدبيره ووعيه ..[1]

و القصّة مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب ، وهي تتناول حادثة واحدة أو حوادث عدة ، تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة ، تتباين أساليب عيشها و تصرفاتها في الحياة ، على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض ويكون نصيبها في القصة متفاوتا من حيث التأثر و التأثير .

تصور القصة فترة كاملة من حياة خاصة أو مجموعة من الحيوات ، لذا يضطر الكاتب إلى الخوض في تفاصيل تلك الحياة أو الحيوات ، ويحاول كاتب القصة عرض سلسلة من الأحداث الهامة ، وفقا للتدرج التاريخي أو النسق المنطقي .[2]

فالقصّة في صورتها العامة حكاية تتسلسل أحداثها في حلقات كحلقات فقرات الظهر، أو كدودة الأرض تتموج أجزاؤها في تتابع كما يقول **فورستر** ، وهذا التسلسل يتضمن تطور الأحداث ينتظمها الزمن ، ومع ذلك فليس الزمن وحده هو الذي يعتمد عليه تطور القصة ، ولا يكفي عنصر الزمن لإخراج قصة قيمة في مفهومها الحديث ، ذلك أن الزمن وحده لم يعد يصلح ليكون بطلا لقصة تتابع أحداثها كما هو الحال في قصة **تولستوي** الخالدة " **الحرب و السلام** " أو قصة " **أرنولد بينيت** " أحاديث الزوجات العجائز the old

(1) : أبو ذياب خليل إبراهيم ، دراسات في فن القصة ، (د . ط) ، دار الوفاء للطباعة و النشر ، الإسكندرية ، سنة 2001 ، ص : 16.

(2) : نجم محمد يوسف ، فن القصة ، الطبعة الأولى ، دار صادر، بيروت ، دار الشروق (عمان)، سنة 1996، ص : 9.

wives tsles بل تلعب إلى جانب الزمن عناصر أخرى تتفاوت أهميتها و تختلف باختلاف الكاتب و اتجاهه و طريقته ، ولكنها على كل حال لا تخلو من روح الأسطورة أو من ذلك الشيء الذي يخاطب ميولنا أو أحاسيسنا الفطرية التي استجابت للأساطير في أطوار الإنسانية الأولى ، لأنه يحمل في طياته عنصر الإغراء الذي يستهوي ويشوق و يشد القارئ إليه برباط خفي سحري .[1]

وقد عرف نقاد القصة هذا الفن تعريفات شتى ، لكن أقربها إلى جوهر القصة الحديثة ، هو قول **تشارلتن :**" أن القصة حكاية تروى نثرا عن وجه من وجوه النشاط و الحركة في حياة الإنسان ، فخير لها أن تقص قصة عادية عن الإنسان العادي الحقيقي ، كما تجري حياته في عالم الواقع المتكرر كل يوم ثم يقول : " و إذا فروعة القصة وبراعتها أن تروي حكاية الحوادث المألوفة الواقعية الجارية " .[2]

ومهمة القاص تنحصر في نقل القارئ إلى حياة القصة ، بحيث يتيح له الاندماج التام في حوادثها ، ويحمله على الاعتراف بصدق التفاعل الذي يحدث بين الشخصيات و الحوادث ، وهذا أمر يتيسر له ، إذا استطاع أن يصور الشخصيات في حياتها الطبيعية الخاصة .

و القصة حوادث يخترعها الخيال ، وهي بهذا لا تعرض لنا الواقع ، كما تعرضه كتب التاريخ و السير و إنما تبسط أمامنا صورة مموهة منه .[3]

ولا يفرض في الكاتب الذي يتجه اتجاها واقعيا في قصته أ، يعرض علينا من الحوادث ما سبق وقوعه فعلا ، أو ما ثبت صحته بالوثائق ، و المستندات ، و لا من الشخصيات ماله ذكر في سجل المواليد و

(1) : سلام مجمد زغلول ، دراسات القصة العربية الحديثة ، أصولها ، اتجاهاتها ، أعلامها ، (د . ط) ، نشأة المعارف بالإسكندرية ، جلال حزي وشركاؤه ، ص : 4 .

(2) : المرجع نفسه ، ص : 4 .

(3) : نجم محمد يوسف ، فن القصة ، ص : 10 .

الوفيات ، ولكن عليه أ، يقنعنا بإمكان حدوث مثل هذه الحوادث ،ووجود مثل هذه الشخصيات ، في الحياة التي نحياها و نعرفها .[1]

وفي ذلك يقول " **جيمس** " : " إن الحياة فضاء واسع مضيع ، يقف الروائي وسطه لينتخب ما يمكن أن يفسر به الحياة ويهدي به إلى السبيل . إن مادة الروائي ملزمة ولا شك وقيمة المستندات لا تنكره ، ولكن إرادة الكاتب وتصرفه في هذه المواد هما بلا شك الفن الروائي الحق ، يجب على الروائي أن يخضع مواده لفنه ، و ألا يكون لها عبدا مطيعا همه النقل الأمين " .[2]

وهذه الصورة المموهة من الواقع هي الأساس الذي يرتكز عليه فن القاص ، وتنصب عليه جهوده ، ولعله إن وفق في ذلك ، استطاع أن ينفخ الروح في بعض الشخصيات التي قد تخلد في الأذهان أكثر مما تخلد بعض شخصيات التاريخ .

و النثر هو الوسيلة التي يصطنعها الكاتب لهذه الغاية ، إذ أن الشعر بما يوحيه من العواطف المتأججة و الخيال الجامح ، و الموسيقى الخارجية ، وغير ذلك مما يرتكز عليه ، لا يصلح لأن يعبر تعبيرا صادقا دقيقا عن تسلسل الحوادث وتطور الشخصيات و نموها ، في تلك الحياة التي يجب أن تكون صورة مموهة من الواقع .

ولعلنا نجلّ القاص ونقدر جهده ، عندما نحس بأنه يساعدنا على إجلاء بعض النواحي المجهولة و الإنبعاثات الغامضة في حياتنا ، ولا يتاح للقاص أن يرسم لنا الصورة الواقعية ، إذا عمد إلى تسجيل كل ما تقع عليه عينه من وقائع الحياة ، أو كل ما يتذكره منها . ولكنه يتمكن من ذلك ، إذا أطلق خياله باحثا عن الأسباب و النتائج ، منقبا عن الأفعال وما يتوقع لها من ردود و أصداء .

(1) : المرجع السابق ، ص : 10.

(2) : المرجع السابق ، ص : 10 .

3 – أشكال القصة : تتوزع القصة العربية الفنية إلى فروع شتى ، أبرزها :

3-1 – القصة القصيرة أو الأقصوصة :

إن أهم الفنون الأدبية المرتبطة بالقصة القصيرة ارتباطا وثيقا هي : الحكاية ، المقامة ، الخبر ، الرواية القصيرة و الرواية الطويلة ، الملحمة و المسرحية ، ولعل سر التداخل الكبير لهذه الأنماط يعود إلى : " الاشتراك العام في البناء الحدثي ، و الشخوصي ، و الحبكة و الحوار و السرد و العقدة و الحل ، لحظة التنوير ، و الزمان و المكان " .[1]

و القصة القصيرة هي أحدث هذه الأنواع جميعا ، و أكثرها انتشارا ، ويعتبر " **موباسان** " في فرنسا **و** " **أنطون تشيكوف** " في روسيا على رأس الكتاب الذين أرسوا دعائمهم في الآداب الغربية .[2] وتسمى بالفرنسية conte ويعالج فيها الكاتب جانبا أو قطاعا من الحياة ، ويقتصر فيها على حادثة أو بعض الحوادث يتألف منها موضوع مستقل بشخصياته ومقاوماته ، على أن الموضوع مع قصره ينبغي أن يكون تاما ناضجا من وجهة التحليل و المعالجة ، وهنا تتجلى براعة الكاتب ، فالمجال أمامه ضيق محدود يتطلب التركيز .[3]

ومن ناحية أخرى يمكننا القول : " أن القصة القصيرة تعبير عن موقف أو لحظة معينة من الزمن في حياة الإنسان ، و يكون الهدف التعبير عن التجربة الإنسانية تقنعا بإمكان وقوعها ، وعادة تقوم القصة القصيرة على حدث واحد يتنامى عبر شخصيات محدودة ، أو شخصية واحدة حاسمة ، ويكون ذلك في زمان أو مكان محدودين جدا ، حتى يبلغ الصراع ذروته ، لتأتي لحظة التنوير " [4]

فالأقصوصة تتناول قطاعا أو شريحة أو موقف من الحياة ، دون الخوض في التفاصيل ، إذ يسعى

(1) : أبو ذياب خليل إبراهيم ، دراسات في فن القص ، ص : 16 -17.
(2) : سلام محمد زغلول ، دراسات في القصة العربية الحديثة ، ص : 56.
(3) : المرجع نفسه ، ص : 5.
(4) : الركيبي عبد الله خليفي ، القصة الجزائرية القصيرة ، ط3 ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا تونس ، سنة 1977 ، ص: 152

كاتب الأقصوصة إلى إبراز صورة متألقة واضحة المعالم بينة القسمات لقطاع من الحياة ، بحيث تؤدي إلى إبراز فكرة معينة و لا تعتمد الحياة الداخلية التي ينتظمها إطارها ، على الأحداث و الشخصيات ، وتفاعلها مع البعض الآخر ، بل على ما ينتظم بين الشخصيات من علاقات ، وعلى مدى تأثرها بالبيئة التي تكتنفها ، وقد أكد " **برناردو ماثيور** " في كتابه " **فلسفة الأقصوصة** " أن وحدة التأثير التي دعاها من قبله بالشمول هي الفارق الأساسي بين القصة و الأقصوصة .[1]

وينظر النقد الحديث إلى القصة القصيرة باعتبارها وحدة عضوية لا يجوز دراسة أي جزء منها بمعزل عن بقية الأجزاء ، وكل عنصر من عناصرها يجب أن يسهم بقسطه كاملا في سبيل الوصول إلى التأثير النهائي .[2]

إن الحادث فيها لا يجب أن يقوم بذاته كما يبدو ذلك متكرر الوقوع في قصص جمى ، أو فيما تنشره بعض المجلات التجارية من القصص التافهة ، بل ينبغي أن ينتج من الدوافع المتضاربة للشخصيات وكذلك يجب أن يمثل الجو مجرد تلوين عاطفي للمنظر ، كما كانت الحال في القصص ذات الطابع المحلّي. [3]

ويقسم **بلوست** القصة القصيرة من حيث المضمون إلى نوعين ، النوع الذي سماه بالحكايات التعليلية ، و النوع الذي دعاه بحكايات الجو أو البيئة أو الأثر almosphere effect ويأتي التأثير في النوع الأول مبدئيا نتيجة إثارة الاهتمام عن طريق التتبع الدقيق لحوادث معقدة تتضح منطقيتها في النهاية للقارئ و أما النوع الثاني فهو أقل اعتمادا على الحدث منه على تكديس التفاصيل ذات العلاقة بالبيئة و الجو .[4]

(1) : نجم محمد يوسف ، فن القصة ، ص : 9 – 10 .
(2) : سلام محمد زغلول ، دراسات في القصة العربية الحديثة ، ص : 57 .
(3) : المرجع نفسه ،الصفحة نفسها .
(4) : المرجع نفسه ، ص : 56 .

إلا أن القصة القصيرة قد تتنوع تنوعا موضوعيا بحسب تصويرها لجوانب الحياة الواقعية ، فتقسم على هذا الأساس إلى قصة تاريخية وقصة بوليسية ، وقصة نفسية ، وقصة المغامرات ...إلخ [1]

وتقوم القصة القصيرة على ثلاث عناصر أساسية هي : **الموقف و الحدث ثم التنوير** ، فكل قصة قصيرة غالبا ما تصور حدثا له تأثير كلي ، وبداية ووسط ونهاية ، وينبغي أن يتطور الحدث في القصة تطورا ذا معنى مصورا للشخصية ، ودون المعنى لا يمكن أن يتحقق للحدث الاكتمال .[2]

3-2 – المقامة :

تعتبر المقامة أقرب الأنماط الأدبية التي تعتمد على القصّ إلى الأقصوصة ، وذلك راجع إلى " اعتمادها على حدث محدد متنام ، وشخصية واحدة حاسمة / البطل أو الراوي ، وحبكة دقيقة ، وزمان ومكان محددين " إلا أن المقامة تخلو من التركيز و التكثيف ، لأنها تعتمد على نمط خاص في البناء يقوم على البديع و الشعر ، ويكون تبعا لطبيعة البيئة ، وبغض النظر عن نمطية الحدث و الشخصية و الحبكة .[3]

ولقد اتفق أغلب الأدباء والنقاد على تعاريف تكاد تكون متقاربة فيما بينها و متشابهة إلى حد بعيد ، في محاولة لتحديد مفهوم فني دقيق لفن المقامات ، وقد أدلى كل واحد منهم بدلوه في هذه القضية محاولا أن يبين لنا وجهة نظره و رأيه في هذا الموضوع .

" **فمارون عبود** " يرى أن المقامة قصة قصيرة يرويها بطل واحد دائما ، كما أن بطلها يكون واحدا دائما ، وهذا البطل شحاذ مخادع ، كثير الحيل و المقالب ، بارع في نصب المكائد .[4]

---

(1) : المرجع السابق ، ص : 58 .
(2) : المرجع السابق ، ص : 57 – 58 .
(3) : الركيبي عبد الله خليفي ، القصة الجزائرية القصيرة ، ص 152 .
(4) : مارون عبود ، أدب العرب ، (د . ط) ، دار الثقافة ، بيروت – لبنان ، سنة 1960 ، ص 109 .

أما " **عمر عروة** " فتعريفه لا يكاد يختلف كثيرا عن تعريف " **مارون عبود** " فقد عرف المقامة قائلا: " هي قصص قصيرة يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية أو خاطرة وجدانية ، أو لمحة من لمحات الدعابة و المجون ".[1]

وعرفها " **بروكلمان** " بقوله : " عمد " الهمذاني " إلى أقوال المكدين فصاغ بها صورا قصارا من حياة السيارين حافلة بالحركة التمثيلية التي تدور المحاورة فيها بين شخصين سمى أحدهما **عيسى بن هشام** و الآخر **أبا الفتح الاسكندري** وجعلهما يتهاديان الذرر ويتنافسان السحر في معان تضحك **الحزين و تحرك الرصين** " [2]

وحددها " ناصيف اليازجي " بقوله " إنني قد تطفلت على مقامات أهل الأدب من أئمة العرب ، بتلفيق أحاديث تقتصر من شبه مقاماتهم على اللقب ، ونسبت وقائعها إلى **معيون بن خزام** وروايتها إلى سهل بن عباد ، وكلاهما من أدب مجهول النسبة و البلاد . وقد تحريت أن أجمع فيها ما استطعت من الفوائد و القواعد ، و الغرائب و الشوارد و الأمثال و الحكم ، و القصص التي يجري بها القلم ، وتسعى لها القدم ، إلى غير ذلك من نوادر التراكيب و محاسن الأساليب ، و الأسماء التي يعثر عليها إلا بعد جهد التنفير و التنقيب ."[3]

ويستنتج من كلام اليازجي ، أن المقامات لا تعدو كونها أحاديث ملفقة ، غرضها إظهار المقدرة البيانية اللغوية ، وحظها من الحركة التمثيلية ضئيل ،وهي تبعث إلى الأسى أكثر مما تثير الضحك .[4]

و المقامات مجموعة أحاديث تخبرنا عن شخص اسمه عند الهمذاني **أبو الفتح الاسكندري** وتتبع ما يقوم به من أعمال و ما يتفوه به من أقوال . وهذا البطل لم يوجد في الحقيقة ، وقد حاول صاحب

(1) : عروة عمر ، النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه ، (د . ط) دار القصبة للنشر، الجزائر ،(د . س) ،ص : 109.
(2) : بوملحم علي ، مقامات بديع الزمان الهمذاني ، قد م له وعلق عليه وشرحه ، الطبعة الأخيرة ،دار مكتبة الهلال للنشر، سنة 1421 هـ ، 2000م ، ص : 7.
(3) : المرجع نفسه ، ص : 8.
(4) : المرجع نفسه ، ص : 8.

المقامات أن يوهمنا بأنه شخص حقيقي فزعم انه قرشي النسب ، أسكندري المنبت ، و أن له زوجة وولدا وأنه كان غنيا فانقلب عليه الدهر وغدا فقيرا محتاجا إلى عطاء الناس ، ولذلك تراه يجول الآفاق منتقلا من بلد إلى آخر متنكرا في أزياء مختلفة متوسلا للحصول على المال بالكدية و الحيلة و الدهاء ودراية اللسان .[1]

3-3 – القصة : NOVEL و بالفرنسية NOUVELLE تتوسط بين الأقصوصة و الرواية ، وفيها يعالج الكاتب جوانب أرحب مما يعالجه في القصة القصيرة ، فلا بأس هنا من أن يطول الزمن ، وتمتد الحوادث ويتوالى تطورها في شيء من التشابك .[2]

3-4 – الحكاية :

وهي تختلف عن القصة القصيرة في تعدد الأحداث و تنوع الأشخاص ، وتباين الأزمة و الأمكنة و اتساعها اتساعا يخرجها عن إطار الأقصوصة ، وإن اتفقت معها في تقنياتها الفنية المتعددة ، كا**لحبكة و السرد ، و الحوار و العقدة والحل** ، ودون أن تكون الخرافة أو الأسطورة عاملا رئيسيا في التفرقة بينهما و أهم ما يميز الحكاية روح الشعب ، حيث تشيع فيها آماله وطموحاته و ثقافته .

و الحكاية عبارة عن واقعة قد تكون خيالية وقد تكون واقعية ، و الفرق بينها و بين القصة الفنية أنها لا تعتمد على قواعد فنية دقيقة ، وتنطبق هذه الحكاية في الأدب العربي على حكايات كليلة ودمنة التي وردت على ألسنة الطير و الحيوانات ، فهي مجردة من الشخصيات و المكان و الزمان و العقدة و الحل ، و التي تعتمد عليها القصة الفنية .[3]

(1) : المرجع السابق ، ص : 8 .
(2) : سلام محمد زغلول ، دراسات في القصة العربية الحديثة ، ص : 5.
(3) : الركيبي عبد الله خليفي ، القصة الجزائرية القصيرة ، ص: 152.

3-5 – الخبر :

" ضرب من الفن القصصي ، ولكنه ضعيف الحبكة لا يعنى بتسلسل الأحداث و تدرجها من بداية إلى عقدة إلى حل و لا يراعي وحدة الموضوع ".[1]

" ويقوم هذا الضرب من الأدب على القص و السرد للأحداث المتعددة ، دون عناية بتصوير الأبعاد الفنية و الاجتماعية ، وغيرها من الشخصيات الفاعلة أو المحركة لها " ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الغاية تتمحور أساسا حول تطور الأحداث ، دون اهتمام فني بالزمان و المكان ، فهو بهذا يتخذ صبغة الحدث التاريخي على ما نجده في خبر " **داحس و الغبراء**" و " **البسوس** " وغزوات **الرسول صلى الله عليه و سلم** . [2]

3-6 – الرواية :

إن مصطلح " رواية " كما تشير القواميس ، ظهر في العصور الوسطى ليعين أولا قصصا نثرية مثل (رواية رونام) التي كتبت في لغة عامية ولم تكتب باللغة المخصصة للنصوص المقدسة ، اللاتينية ، فالفرنسية ، مثلا : هي اللغة المشتركة التي تناسب نوعا يعتبر متدينا ، يعالج موضوعات دنيوية ، وهي إلى جانب ذلك قريبة من فن السخرية .[3]

و الرواية بالإضافة إلى ذلك ، نوع مختلط ، تمزج بين القصة لراو و حوار الشخصيات الذين يتحدثون لغة تطابق وضعهم الاجتماعي و كذلك أمزجتهم .[4]

---

(1) : بو ملحم علي ، مقامات بديع الزمان الهمذاني ، ص : 8 .
(2) : أبو دياب خليل إبراهيم ، ودراسات فن القصص ، ص : 17.
(3) : فاليت برنار ترجمة بورايو عبد الحميد ، الرواية ، مدخل إلى المناهج و التقنيات المعاصرة للتحليل الأدبي،(د.ط) دار الحكمة،الجزائر ، السداسي الأول ، سنة 2002 ، ص 19 .
(4) : المرجع نفسه ، ص : 24 .

وهناك ملمح آخر لصيق جدا بمفهوم الرواية ، وبمفهوم الحكاية ، وفيما بعد بمفهوم القصة ، إنه حضور القصة ذات الحوادث الحقيقية أو الخيالية ، هذه الأخيرة التي أثرت في ظهور الرواية المجازية أو الخيالية. [1]

و الرواية بالفرنسية **ROMON** يعالج فيها المؤلف موضوعا كاملا أو أكثر زاخرا بحياة تامة واحدة أ، أكثر ، فلا يفرغ القارئ منها إلا وقد ألم بحياة البطل أو الأبطال في مراحلهم المختلفة ، و ميدان الرواية فسيح أمام القاص يستطيع فيه أن يكشف الستار عن حياة أبطاله ويجلي الحوادث بما تستغرق من الوقت .[2] وغالبا ما يميز بين نوعين من الرواية أولهما :

– **الروايــة القصـيرة :** تتوسط بين منزلة القصة و الرواية الطويلة وذلك من حيث " محدودية الأحداث و الشخوص ، و الأزمنة و الأمكنة بصورة أكبر من نظائرها في الأقصوصة ، وأقل مما في الرواية الطويلة ، ولعلها بعد ذلك الاختصار و التركيز تدنو كثيرا من الحكاية " [3]

– **الرواية الطويلة :** تقوم أساسا على تعدد الفصول و الأمكنة ، قد تكون وطنا أو أوطانا و ربما تجري في قارات ، ويكون بخاصة زمنها طويلا يمتد سنوات ، أما الحدث فإنه يتعدد و يتفرع ويتنوع كما نراه بخاصة في بعض الروايات المسلسلة التي نشاهدها على شاشة التلفاز مثلا ، وشخصيات الرواية الطويلة تمتاز بالتعدد ، وقد يموت البطل ويخلفه آخر ، لأن الرواية عالم قائم بذاته ، بل قد تموت شخصيات وتبقى شخصيات أخرى .[4]

3-7 – الملحمة :

الملحمة من الفنون السردية ، وهي قصة شعرية طويلة تعتمد أحداثها على أعمال بطولية لشعب

(1) : المرجع السابق ، ص : 19.
(2) : سلام محمد زغلول ، دراسات في القصة العربية الحديثة ، ص : 5.
(3) : أبو ذياب خليل إبراهيم ، دراسات في فن القص ، ص : 18.
(4) : هلال غنيمي ، الأدب المقارن : ص 134

من الشعوب أو أمة من الأمم ، وهي فن أدبي يتخذ من الحكي أسلوبا وطريقة لتصوير الأحداث الواقعية وكثير من أحداث الملاحم تأتي خيالية ، وهي تبتعد عن التاريخ في كونها قصة فنية يغلب عليها الطابع الفني الممزوج بالواقع و الخيال .[1]

فالملحمة هي قصة بطولة تحكي شعرا ، تحتوي على أفعال عجيبة ، أي على حوادث خارقة للعادة وفيها يتجاوز الوصف مع الحوار و صور الشخصيات و الخطب ، فالملحمة فن يسرد أحداث متعددة ويتدخل فيها الخيال ، وتشيع فيها الخرافة و الأسطورة ، وعادة تقوم الملحمة على الشعر ، كملحمة الإلياذة و " الأوديسا " لـ " هوميروس " و **الالياذة لـ** " **فرجيل** " في حين نجد الملحمة التي عرفها العرب تزاوج بين الشعر و النثر ، أو تقوم على النثر [2]وحده ، كما في أخبار " **عنترة** " و " **الزير سالم** " و **الأميرة ذات المهمة** " و " **تغريبة بني هلال**" [3] .

و تعد الملحمة من الأنواع الأدبية التي وظفها الإنسان ليعبر عن أحاسيسه و مشاعره منذ أقدم الأزمنة وهي كالمسرحية و الرواية و القصة و الأقصوصة و الخطابة و الرسالة و المقالة و المقامة .

وتعني كلمة (ملحمة) في اللغة العربية الموقعة الحربية التي تلتحم فيها أجساد المحاربين و تتساقط فيها الأشلاء ، و جاء في الأثر أن النبي محمد (ص) وصف بنبي الملاحم للحروب التي شارك فيها ضد المشركين أيام البعثة .

و في اللغات الأخرى فإن كلمة EPIC تعني ملحمة ، وهي قصة بطولية تختص عادة ببطل أو أمة أو شعب ، وتروي أحداثا بطولية واقعية ، إلا أنها تتعدى إلى عالم الخيال و الأسطورة .[4]

(5) : لمباركية صالح ، محاضرات في الآداب الأجنبية القديمة ، (د . ط) ، مكتب الخدمات المكتبية و المعلوماتية ، باتنة ، سنة 2007 ، ص: 3 .
(6) : هلال غنيمي ، الأدب المقارن ، ص : 122.
(1) : المرجع نفسه ، ص : 122.
(2) : لمباركية صالح ، المرجع السابق ، ص : 3 .

و منه فإن الملحمة " هي محاكاة " تقوم على السرد ، وتستخدم الوزن الشعري ، تبني حبكتها على الدراما ، وتدور قصتها حول فعل واحد تام في ذاته ، له بداية ووسط ونهاية ، وكأنه كائن واحد ، ولكنه يعالج فترة زمنية بكل ما يقع خلالها من أحداث .[1]

3-8 – المسرحية :

تشترك المسرحية مع الرواية الطويلة في أهم خصائصها الفنية ، فيما عدا الحوار الذي يعتبر العمود الفقري للمسرحية ، بل هو القالب الذي ينمي الأحداث ، وبهذا فالمسرحية بأنواعها المختلفة لا تعتمد على السرد أو الوصف بل على الحوار . وتتكون المسرحي عادة من عناصر متعددة بعضها ثانوي وبعضها رئيسي ، وهي :

– **العناصر الثانوية :** تتمثل في خشب المسرح ، الديكور ، الإضاءة ، الموسيقى المصاحبة للعرض بالإضافة إلى جمهور المشاهدين ، ولا شك أن هذه العناصر الثانوية تعمل على نجاح المسرحية إذا توفرت فيها الشروط اللازمة .

– **العناصر الرئيسية :** و تتمثل في الوحدة العضوية بين أجزاء المسرحية ، ونعني بذلك أن تكون مسيرة المسرحية واضحة في ذهن الكاتب من البداية إلى النهاية ، وهذه العناصر جملة هي :

- **الهيكل :** وهو بمثابة الإطار الفني للبناء المسرحي ، ويتكون هذا الهيكل عادة مما لا يقل عن ثلاثة فصول ولا يزيد عن خمسة .
- **الشخصيات :** وهم أبطال المسرحية الذين يقومون بالتمثيل على خشبة المسرح .[2]

(1) : المرجع السابق ، ص : 64.

(2) : هلال غنيمي ، الأدب المقارن ،ص: 134 .

- **الحوار :** وهو عبارة عن أداة العرض و طريقة التعبير على ألسنة الشخصيات ، وعلى هذا يشترط في الحوار الناجح أن يكون موجزا دقيقا محددا بعيدا عن الحشو و الإطناب الداعي للملل .
- **الصراع :** حسي و معنوي ، من أجل إظهار وجوه التناقض بين شخصيات المسرحية ، و لا يتحقق إلا بوجود شخصية محورية أساسية تتمثل عادة في البطل الرئيسي الذي لا يعترف بأنصاف الحلول ، ويشترط فيه قوة الحوار دون توقف .
- **الحكاية أو الأحداث :** عبارة عن الموضوع الذي تعالجه المسرحية و الطريقة الفنية لهذه الأحداث ، ويشترط فيها التسلسل و الترابط .
- **الفكرة و الهدف :** لابد أن تكون ذات أهداف سامية وأفكار إنسانية تعالج الصّراع بين الخير و الشر ، و المشاكل و القضايا التي يعيش فيها الإنسان خاصة أزمات العصر مثل قضايا الحرية و العبودية للشعوب ، و الإحساس بالغربة و الضياع ، وكذلك فلسفة الحياة و الموت ، كل هذا من أجل إعادة الحياة للضمائر الميتة .[1]

فهذه هي فروع القصة العربية بشتى صنوفها و فروعها المختلفة

4 – عناصر القصة :

وللقصص عناصر تلتزمها ، ولا تخلو منها قصة جيدة هي : **الوسط أو البيئة** و الزمن و الحدث والوصف و الحوار و السرد و الحبكة و الفكرة و العقدة و الحل ، ولا تنفصل هذه العناصر بعضها عن بعض ، و إنما يمكن عند الحديث عنها مفردة تحليل كل واحدة على حدة ، و تتفاوت أهمية كل عنصر منها بحسب طبيعة القصة و لونها الأدبي .

4-1 – الوسط أو البيئة :

(1) هلال محمد غنيمي ،الأدب المقارن، ص:64 .

ونبدأ الحديث عن الوسط أو البيئة التي تدور فيها أحداث القصة ، وتتحرك شخصياتها ، وهي تعني مجموعة القوى و العوامل الثابتة و الطارئة التي تحيط بالفرد و تؤثر في تصرفاته في الحياة ، وتوجهها وجهات معينة ، وهذا العنصر في القصص يعتمد على ما يظهر في العصر الحديث من توكيد لأثر البيئة في تكييف الحياة الإنسانية فلم يعد الإنسان نفسه ، كما لا يمكن أن يعتبر ظاهرة منبثة عن أسبابها ونتائجها بل هو الحلقة الأخيرة من سلسلة طويلة من الأجداد و الآباء ، وهو عضو في أسرة كبيرة ، وآلة تديرها يد ضخمة قوية هي يد الطبيعة أو يد القدر أو يد المجتمع .[1]

وتلعب البيئة دورا هاما في بعض القصص بتفاوت نظرة القاص و اهتمامه ، ويدخل ضمن البيئة المكان بمظاهره الطبيعية ، وصوره المادية المختلفة ، أو بمجموعة هذه الأشياء مضافا إليها القيم المعنوية للمجتمع ، وقد تكون البيئة على هذه الصورة الأخيرة طبقة من طبقات المجتمع الأرستقراطية أو الوسطى أو الدنيا .[2]

وتلعب البيئة دورها في تطور الأحداث ، و الحبكة القصصية ، وفي حياة الأبطال وصراعهم مع القوى المختلفة لهذه البيئة ، أو الظروف التي تمليها عليهم ، وتكون العنصر السائد عند الواقعيين ، فنجد **إميل زولا (ت 1902)** وهو رائد الواقعية في القصة الفرنسية يرى أن العمل الفني قطاع من الحياة أبصر من خلال مزاج خاص ، وهو خير من يمثل هذا الرأي في قصصه ، إذ نلاحظ أن العوامل الاجتماعية التي تحيط بالإنسان هي المؤثر الرئيسي في القصة ، وليست الشخصيات الإنسانية من رجال ونساء سوى دمى صماء بكماء .[3]

(1) : نجم يوسف ، فن القصة ، ص : 23 .

(2) : سلام محمد زغلول ، دراسات في القصة العربية الحديثة ، ص : 6 .

(3) : المرجع نفسه ، ص : 7 .

(4) : المرجع نفسه ، ص : 7

وتلعب البيئة بأنواعها كذلك أدوارا تتفاوت في قيمتها من قصص كتاب العرب ،ففي مصر نجد أن البيئة تلعب دورا هاما في أولى القصص المصرية " زينب " التي كتبها " هيكل " وتلعب البيئة الريفية فيها الدور الأساسي،وليس أبطالها الذين يحركهم هيكل فيها،ولكنه لا يلبث أن يلتفت للطبيعة الريفية .[1]

فيفرط في وصفها وتصويرها . وغايته مي ذلك إبراز محبتها في نفسه ، يقول : " يحيى حقي " :

➢ وسترى من تلخيصنا لقصة زينب التي كان الغرض الأول من تأليفها وصف الريف كيف أقامها مؤلفها على الحب أيضا ➢ [2] ويقول : ➢ أن مكانة قصة زينب لا ترجع فحسب إلى أنها أول القصص في أدبنا الحديث ، بل أنها لا تزال إلى اليوم أفضل القصص في وصف الريف وصفا مستوعبا شاملا➢.[3]

ويقول : ➢ فليست الطبيعة في قصة هيكل عنصرا ثانويا في عمله هدفه أن يعكس مشاعر أشخاصها كما يريد لها بعض المذاهب الحديثة في النقد ، بل في عنصر قائم بذاته يلعب فيها الدورالأول ➢ . [4]

4-2 – الزمن :

والزمن ضابط الفعل،وبه يتم،وعلى نبضاته يسجل الحدث وقائعه،ونحن وإن كنا لانستطيع أن نفصل بين الحدث والزمن إلا أننا نتبين أثر الزمن عاملا فاعلا في كثير من القصص الطويلة و الروايات.

ومن أشهر القصص التي تبرز عنصر الزمن قصة **تولستوي المشهورة** " الحرب و السلام " ويبدو عامل الزمن في انطواء و زوال الأجيال ، وقد أظهر تولستوي مثل بنيت benett الناس يكبرونه والضعف ينتاب **نيقولاي ونياتاشا** .[5]

(1) : المرجع السابق ، ص : 7.

(2) : المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

(3) : المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

(4) : المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

(5) : المرجع السابق ، ص : 13 – 14 .

و القصة تمتد على نطاق المسافة كما تمتد على نطاق الزمن ، و الإحساس بالزمن يترك في نفوسنا شعورا مبهما كالنغم يسري في عروقنا . في أنحاء القصة ، وبعد فراغ القارئ من " الحرب و السلام " لتوه ، تأخذ أوتاره في الترنم ، و لا تستطيع أن تبين على وجه الدقة ماذا يحركنا ، إذ لا يحركها تطور القصة بالرغم من أن **تولستوي** كان مغرما بالتهيئة لما سيأتي بعد مثل (ولتر سكوت scott) وكان صادقا صدق بنيت benett كذلك ليس هذا الشعور راجعا للأحداث ن و لا للشخصيات ، و إنما جاء نتيجة للمسافة الشاسعة التي أجرى عليها أحداثه وهي روسيا كلها .[1]

و نجد لدى كثير من الكتاب القصص الإحساس المكاني ، وقليل منهم من نجد لديه الإحساس بالفراغ space ، وامتلاك هذا الإحساس يتمثل بصورة واضحة في عمل " تولستوي " الكبير . وهكذا نجد المسافة و الزمن هما اللذان يمتلكان ناصية "الحرب و السلام ".[2]

4-3 – الحدث :

والحدث هو اقتران فعل بزمن ، وهو لازم في القصة لأنها لا تقوم إلا به . ويستطيع القاص – إذا أراد – أن يكتفي بعرض الحدث نفسه دون مقدماته أو نتائجه كما في القصة القصيرة ، أو قد يعرض هذا الحدث متطورا مفصلا ، مثلا في القصة الطويلة أو الرواية ، يقول تشارلتن : " إنه لما كانت القصة الطويلة هي الفرصة السانحة لعرض الفعل بكل أجزائه و دقائقه ، كان الكاتب القصصي أبرع و أجود ، وكانت قصته أروع حقا كلما استطاع استغلال هذه الفرصة السانحة ..."[3]

وتتفاوت القصص في بيان هذا العنصر ، فمنها ما يهتم بالحدث ويؤثر على غيره ويفتن في عرضه في صور مشوقة ، كما هو الحال في قصص ألف ليلة وليلة ، وفي القصص البوليسية .

(1) : المرجع السابق ، ص : 14 .

(2) : المرجع السابق ، ص : 14.

(3) : سلام محمد زغلول ، دراسات في القصة العربية الحديثة ، ص : 11.

ومن القصص المشهورة التي يتغلب فيها الحدث قصة " **دراكيولا** " إذ تقوم على سلسلة من الأحداث الكبيرة المتعاقبة ، تشد القارئ إليها مبهورا بتعاقبها ، مما قد يقف له شعر رأسه رعبا .

كذلك قصة " **مونت كريستو** " و " **الفرسان الثلاثة** " **لـ** " **لديماس** " وهي تصور حياة الفروسية و المؤامرات التي تحاك في الظلام بين أنصار " **لويس الثالث عشر** " و الكاردينال الماكر" **ريشيليو** "

وتكون الأحداث هائلة عنيفة ، أ، هادئة يسيرة تسري في القصة مسرى النسيم تنتظم أجزاءها وتنفذ في لطف و تشويق .[1]

على أن بعض الكتاب يعتمد كي يشد القارئ للقصة إلى أن يفتعل الأحداث و أن يدخل عليها عناصر غير طبيعية ، لزيادة المفاجأة و الإغراب ، وتضخيم الحدث مثل تدخل الجن و المردة في قصص ألف ليلة وليلة ، و القضاء و القدر و المصادفات في كثير من قصصنا الحديث . و المناسب أن تسير الأحداث طبيعية أو كالطبيعة .[2]

4-4 – شخصيات القصة و أبطالها :

وشخصيات القصة و أبطالها هم الذين تدور حولهم الأحداث ، أ، هم الذين يفعلون الأحداث و يؤدونها و شخصية كل إنسان مشتقة من عناصر أساسية هي **مولده وبيئته وسلوكه** ، و الظروف التي تعترض طريقه ، ولكل إنسان بصورة عامة صورتان لشخصيته ، صورة عامة و هي الظاهرة و المعروفة للناس جميعا ، وصورة لا تظهر إلا للأخصاء أو فيما بينه و بين نفسه و لأقرب المقربين إليه ، ويهتم الروائي بإبراز الجانب الخاص في الشخصيات و لذلك يعمد بعض الروائيين إلى التحوير

(1) : المرجع السابق ، ص : 11.

(2) : المرجع السابق ، ص : 12.

في هذا الجانب من الشخصيات التاريخية و الأبطال المعروفين ، و إن كان يلتزم عدم المساس بصورتها من الجانب العام المعروف من سجلات التاريخ وكتبه .[1]

وكذلك الإنسان العادي في الحياة العامة لا يمكن فهمه من كل جوانبه كما يبدو في الحياة متنقلا بين الناس و مختلطا بهم ، و معاشرا لهم ، فيعمد الروائي إلى التعمق في أغوار نفسه ليستطيع التعرف على الصورة الأخرى لشخصيته و يعرضها بكل جوانبها الظاهرة و الباطنة .

ومثال هذا العرض للشخصيات ما نجده عند نجيب محفوظ مثل شخصية " أحمد عبد الجواد " في قصة " **بين القصرين** " . فالشخصية الظاهرة المعروفة **لأحمد عبد الجواد** هي التاجر الكبير الثري ، الجاد الصارم الذي يغلب عليه الوقار ، و الذي يفرض احترامه على الناس في البيت و المتجر ، وبين عامة الناس الذين يتصلون به ، أما الشخصية الأخرى ، أو الجانب الآخر من هذه الشخصية الذي لا يعرفه إلا هو نفسه وخاصة خاصته فهو شخصية الرجل الماجن اللاهي حين يخلو إلى نفسه من عمله وبيته فيهرع إلى عشيقته إحدى بنات الهوى .

ومنذ حركة الرومانتيكية ظهرت أهمية البطل أو الشخصية في القصص و غلبت غيرها من عناصرها فالرومانتيكية قد اهتمت بالفرد ، لا المجتمع اهتماما كبيرا وسلطت الأضواء على الذات الإنسانية و النفس ، ولذلك نجد أكثر قصص الرومانتيكية في القرنين الثامن و التاسع عشر قصص خلدت شخصيات أبطالها مثل بطل قصة " **البؤساء** " وهو " **جون** " لفيكتور هيجو .[2]

على أن الشخصيات ذاتها في القصة نوعان : نوع يمكن أن نطلق عليه اسم " **الشخصية الجاهزة** " و هي الشخصية المكتملة التي تتميز تصرفاتها ومواقفها بطابع واحد ، و النوع الثاني يمكن أن نسميه " **الشخصية النامية** " وهي الشخصية التي لا تبدو للقارئ في الصفحات الأولى ، بل تتكشف شيئا فشيئا و

(1) : المرجع السابق ، ص : 14- 15.

(2) : المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

تتطور بتطور القصة و أحداثها ، ويكون تطورها غالبا نتيجة تفاعلها المستمر مع هذه الحوادث ، وقد يكون هذا التفاعل ظاهرا أو خفيا ، وقد ينتهي بالغلبة أو الإخفاق .[1]

4-5 – الوصف :

إن كل عمل سردي يحتوي صورا من الحركات و الأحداث ، وهذه الصور التي تشكل السرد بمفهومه الدقيق ، كما أن كل عمل سردي يشتمل على صور من الأشياء و الشخصيات ، وهي التي تمثل في العهد الراهن ما يطلق عليه **الوصف** . فالجمل السردية تتميز بأنها تشير إلى الأفعال الواقعة من الزمن ، أما الجمل الوصفية فإنها ترتبط بوصف الأشياء أو الأشخاص أو المواقف دون أن يرتبط ذلك بالزمن و الحركة و الحدث ، وعلى هذا نستطيع أن نعزل الجمل الوصفية عن النص دون أن يكون لذلك تأثير كبير على الحدث الروائي . وإذا كان السرد يرتبط أكثر ما يرتبط بالزمان ، فإن الوصف يرتبط بالمكان ، و الحقيقة أن السرد و الوصف قد [2] يجتمعان في نص واحد ، إلا أن الوصف قد يستغني عن السرد ولا يستغني السرد عن الوصف ، إلا أن الكاتب ينبغي أن يوازن بين الوصف و السرد .

وتختلف وظائف الوصف من نص لآخر ، فقد يوظف الوصف لذاته ، وتكون بغيته منح أبعاد جمالية ترسم الشيء الموصوف رسما مفصلا ، للوقوف على أبعاده الداخلية و الخارجية .

و أحيانا ما يكوم ضروريا إذ يلقي الضوء على بعض المواقف و المشاهد أو العواطف ، وقد يقوم الوصف بالفصل بين الوحدات الكبرى للنص ، وهو بهذا يقوم بتنظيم التتابع السردي ، وإعطاء الفرصة للروائي للانتقال من حدث إلى آخر مثلما نجد في رواية الغزال ، إذ أنه يبدأ الصورة الأولى التي يتحدث فيها عن الأندلس بوصفه الحالة العامة في قرطبة تمهيدا لما سيأتي من أحداث .

(1) : المرجع السابق ، ص : 19.
(2) : عباس مراد حسن ، الأندلس في الرواية العربية و الانسانية المعاصرة (دراسة مقارنة) ، (د . ط) كلية الآداب (دار المعرفة الجامعية) ، الإسكندرية ، ص : 220- 225 .

و أحيانا ما يفتتح الراوي أو القاص روايته أو قصته بالوصف ليضعنا في الجو العام للرواية أو القصة .[1] وللوصف مظاهر عدة أبرزها ما يلي :

– **وصف المشاهد المادية** : يساهم هذا الوصف في إبراز جمال المظاهر الخارجية وفخامتها ، ويؤكد على ذلك بتكرار الصور وتمطيطها على جوانب الإغراء غيها .

– **وصف المشاهد الاجتماعية** : نجد هذه المشاهد غالبا إثر عرض المشاهد المادية الجميلة فيرتبطان بعلاقة تقابلية تعكس مدى فساد باطن المظهر الخارجي و تأزمه .

– **الوصف التسجيلي** : وهذه الوظيفة القصصية للوصف تتضاءل في المراحل التي يخفت فيها البناء القصصي فتتحول إلى وظيفة تسجيلية ، إذ يعرض بها الراوي أو القاص بعض المشاهد التي تتوقف عندها مظاهر الكتابة القصصية لتترك المجال لنوع من التأليف الشبيه بالثور التي توجد في أدب الرحلة .[2]

4-6 – الحوار :

الحوار " هو الكلام الذي يتم بين شخصين أو أكثر ، بالتجوز يمكن أن يطلق على كلا م شخص واحد وقد تستخدم صيغة الحوار لعرض آراء فلسفية أو تعليمية ، أو نحوها ، كما هو الحال بالنسبة لمحاورات أفلاطون ، أو مقالة " دريدان في الشعر الدرامي " . و الحوار يتميز بقيمة خاصة نذكر منها

يدفع إلى تصوير الحدث الدرامي وتجليته ، ومن ثمة تنتقي وظيفته كعامل بياني زخرفي خاص .

يعتبر مما يميز الشخصية من الناحية الجسمية و النفسية و الاجتماعية و البيولوجية .

---

(1) : المرجع السابق ، ص : 220 – 225 .

(2) : ثابت محمد رشيد ، البنية القصصية و مدلولها الاجتماعي في حديث عيسى بن هشام ، (د ، ط) ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ، ص : 82 – 83 – 84 .

يولد في المشاهد (أو القارئ) الإحساس بأنه مشابه للواقع مع أنه ليس نسخة فوتوغرافية للواقع المعاش .[1]

يوحي بأنه نتيجة أخذ و رد بين الشخصيتين المتحاورتين أو الشخصيات وليس مجرد ملاحظات لغوية تنطق بالتبادل . [2]

إن للحوار ضرورته في العمل الروائي ، إذ أن هناك مواقف لا يمكن أن تسرد ، أو أنها تستغرق في سردها زمنا طويلا ، ولذلك يلجأ الروائي أو القاص إلى أسلوب الحوار .[3]

وللحوار وظائف عدة نذكر من بينها :

- **الوظيفة القصصية للحوار** : تظهر هذه الوظيفة خاصة خلال المراحل التي يتخذ فيها الأشخاص المتحاورون مظهرا قصصيا مستمرا فيتتبع الراوي أفعاله و أقواله .

- **ووظيفة العرض الاجتماعية** : وفيها يعرض هذا الحوار وقائع و أحداث اجتماعية خارجية .[4]

4-7 – السرد :

وهي طريقة الحكي و الإخبار ويسمى الخطاب ، وقد كان منذ وجود الإنسان وفي كل المجتمعات ، ونجده في اللغة المكتوبة وفي اللغة الشفوية ، كما نجده في لغة الإشارات والإيماء في الرسم والتاريخ ، وفي كل ما نسمعه و نقرأه سواء كان كلاما عاديا أو فنبا ، فهو بذلك عام و متعدد ومتنوع ، ومعه

---

(1) : عباس مراد حسن ، الأندلس في الرواية العربية و الإسبانية المعاصرة ، ص : 227.

(2) : المرجع نفسه ، ص : 227.

(3) : المرجع نفسه ، ص : 231.

(4) : ثابت محمد رشيد ، المرجع السابق ، ص : 82 – 83 – 84 .

انحدرت الأجناس السردية الأدبية المعروفة قديما وحديثا كالأساطير و الخرافات و الحكايات الشعبية و المقامات و القصص و الروايات ....إلخ[1]

إن الأحداث التي تقوم بها شخصيات القصة ، أو تخضع لها ، يعرضها الكاتب بلغته و أسلوبه و إذا كان لكل كاتب زاده اللغوي الخاص به ، فان هناك صفات عامة للغة السرد وهي السهولة و الخفة و الوضوح وسلامة المعاني ، وفي هذا يقول **فلوبير** : " مهما كان الشيء الذي يسعى الكاتب إلى التعبير عنه ، فإن هناك كلمة واحدة تعبر عنه ، وفعلا واحدا يوحي به ، وصفة واحدة تحدده " .

ويستخدم الكتاب عدة طرائق لعرض قصصهم :

– **طريقة السرد المباشر**: وفيها يقف الكاتب يرصد سلوك أشخاصه ، و يتحدث عنهم بضمير الغائب شأنه شأن المؤرخ ، وهي أكثر الطرائق شيوعا .

– **طريقة الترجمة الذاتية** : وفيها يتقمص الكاتب شخصية البطل ، ويتكلم بلسانه في استخدامه ضمير المتكلم .

– **وهناك طريقة تصور البطل من داخله** : من خلال أحلامه و ذكرياته و تصوراته ، وفي هذه الطريقة يتكسر الزمن ويتداخل وتتداعى جدران المكان ، ويجري العمل القصصي بلا عمل عقلي ، إن منطق اللاشعور يحكم الأحداث فيعقدها ويفرقها في الذاتية و الغموض ، ونجد ذلك في رواية " **ترترة فوق الليل لنجيب محفوظ** " [2]

(1) : بوبيش عز الدين ، مجلة السرديات (ط/ش/د/ه/ن/ت) عين مليلة ، جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر ، العدد : 1جانفي 2004.

(2) : المرجع نفسه ،ص: 129.

4-8 – الحبكة :

يقوم عمل الأديب على اختيار الأحداث وتنسيقها ، ووضعها في نسيج فني ، يهيئ مقدمة تبتدئ بها القصة ، ثم يحرك الأحداث ويطورها ليجعلها تشتبك و تتأزم ، ثم يندرج بها إلى الانفراج و الحل ... هذا العمل التنظيمي بجملة أجزائه يسمى الحبكة ، إنها التصميم العام المعقول لأحداث القصة .[1]

فحبكة القصة هي سلسلة الحوادث التي تجري فيها ، مرتبطة عادة برابط السببية ، وهي لا تنفصل من الشخصيات إلا فصلا مصطنعا مؤقتا ، وذلك لتسهيل الدراسة ، فالقاص يعرض علينا شخصياته دائما وهي متفاعلة مع الحوادث متأثرة بها ، ولا يفصلها عنها بوجه من الوجوه .

وعند الحديث عن حبكة القصة ، يجب النظر أولا إلى المواد الأولية التي تستمد منها ، وإلى قيمة هذه المواد عندما تعارض بالحيات نفسها . فلو نظرنا إلى قصص بعض كتابنا ، كتوفيق الحكيم و المازني ونجيب محفوظ ، وجدنا أن موضوعاتها مستمدة من واقع الحياة التي تحيط بهم على ما بينهم من اختلاف في الزاوية التي ينظرون منها إلى هذه الحياة ، وفي طبيعة الموضوعات يتبعونها ويعنون لبعضها .

فعندما نقرأ " **عودة الروح** " **أو** " **إبراهيم الكاتب** " **أو** " **بداية و نهاية** " نجد أننا نشرف على ألوان مختلفة من الحياة ، وعلى عوالم إنسانية متباينة ، ولكن على الرغم من اختلاف الموضوعات و أساليب العلاج ، نجد أن هذه القصص جميعا لها قيمها الخاصة و معانيها الإنسانية الأصيلة وذلك لأنها لا تعني بما يطفو على سطح الحياة من زبد الحوادث و الشخصيات .[2]

ولكنها تتعمق إلى مختلف العواطف و تستنبط ألوان المشكلات ، وتعكس صور الصراع الحيوي الذي تتصل عداه بين أعضاء هذه المجموعة الإنسانية الصغيرة ، التي عزلها الكاتب عن تيار الحياة المتدفق

(1) : المرجع السابق ، ص : 128.

(2) : سلام محمد زغلول ، دراسات في القصة العربية الحديثة ، ص : 53.

ليصفها لنا في دقة و أمانة ، دون أن يفهم ما بينها وبين الحياة الكبيرة الزاخرة من أوامر و أسباب ، وهذا الحكم ينطبق على فنون الأدب عامة ، لأن الأدب في حقيقته ليس إلا تفسيرا عميقا للحياة .[1]

و المحك الحقيقي لعظمة القصة ، أو لخلود أي أثر أدبي ، على اختلاف الأساليب و الموضوعات ، هو مدى اتصاله بالحقائق التي تجعل الحقائق الإنسانية أكثر عمقا و أوسع شمولا ، و مقدار ما فيه من القيم التي تبرز النواحي الروحية في الحياة قوية ناصعة .[2]

و القصة لا تكون عظيمة بما يزين على سطحها من التجهم و العبوس ، بل باستبطانها الانفعالات و الأحاسيس التي تنتابنا و تمتلكنا في صراعنا الدائم مع الحياة ، كما يحرم بعض القصص التي تتقبلها نفوسنا باللذة و الارتياح من صفة العظمة .

و من ناحية أخرى قد يكون في فنية القصة وفي قوتها التمثيلية ، أو في دقة رسم شخصياتها وفي سخريتها و فكاهتها ما يكفي لجعلها في المقام الأول من الأدب القصصي ، وعليه فإن العظمة الحقيقية في القصة تعتمد على موضوعها ، أو القيمة الحقيقية لموادها الأولية ، ولا تكفي لجعل القصة عظيمة ، إذ لا بد لها زيادة على ذلك من يد صانع تستطيع أن تبرز خصائصها ، وتظهر صفاتها و طاقتها الكامنة على أحسن وجه ، و نقصد بذلك القدرة على الحبك و السبك ، و تنظيم الحوادث و التدرج بها بعد التأزم إلى الانفراج ومعنى هذا أن الأمر يتوقف على عملية الإبداع أو الخلق في القصة ، وما يرافقها من موهبة طبيعية وبراعة فنية .[3]

4-9 – الفكرة :

(1) : المرجع السابق ، ص : 54.

(2) : سلام محمد زغلول ، دراسات في القصة العربية الحديثة ، ص : 54.

(3) : المرجع نفسه ، ص : 55.

القصة تكتب لتقرر فكرة لتنقل خلاصة أو تجربة شعورية ، أن الكاتب يقوم بصوغ الفكرة التي جردها من الحياة في إطار فني جديد ، و يجسدها في أشخاص و أحداث ، ويخرجهم من محيط الحياة العادية ، ليدخلهم في إطار عمله الفني ، وهو القصة ، وقد كتب الكاتب الروسي " **تولستوي** " يحدد طبيعة العمل القصصي ، فقال : " يقوم فن القصة على أساس تصوير أناس لهم طبائع متباينة يخضعون لمواقف مختلفة ، فيطرح الكاتب مشكلة حيوية ، فيكلفهم مواجهتها ، و العمل فيها ، ويراقبهم ويلاحظهم في سعيهم لحلها إنها تجربة مختبر " .

4-10 – العقدة :

هذه ذروة الصراع ولحظة التوتر القصوى في سير أحداث القصة ، فهي النقطة التي تشتد فيها أزمة القصة ويشتهي القارئ أو السامع أن يقدم لها حلا .

4-11 – الحل :

هو نقطة انفراج التوتر و التأزم في سير الأحداث ، فهو مفتاح العقدة وفكها و حلها وتنويرها .

فهذه هي جملة العناصر التي ما إن ألتزمتها القصة ، غدت نتاجا قصصيا إبداعيا ، مكتمل البناء الفني – بأتم معنى الكلمة – لأنه استوفى جميع العناصر اللازمة لتكوين عمل قصصي فني عظيم .

1- جهود الدارسين في سبيل التأريخ و الترجمة الأدبية لأبي عامر بن شهيد:

من نافلة القول أن التراث العربي في الغرب الإسلامي عامة و الأندلس منه على الخصوص يكون هاجسا ما فتئ يشغل بال الكثير من المهتمين به توثيقا و قراءة و هذا التراث و إن كان نتاج فترات ضاربة في عمق التاريخ فإنه يعتبر خير وثيقة تسعى في الكشف عن جوانب من الحياة الأندلسية ظلت غامضة آمادا طويلة.

و غير خاف على الدارسين ما نهضت به بعض الأسر الأندلسية العريقة من أدوار و ما أسهمت به من جهود في سبيل إخصاب الحركة الفكرية و الأدبية في ذلكم الصقع من الغرب الإسلامي و ما تخلف إلينا من آثارها الفكرية و الأدبية فيما تخلف من تراث أندلسي رفيع كبني حزم و بني حيان و بني شهيد القرطبيين[1].

و قد عن لنا أن نرصد أهم محاولات الدارسين المعاصرين للترجمة الأدبية لها و الكشف عن تراث بعض أفرادها و نخص في هذا المقام الحديث عن " أبي عامر بن شهيد ".

لم يهتم الباحثون بأفراد أسرة بني شهيد قدر اهتمامهم " بأبي عامر بن شهيد الحفيد " و لعل السبب في ذلك يعود إلى وفرة المعلومات التي تمدنا بها المصادر عن هذه الشخصية الأندلسية الفذة بالقياس إلى المعلومات الشحيحة التي تقدمها لنا عن سواه من أفراد هذه الأسرة القرطبية و كذلك بسبب وصول قسم من آثاره الأدبية و عطائه النقدي إلينا و نجاته من عوادي الضياع. و الواقع أن الدارسين لم يعنوا بأفراد هذه الأسرة إلا في سياق دراستهم لتراث " أبي عامر الحفيد " و ترجمتهم له و من المنظور أن ذلك من شأنه أن يعكس ما قد يكون قد ورثه عن أبيه أو بعض أجداده من صفات أو خصائص عقلية و علمية أو أوضاع حضارية أو اجتماعية"[2].

"1"- العياشي حيدوش ،التراث المغربي و الأندلسي، (د.ط)، كلية الآداب للنشر تطوان، ص: 519.

"2"- الكتاني محمد، التراث المغربي و الأندلسي ، التوثيق و القراءة، (د.ط)، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء (19.20.21.أبريل 1991) ص:523.

و سنحاول فيما يلي أن نعرض أهم تلك الدراسات و التي لن نلتزم في عرضنا لها بالتعاقب الزمني الصارم اللهم إلا ما قد يجيء من ذلك عفوا من غير استدعاء.

ومن أوائل الدارسين الذين نجدهم يولون عناية خاصة " لأبي عامر بن شهيد الحفيد " و تراثه الأستاذ الدكتور " أحمد ضيف " الذي أفرد للتعريف به و الكشف عن سمات شعره و خصائص نثره الموضوعية و الفنية مبحثا خاصا في كتابه القيم الرائد " بلاغة العرب في الأندلس " و المطبوع بالقاهرة سنة 1924.

كما نصادف من بين الباحثين الذين يمثلون الرّعيل الأول من المهتمين بتراث آل شهيد عامة و آثار " أبي عامر الحفيد " خاصة البحاثة الدكتور " زكي مبارك " الذي أفرد لنثر " أبي عامر " الفني و نقده الأدبي مبحثا في غضون كتابه المترجم بـ " النثر الفني في القرن الرابع هجري " و الذي قدم في الأصل باللغة الفرنسية و نوقش بجامعة باريس سنة 1991 و نال به مؤلفه درجة الدكتوراه .

كما نقع على دراسة عن " عبد الملك بن شهيد " والد أبي عامر " أنجزها الأستاذ " أنخيل بلنثيا" ANGEL PALENCIA ضمن كتابه " تاريخ الفكر الأندلسي " الذي قام بترجمته الدكتور " حسين مؤنس " إلى العربية و المطبوع بالقاهرة سنة 1955م [1].

و من الأدباء النقاد الذين قدموا بحوثا في نقد الخطاب الإبداعي في الأندلس الدكتور " أحمد هيكل " و يتجلى إسهامه في دراسة النثر الأندلسي فيما أودعه كتابه الذي قدمه للمكتبة الأندلسية سنة 1958. و يحمل عنوان " الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة " و يتناول فيه الشعر و النثر جنبا إلى جنب بدءا من فترة الولاة حتى فترة سقوط غرناطة و ما يلحق بها كفترة الحجابة ثم فترة الفتنة و قد ضمن المؤلف دراسته عددا من الآراء النقدية المتصلة بنشأة النثر الأندلسي

"1"–المرجع السابق، ص: 523. 524.

و تطوره عبر العصور المختلفة و سماتها الفنية في كل طور تاريخي.

و من آراء هيكل النقدية :

1- تقسيمه النثر الأدبي في الأندلس إلى نوعين أولهما النثر الفني الخالص. كالرسائل و العهود...ثم بروز النثر الوصفي متأثرا بوصف مظاهر الحياة الحضارية في فترة الحجابة ثم أعقب ذلك ظهور النثر القصصي في فترة متأخرة عنه في فترة الفتنة متمثلا في رسالة " التوابع و الزوابع" لابن شهيد و ثانيهما النثر التأليفي الذي تصاغ به المعارف الإنسانية في أسلوب أدبي و كان ظهوره في ق 4 هـ [1].

2- ظهور لون من النثر الخالص على يد " ابن شهيد " بجانب الأشكال التقليدية المعروفة – و هو الفن القصصي . الذي أحرز به " ابن شهيد" السبق من خلال رسالة" التوابع و الزوابع" التي توافرت فيها عناصر السرد المعاصر و قد تأثر " أبو العلاء المعرّي " في رسالة الغفران برسالة " ابن الشهيد " التي دلت تواريخ النصوص المذكورة بها على تأليفها قبل رسالة " المعزي " بنحو– تسع سنوات – على الأرجح على الرغم من شهرة " أبي العلاء " في المشرق و المغرب و إدراك "ابن شهيد " عصره.

و إن كان الدكتور " شوقي ضيف " يخالف رأي الدكتور " هيكل " في هذا ؟ حيث ذكر أن الذي أوحى إلى "ابن شهيد " برحلته في أرض الجن إنما هو " بديع الزمان " بمقامته الإبليسية التي تعرض للقاء " عيسى بن هشام " بإبليس في واد من وديان الجنة و تحاورهما و تناشدهما [2]. و يستهلها " بديع الزمان بقوله:

"1"- نجا أشرف محمود، في الأدب الأندلسي ،بحوث في نقد الخطاب الإبداعي، (ط1 الأولى)، دار الوفاء، لدنيا الطباعة و النشر الإسكندرية، س:2006، ص: 166 – 167 .

"2"- المرجع نفسه، ص: 168 – 169.

حدثنا عيسى بن هشام قال :

أضللت إبلا لي . فخرجت في طلبها فحللت بواد خضر فإذا أنهار مصردة و أشجار باسقة و أثمار يانعة و أزهار منورة و أنماط مبسوطة و إذا شيخ جالس فراعني منه ما يروع الوحيد من مثله فقال :

لا بأس عليك فسلمت عليه و أمرني بالجلوس فامتثلت و سألني عن حالي فأخبرت. فقال لي :

أصبت دالتك ووجدت ضالتك فهل تروي من أشعار العرب شيئا ؟ قلت : نعم . فأنشدت لامرئ القيس . وعبيد. ولبيد. وطرفة. فلا يطرب لشيء من ذلك .وقال : أنشدك من شعري؟

فقلت له : إيه .فأنشد :

بان الخليط و لو طوعت نايانا *** و قطعوا من حبال الوصل أقرانا [1].

كما قرر "شوقي ضيف "من ناحية أخرى أن القول بأن " ابن شهيد " أو " أبا العلاء المعري " قد تأثر أحدهما بالآخر إنما هو رأي يجانب الصواب نظرا لتباين موضوع الرسالتين و عدم التقائهما أي التقاء لأن رحلة " أبي العلاء " تدور على عقيدة إسلامية هي عقيدة المعاد و ما يتصل بهذا اليوم من أهوال و نعيم، و في حين أن رحلة " التوابع و الزوابع " لابن شهيد تدور على المعتقد الوثني الجاهلي الذي شاع على ألسنة العرب في الجاهلية حين كانوا يتصورون أن الشعراء متصلون بشياطين يلهمونهم الشعر [2].

"1"– بوملحم علي . مقامات بديع الزمان الهمذاني قدم له و علق عليه و شرحه . الطبعة الأخيرة سنة :1421 هـ 2000م، دار مكتبة الهلال للنشر و التوزيع، ص:148 .

"2"– ضيف شوقي ،الأندلس عصر الدول و الإمارات . الطبعة الثانية، دار المعارف القاهرة، سنة 1994م، ص 457.

أما عن منهج " هيكل " في دراسته فأول ما يلفت النظر إليه إجمالا هو اتكاؤه على المنهج التاريخي في تناول تطور النثر و إخضاعه بشكل حتمي ثابت للمراحل التاريخية المختلفة و التقسيمات الزمنية

المرتبطة بالحياة السياسية [1]. فحين أراد أن يستدل على تأثر " أبي العلاء المعرّي "في رسالة " الغفران " برسالة " التوابع " اتكأ على المنهج التاريخي للخلوص إلى هذه النتيجة بحيث يقول : (و تحقيق الأمر أن " ابن شهيد " قد ألف رسالته قبل تأليف " أبي العلاء " رسالته بما لا يقل عن تسع سنوات و أن رسالة " ابن شهيد " قد وصلت إلى المشرق في حياة " ابن شهيد " و في حياة " أبي العلاء ".وبيان ذلك هو : أنه بالبحث في نص رسالة – التوابع و الزوابع – و جدت نصوص مرتبطة بتواريخ بعينها و هذه التواريخ يمكن أن تشير إلى الزمن الذي كتبت فيه الرسالة) [2].

كما نعثر إلى جانب هيكل على مجهود كبير ذي بعدين نهض به الأستاذ " شارل بلا " وهو يتمثل في عملين :

الأول: جمع لديوان أبي عامر الشعري و طبعه و نشره و ذلك سنة 1963م.

الثاني : إنجاز لدراسة مستفيضة عن صاحب الديوان يتخللها حديث عن بعض أفراد أسرته القرطبية و ذلك في كتاب بعنوان " ابن شهيد الأندلسي حياته و آثاره " و الكتاب في الأصل محاضرات ألقيت على طلبة جامعة الأردن خلال الموسم الجامعي 1964-1965م.

و هناك دراسة مفيدة عن هذه الشخصية الأندلسية ذاتها لعلامة الدكتور " إحسان عباس " توجد ضمن مؤلفه " تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة " المطبوع بالقاهرة سنة 1958م.[3]

"1"- فضل صلاح . مناهج النقد المعاصر ،(د.ط)، دار الأفاق العربية .القاهرة س: 1996م ،ص:24.

"2"- هيكل أحمد. الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ط8 .دار المعارف القاهرة س :1982م .ص :382 وما بعدها.

"3"- الكتاني محمد، التراث المغربي و الأندلسي، ص:524.

ومن المضطلعين المهتمين بالنثر الإبداعي الأندلسي و نقده الدكتور " فوزي عيسى " و يتسم جهد الدكتور "فوزي عيسى" في مجال دراسة النثر الأندلسي بغزارة نتاجه في هذا الفرع من الأدب قياسا إلى

غيره من المتخصصين و عليه لا يمكن للدكتور " فوزي عيسى " و هو إذ يتصفح أوراق النثر الأندلسي ألا يتطرق لعمل الرحالة المبدع " ابن شهيد " التوابع و الزوابع " ومن الإشارات النقدية للدكتور " فوزي عيسى " حديثة عن تشكل النوع القصصي في رسالة " التوابع " و بيان خصائص خطابها السردي بوصفه أحد عناصر القص الأساسية في هذه الرسالة متأثرا في ذلك بالمسار النقدي الحديث الذي يعنى بتقنيات السرد الروائي المعاصر [1].

كما نلفي من بين المهتمين بالنتاج الأدبي "لبني شهيد " القرطبيين الدكتور " بطرس البستاني " الذي اضطلع بإخراج رائعة " أبي عامر حفيد " الخيالية " رسالة التوابع و الزوابع " أو " شجرة الفكاهة " مصدرا إياها بدراسة عن صاحبها معلقا عليها شارحا غوامضها و قد طبع الكتاب بدار صادر سنة 1967م.

وثمة دراستان أخريان عن قصة " أبي عامر " العجائبية " التوابع و الزوابع " الأولى أنجزها الدكتور " مصطفى الشكعة " و ضمنها كتابه " الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه " الصادر ببيروت سنة 1979م. و الثانية للدكتور " مصطفى السيوفي "و التي نعثر عليها في غضون كتابه " ملامح التجديد في النثر الأندلسي " المطبوع ببيروت سنة 1985م.

إلى جانب هذه الدراسات نلفي بحوثا ذات طابع أكاديمي حول " أبي عامر بن شهيد " و آثاره الأدبية نذكر منها:

أولا : ديوان ابن شهيد الأندلسي :جمع و تحقيق و دراسة للدكتور " يعقوب زكي " المطبوع بالقاهرة سنة 1967م.

"1"- نجا أشرف محمود في الأدب الأندلسي بحوث في نقد الخطاب الإبداعي ص 208.

ثانيا: رسالة هيأها الدكتور " حازم عبد الله خضر " بعنوان " ابن شهيد الأندلسي . حياته و أدبه " و المطبوعة بالعراق سنة 1984م.

ثالثا: بحث متواضع تقدم به الأستاذ الكتاني نفسه لنيل د.دع منذ بضع سنوات بآداب الرباط بعنوان "حركة النقد الأدبي في قرطبة عصري الحجابة و الفتنة، أبو عامر بن شهيد الحفيد أنموذجا".

يضاف إلى هذه الإنجازات جملة من المقالات تخص آل شهيد و تراثهم تتوزعها بعض المجلات و الحوليات نخص بالذكر منها :

أولا: مقالة نشرها المستعرب الإسباني JOSELAZARO ضمن مجلة القنطرة المجلد 6العدد 2/1 السنة 1986م. بعنوان " مؤلفات ابن شهيد " يذكر فيها أنه عثر على مخطوطة لكتاب غير معروف لأبي عامر الحفيد بعنوان " التهذيب لمحكم الترتيب لما نشره الشيخ أبو بكر الزبيدي في كلا وضعيه في لحن العامة بالأندلس" و قد عثر على المخطوطة بمكتبة " دبلن" تحت رقم5186 [1].

ثانيا: مقالة للدكتور " عبد السلام الهراس " يوازن فيها بين رسالة " ابن شهيد " أنفة الذكر و" رسالة الغفران " و ذلك ضمن العدد التاسع و العشرين من مجلة المناهل.

ثالثا : مقالة للدكتور " عبد المنعم خفاجي " ضمن مجلة الهلال عدد يونيو 1983م و هي بعنوان " التوابع و الزوابع لابن شهيد الأندلسي ".

رابعا : مقالة للدكتور " سعد شلبي "بعنوان " الطبيعة في مطالع القصائد " يقصد مطالع قصائد " أبي عامر الحفيد " و قد صدرت ضمن مجلة الشعر السنة السادسة العدد 21 عام 1981م[2].

و هناك العديد من الدراسات و البحوث الأخرى المتعلقة بحياة الحفيد " أبي عامر بن شهيد " إلا أن المقام لا يسمح لنا بعرضها جميعا كما نعتذر عما نكون قد أغفلناه من دراسات قيمة تتناول التأريخ

"1"- الكتاني محمد : التراث المغربي و الأندلسي التوثيق و القراءة ،ص: 525.

"2"- المرجع نفسه، ص: 526.

و الترجمة الأدبية لأبي عامر بن شهيد لم نتمكن من الإطلاع عليها.

2- ترجمة المؤلف:

أ – مولده و نشأته :

هو أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد إبن شهيد بن عيسى إبن الوضاح الأشجعي .و قد سمي أحمد على اسم جده و كنيته " أبو عامر " و قد دخلت أسرته التاريخ أول مرة حينما قاتل جده الوضاح بن رزاح في معركة مرج راهط عام 64هـ (648م) في صف الضحاك بن قيس القهري ضد الأمويين و مؤيديهم من بني كلب. و كان الوضاح هذا هو الجد الأكبر للأسرة التي تحمل هذا الاسم ممن يقطنون مرسية و كان من قبيلة أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان من مصر و قد وقع الوضاح في تلك المعركة أسيرا في يد مروان بن الحكم مؤسس الفرع المرواني من الأسرة الأموية التي قدر لذرية الوضاح من بعده أن تخدمها بإخلاص شديد [1]. و إبن شهيد نفسه يشير إلى أصله هذا في قوله :

من شهيد في سرّها تم من أشـ *** جع في السر من لباب اللباب [2]

ولد احمد بن شهيد في قرطبة سنة (382هـ - 992م).كاتب من كبار الكتاب في آخر عهد الدولة الأموية ،شاعر ظريف،وكاتب مبتكر من كتاب الأندلس وأدبائها. [3]

و أسرة أحمد بن شهيد تنحدر من قبيلة أشجع المضرية و هي أسرة شامية لاجئة استقرت في الأندلس أيام الداخل بعد أن هرب شهيد أحد جدود الشاعر من بطش العباسيين .وكان جده احمد بن عبد الملك وزيرا للناصر وهو أول من لقب بذي الوزارتين[4].

"1"– أحمد الجبل إيمان : المعارضات في الشعر الأندلسي، ط –1– 2 ،جدار للكتاب العالمي للنشر و التوزيع، عمان الأردن، عام: 2006م، ص :319.

"2"– ابن الشهيد الديوان . يعقوب زكي، راجعه د محمود علي مكي، دار الكتاب العربي القاهرة.

"3"– خفاجي محمد عبد المنعم : الأدب الأندلسي ،التطور و التجديد، ط الأولى دار الجيل بيروت ،1412هـ –1992م ص:612.

"4"– ينظر ابن خلكان،احمد بن محمد،وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان،تحقيق عباس، دار صادر بيروت ، سنة 1977: ،ج1،ص:95 .

و لقد عاش ابن شهيد في ظلال بني عامر و تربى في نعمهم، و كانت أيامهم من أحسن أيام الرخاء أفاض ملوكها عليه المال الكثير لمكانته لديهم و مكانة أسرته [1].

فقد كان أبوه من أخلص أعوان الحاجب المتصور الذي ولاه شرقي الأندلس مدة طويلة[2].

فنشأ ابن شهيد على مثال الملوك كريما . متلاقا و كان ظريفا خفيف الروح مرح المجلس به ميل إلى النكتة و الدعابة محيا للهزل و المجون خليعا كأهل عصره من الأدباء سريع البديهة حاضر الذهن سديد الرأي عارفا بفنون الأدب كاتبا بارعا يغلب الظرف على أخلاقه فرحا مسرورا كأكثر شعراء زمانه و أدبائه الذين كانوا يترددون على مجالس الخلفاء و الأمراء لذلك كان محبا للحياة و نعيمها. كما يظهر ذلك من نظمه و نثره [3].

و هكذا نشأ الشاعر في أحضان النعمة و الترف بين قوم لهم مكانة عالية عند الخلفاء و الأمراء وأكب على العلم فحصل منه ما استطاع تحصيله وهو سليل رياسة و شعر . نظم أشعاره وهو فتى كما نبغ في النثر و عرف برسالته " التوابع و الزوابع ".

وقد أغناه ثراؤه عن طلب الرزق فجنح إلى اللهو و المجون ووجد من الوقت ما أتاح له إشباع ميله إلى الأدب و هذا ما جعله أيضا يطمح إلى بلوغ بعض المناصب العالية و تحقق له ذلك فأصبح وزيرا إلى حين قصير [4]. عندما اضطرمت نيران الفتنة في قرطبة و غزاها البربر سنة 403هـ –1013م .و عندما ثارت فيها سلطة على سلطة و تقلبت فيها جيوش بعد جيوش وراح يستقبل خليفة و يودع خليفة مادحا هذا ثم مطارئا ذاك راميا من وراء إلى ذلك إلى استعادة ما كان له من العز في الدولة العامرية. و لكنها الأيام لا تدوم على حال و قد تضافر الحشاد على النيل من كرامته فراحوا يدسون له الدسائس و راحوا يسودون صحيفته لدى أولي الأمر و لما كان عهد الحموديين

"1"– خفاجي محمد عبد المنعم . الأدب الأندلسي التطور و التجديد، ص: 612

"2"– الدقاق عمر . ملامح الشعر الأندلسي، (د.ط)،دار الشرق العربي،بيروت،لبنان،(د.س)،ص:105.

"3"– خفاجي محمد عبد المنعم، الأدب الأندلسي التطوروالتجديد، ص: 612.

"4"– الدقاق عمر ، المرجع نفسه، ص: 106.

سجن ولحقه من الضيم و المهانة شيء كثير قم أفرج عنه وراح يتقلب بين حال و حال إلى أن اعتل و فلج بسبب شدة انهماكه في حياة الترف و المجون [1].

و مع ذلك فقد نشأ " أبو عامر بن شهيد " جوادا عزيز النفس غير أنه ما كاد يبلغ مبلغ الشباب ليأخذ بحظه من الدنيا حتى ثارت الفتنة في قرطبة فضاع فيها شبابه و علمه و أدبه و عمره.

و اضطر "أبو عامر بن شهيد " في سبيل الحصول على الرزق إلى أن يتطوف بشعره للتكسب من الذين كانوا يتنازعون الحكم على قرطبة و على عدد من المدن الأندلسية كمالقة و المرية و دانية .فمدح " سليمان الأموي " الذي جاء إلى الخلافة مرتين قصيرتين سنة 400 ثم أواخر 403 إلى مطلع 407 هـ [2].

و مدح " المعتلي بن حمود " المستبد بقرطبة من سنة 412هـ إلى 413 هـ ،ثم أنه وزر لعبد الرحمان المستظهر الأموي الذي جاء إلى الخلافة نحو شهرين في سنة 414 هـ. و أخيرا لجأ إلى بلاط الخليفة هشام المعتد 418 هـ 422هـ أخر الأمويين في قرطبة فكان جليسا له و نديما.

و ظن أبو عامر بن شهيد أن حظه من العامرين (نسل المنصور بن أبي عامر ممن تولوا حكم عدد من البلاد في تلك الحقبة)سيكون أوفر فلم يتحقق ظنه حتى أن " مجاهدا العامري " صاحب دانية 408 هـ 432 هـ و ميروقة في بعض تلك الفترة قطعة و لم يلتفت إليه[3].

ب- صفته و أخلاقه و ثقافته:

كان "ابن شهيد " أصم و من فكاهات " ابن الحناط " أنه حين سئل : كيف كان هشام لمعتد ؟

قال: يكفي من الدلالة على اختياره أنه استكتبني واتخذ "ابن شهيد" جليسا و كان "ابن الحناط"

"1"- الفاخوري حنا : تاريخ الأدب العربي – الأدب القديم (د-ط) دار الجيل .بيروت . لبنان ،ص: 909.

"2"- الفاخوري حنا : الجامع في تاريخ الأدب العربي – الأدب في المغرب و الأندلس ،ط9 ،المكتبة البوليسية، بيروت لبنان، سنة: 1978 ،ص: 454-455.

"3"- المرجع نفسه ،ص: 455.

أعمى و ابن شهيد أصم[1].و لما كان " ابن عباس " يترنم بقسيم من الشعر لم يسمع " ابن شهيد " ما كان يقول واضطر أن يسأل أحد الجماعة ليسمعه ما كان يترنم به. و كان أيضا أطلس. و الدليل على ذلك

قوله في رسالة " التوابع و الزوابع " على لسان صاحب عبد الحميد الكاتب " أهكذا أنت يا أطليس تركب لكل نهج و تعج اليه عجة؟ فقلت : الذئب أطلس و إن التيس ما علمت " [2].و ربما كان لصممه أثر بعيد في تكيف علاقاته بالناس و محاولته الترفع على نظرائه و معاصريه و إساءة الظن فيهم.

كما يصف لنا ابن خرم هيئة ابن شهيد فيقول: " و أما حسن وجهه و كمال صورته فشيء تقف عنده الحدود و تكل الأوهام عن وصف أقله و لقد كانت الشوارع تخلو من السيارة و يتعمدون الخطو على باب داره في الشارع الأخذ من النهر الصغير على باب دارنا في الجانب الشرقي لقرطبة إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة و في هذا الدرب كانت داره رحمه الله ملاصقة لنا لا لشيء إلا للنظر منه و لقد مات من محبته جوار كن علقن أوهامهن به..." ثم يتناول " ابن حزم " مواهبه بقوله: " و كان رحمه الله مع هذا من أهل الأدب و الحذق و الذكاء و النبل و الحلاوة و التوقد مع الشرف العظيم و المنصب الفخم و الجاه العريض..."[3] .

و قد اشتهر بين معاصريه بخلال أربع :

الأولى : ميله إلى اللهو و البطالة" قلم يحفل في آثارها بضياع دين و لا مروءة فحط في هواه حتى أسقط شرفه و وهم نفسه راضيا في ذلك بما يلذه فلم يقصر عن مصيبة و لا ارتكاب قبيحة"[4]

"1"– ابن سعيد الاندلسي ، المغرب في حلى المغرب،ت.دشوقي ضيف طبعة دار المعارف بمصر سنة:1964،ج1 ، ص:123.

"2"– الشنتريني ابن بسام (أبو الحسن علي) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة الطبعة الأولى تحقيق د. إحسان عباس دار الثقافة بيروت سنة:1979م، ج1/م1/،ص: 230.

"3"– ابن الحزم : طوق الحمامة في الألفة و الآلاف تحقيق محمد عبد اللطيف عبد المنعم خفاجي إبراهيم بال، ط 1 المكتبة الحسينية بميدان الأزهر، سنة: 1395هـ 1975م ،ص: 74.

"4"– الشنتريني ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ،ص: 162.

و قال " الحجاري " في وصفه " كان ألزم إلى الكأس من الأطيار بالأغصان و أولع بها من خيال الواصل بالهجران " [1] .

و رغم كون " ابن شهيد " مصابا بالصم فإن ذلك ثم يحل دون إقباله على الحياة واستمتاعه بها فقد اشتهر بين معاصريه بانغماسه في اللهو و يبدو أن جرأته على المتزمتين و الجاحدين و بخاصة من الفقهاء قد ألبت عليه الخصوم فاستغلوا هذا المسلك فيه و دأبوا على التشهير به[2] .

الثانية : إسرافه في الكرم حتى كان لا يبق شيئا و أشرف في أواخر أيامه على الإملاق و وكانت عند أهل قرطبة قصص مشهورة عن جوده و سخائه. تلحق بالأساطير من ذلك تلك القصة التي رواها صاحب المطرب عن رجل من طليطلة قصد "أبا عامر " فألفى عليه صفوف الإكرام بل وهبه " أبو عامر " دارا في قرطبة و مركبا و خادما و نعما كثيرة و فرشا وثيرة.

الثالثة : عزة النفس المصحوبة بالعجب و قد تنازل عن عزة النفس في حالات إعساره و لكنه كان يقهر نفسه بحيث لا تستشعر الندم على فائت و كثيرا ما يمتدح بعزته النفسية في شعره كتمدحه بالكرم فيقول :

و النفس نفس من شهيد يسنخها *** بسنخ فذت منه العلا بلبانها

و مصدر إعجابه شيئان : نسبه الشهيدي الأشجعي و فيه يقول ك

من شهيد في سرها ثم من أشـ *** جع في السر من الباب اللباب [3]

و اقتداره على النثرو الشعر اقتدارا يراه كل معاصريه و كثيرا من غير معاصريه دونه ز قد قال له

"1"– ابن سعيد الأندلسي،المغرب في حلى المغرب، ص:85.

"2"– الدقاق عمر ملامح، الشعر الأندلسي، ص: 106.

"3"– عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، (د.ط)، دار الشروق للنشر و التوزيع، سنة، 1997م. ص:263.

أصاحبه ذات مرة"إنك لآت بالعجائب وجاذب بذوائب الغرائب و لكنك شديد الإعجاب بما يأتي منك" [1]

و قال عنه "ابن حيان" صاحب المتين " كان يبلغ المعنى و لا يطيل سفر الكلام و لم يوجد له بعد موته كتب يستعان بها على ما جرت به عادة البلغاء و الأدباء و كان قديرا على فنون الهزل"[2]

و قال المستشرق " غرسيه غومس " GORSIH GHOMESS عن مكانته الأدبية و تعبيره عن طبيعة نفسه " فهو المفكر العقلي الخالص الذي لا يتخذ بفضل منزلته و أصله النبيل من ميدان حرفة التكسب و إنما يجد في الأدب فنا خالصا للتعبير عن طبيعة نفسه " [3].

و لقد درج المحدثون على تقرير أن ابن شهيد قليل الإطلاع نزر النظر في المعارف و الفنون التي تكون شخصية الأديب مقولين في البديهة و الارتجال و الحق أن ابن شهيد كان واسع الإطلاع كثير النظر لا في النثر و الشعر فقط بل في جملة المعارف الإنسانية الأخرى [4] و العبارة على لسانه تقول " و كنا كثيرا ما نتدارس ضروب العلم من أدب و خبر وقفه و طب و صنعة وحكمة"[5]

الرابعة : الفكاهة والميل إلى الهزل و أكثر ما بقي له من هذا يشير إلى حدة في الطبع و حرارة في الأجوبة و هجوم على التعريض الكاوي، و الألفاظ المقذعة و هو شيء تبرزه رسالته لا أشعاره، وخصوماته الأدبية كثيرة و هي معرض لهذه الحدة الممزوجة بالتندر إلا أنه كان على إعجابه وحدته محببا إلى نفوس أصدقائه يأنسون بمجلسه و يغترفون من كرمه و يقضون الوقت في داره طاعمين شاربين أو متنزهين في البساتين أو متحدثين في جامع قرطبة. على أنه بعد ذلك

"1"– المقري التلمساني ،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت.د إحسان عباس، (د.ط)، دار صادر بيروت، سنة: 1988م ج2، ص: 807.

"2"– ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب،ج1،ص:78

"3"– ابن شهيد ، الديوان، ص: 66 .

"4"– السيوفي مصطفى محمد، تاريخ الأدب الأندلسي ،(د.ط)، دار البيان للطباعة و النشر، سنة:2003 ،ص: 70.

"5"– الشنتريني ابن بسام، المرجع السابق، ج1/م1 ،ص: 186.

دائم التبرم من الزمان لأنه لم ينصفه و قدم غيره، محقر" لأكثر الملكات الأدبية في بلده، زار على النشاط الثقافي فيه ولعل انصرافه إلى اللذة وتبطله مقترن أولا ببايسه من احوال قرطبة بعد

الفتنة ،ومتصل أيضا بإحساسه الشديد بقربه من الموت ،وقد كان يؤمن بأنه عبقري ،وانه لا يعمر طويلا وقد قال فيه جني " أبي الطيب " " إن امتد به طلق العمر فلا بد أن ينفث بدور و ما أراه إلا يستحضر بين قريحة كالجمر و همة تضع أخصمه على مفرق البدر " و لعل نقمته على الحياة و قلة احتفاله بجد الأمور ازدادتا حينما وجد أنه لا يعيش له أبناء و لا ندري كم رزق منهم و لكنه رثى بنية له ماتت صغيرة بقصيدة منها :

أيها المعتد في أهل النهى *** لا تذب إثر فقيد ولها

و فيها يقول :

و إذا الأسد حمت أغيا لها *** لم يضر الخيس صراعات المها

و غريب يا ابن أقمار العلا *** أن يراع البدر من فقد السها[1]

كما اتسمت نفس "ابن شهيد " بالمرح و الميل إلى الدعابة و إيثار الهزل، على غرار ما ألفه كثير من الشبان في تلك العصور الأندلسية و بخاصة من كان منهم ذا ميل إلى الفن و الجمال و تبعا لذلك كان ابن شهيد من ذوي الأمزجة الحادة و هذه الحدة – في ما يبدو – زادت شخصيته تميزا وأطرافه و من مظاهر هذا المزاج تقلب منازعه و أهوائه و قلة استقراره على الحال و لقد لمس فيه ذلك صديقه " ابن حزم " حين نفي عنه سمة العشاق و المحبين ووصفه بأنه " تزينا باسم الحب وهو ملول فليس منهم و حقه ألا يتجرع مذاقه و يبقي على أهل هذه الصفحة و لا يدخل في جملتهم و لو وصف لي واصف بعض ما عملته منه لما صدقته .. و لقد كان أبو عامر يرى الجارية فلا يصبر عنها و يحيق به من الاغتمام و الهم ما يكاد يأتي عليه حتى يمتلكها و لو حال دون ذلك شوك القتاد فإذا أيقن

"1"– عباس إحسان تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ص 265

بتصبيرها إليه عادت المحبة نفارا وذلك الأنس شرودا ..."

هذا كان دأبه حتى أتلف من عشرات ألوف الدنانير عددا عظيما .. و أما إخوانه فإنه تبدل بهم في عمره على قصره مرارا و كان لا يثبت على زي واحد ... حينا يكون في ملابس الملوك و حينا في ملابس الفتاك...[1] .

كل هذه الصفات جعلت من " ابن شهيد " رجلا شديد الاعتداد بنفسه و طبيعي في مثل حاله أن يمتلكه الاختيال و العجب و تمتلئ نفسه بالعزة و الزهو لقد فتح عينيه على بريق الذهب ووجد العيش رخوا ناعما و أوتي نسبا رفيعا و بيتا عريقا كما حياه الله شبابا غضا و جمالا أخاذا.

ت- أدبه:

لم يكن ابن شهيد واسع الاطلاع غزير العلم و لعل حياته المترفة صرفته عن الدأب و الجد فاكتفى بقراءة ما يغذي ميله و يغني قريحته من آثار الأدباء و بخاصة شعر الأمويين والعباسيين و لهذا كانت موهبته أقوى من ثقافته و ذوقه أكبر من علمه و بديهته أغنى من فكره و لعل طبيعته المرحة جعلته ينصرف عن معالجة الموضوعات القاتمة و لا يجيد في غرض الهجاء على سبيل التخصيص [2']

ت1- شعره:

قد كان ابن شهيد من أكابر كتاب الأندلس و من خيرة النقاد في العصور القديمة و كان شهابا لماعا في طريق التقدم و التجديد.

و أبو عامر من أولئك الذين صفت طبائعهم ورق شعورهم و أوتوا من قوة الخيال و اتساعه[3]

"1"- ابن حزم . طوق الحمامة في الألفة و الآلاف ،تحقيق محمد لطيف عبد المنعم خفاجي إبراهيم هلال ،الطبعة الاولى،المكتبة الحسينية ،سنة: 1395هـ-1975م .ص:73.

"2"- الدقاق عمر . ملامح الشعر الأندلسي، ص: 108.

"3"- الفاخوري حنا . الجامع في تاريخ الأدب الأندلسي، ص: 913-913.

و من غنى القلب و انطلاق القريحة ما جعلهم شعراء يأتيهم الكلام متدفقا و يجري قلمهم بكل عذب رقيق من القول . و لكنه من أولئك الذين غابت عنهم قوة الإبداع فكان شديد التقليد في شعره لأساليب الأقدمين شديد الاعتماد على معانيهم و ألفاظهم شديد التلفت نحو شعراء بني العباس كثير المعارضة للقصائد المشهورة وكان على كل حال شاعر العاطفة الحية التي تنبض في كل بيت وتملوه حياة و حركة و كان شاعر الألوان و الأنغام يرسم بريشته الساحرة على إيقاع ألفاظه و تراكيبه و يرسل الأبيات تلو الأبيات في عذوبة ما بعدها عذوبة و في لغة تجمع الصلابة إلى اللين و الجزالة إلى السهولة و في صياغة محشوة بالزخرفة و التنميق [1]

و قال الدكتور " إحسان عباس " يجد من يقرأ شعر ابن شهيد أنه في حدة غاضبة لا تكاد تهدأ وهو يقر ؟أنه يتعمد استعمال وحشي الكلام غير أنه لا يجعله نابيا في شعره لأنه يحسن و ضعه في مواضعه...لقد بني شعره على الاندفاع و العنف و الغضب ... كان عيبه الكبير هو ميزته الكبرى أعني شعوره بأنه متفوق على كل شاعر و أنه يستطيع أن يساوي المتنبي إن لم يتفوق عليه... ليس هناك من كان يجمع بين الميزتين كابن شهيدأغنى بين التعب الذي يتكلفه في الإحاطة بالمعاني و انتقاء الألفاظ و بين سرعة البديهة و القدرة على الارتجال ... و قد غطى محاكاته وأخذه من غيره أنه يحاول دائما أن يكون مبتكرا مجددا يضيف إلى ما يأخذه أو يبتكر معنى أو صورة جديدة و ربما لم يكن من الغلو أن أميزه بكثرة الصور المبتكرة لا بين شعراء الأندلس فحسب بل بين شعراء المشارقة أيضا... و تتساند الموسيقى الهادرة مع الصور المنظورة في شعره و لكنه إلى الثانية أكثر ميلا فإذا تحدث عن الأصوات كانت مدوية أو مزمجرة أي قوية شديدة ولعل لذلك صلة بثقل سمعه و لذلك أيضا – فيما اعتقده يرتاح إلى المرئيات أكثر...ابن شهيد أقرب الأندلسيين شبها

"1"- المرجع السابق، ص: 914.

بشعراء المشرق الذين ينسجون في عالمهم الحضاري على نماذج الجاهلية و صدر الإسلام ...[1].

يضيف د " إحسان عباس " قائلا " ليس من الأندلسيين الذين درسنا شعرهم حتى عصر ابن شهيد من كان أكثر توقدا في القريحة و أنفد بصرا في نقد الشعر و قد يدانيه ابن حزم و ابن حيان المؤرخ في الحدة الذهنية ثم تفترق السبل بهؤلاء فيذهب كل في طريقه و هو في الشعر خير ثمرة لمدرسة القالي التي جنحت إلى القوة الجزالة البدوية بينما هو في النثر تلميذ نابه للجاحظ و بديع الزمان و قد استطاع أن يفصل بين شعره و نثره فلم يكن كابن دراج الذي بنى القصيدة على طريقته الكتابية [2] . و لم يجمع ابن شهيد الطريقتين إلا في القليل النادر و ذلك في بعض الموضوعات التي استحسنها له معاصروه في النثر كوصف النخلة وصفة البرغوث فإنه عاد يعالج مثل هذه الموضوعات في شعره و هو أقل شعره قيمة [3].

وقد أثرت فيه نظرته النقدية لأنها جعلته على وعي بما يريد أن يصنعه في الشعر كان يعرف التطور الذي أصاب الشعر بعد صريع الغواني و بشار و أبي نواس و كيف أسرف أبو تمام في التجنيس و طاب ذلك فامتثله الناس فكل شعر لا يكون اليوم تجنيسا أو ما يشبه تمجه الآذان ، والتوسط في الأمر أعدل[4]

و هذا قد يدل على الطريقة التي انتهجها في نظرته إلى البديع و أنه سلك في شعره مسلكا متوسطا في هذا الاتجاه بل إن قارئ شعره ليحس أنه يصف مذهبه حين يقول : " و منهم الكارع في البحر الغزارة القادح بشعاع البراعة الذي يمر مر السيل في اندفاعه ، و الشؤبوب في انصبابه

"1"- عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص: 287إلى269.

"2"- المرجع نفسه، ص: 266.

"3"- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.(266)

"4"- الشنتريني ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1/م1 ،ص:203.

لا يشكو الفشل و لا يكل على طول العمل [1].

بل إن ابن شهيد الناقد هو الذي اختار للناس روائع شعره ووضعها في أيديهم ليشهدوا له أو عليه و ذلك في رسالته " التوابع و الزوابع " فبالإضافة إلى ما تحتويه هذه الرسالة من فكاهة و تندر " بابن الإفليلي " و بعض خصوم ابن شهيد في قرطبة و ما تثيره من تخيلات في عالم الجن تعرض محاسن ابن شهيد التي يراها خير ما يقدم من الشعر إزاء شعر المشرق و تكشف هذه الرسالة أيضا عن سر " ابن شهيد " نفسه في مذهبه حين تقف به عند شاعر فشاعر محاولا التفوق على مشاهيرهم ما عدا المتنبي [2].فهو يعارض عمر بن أبي ربيعة في رائيته التي يقول فيها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر *** غداة غد أم رائح فمهجر [3]

فيقول ابن شهيد :

..... *** شجته مغان من سليمه و أدؤر[4]

كما يعارض طرفة في قصيدة له لامية يقول فيها :

لهند بحزان الشريف طلول *** تلوح و أدنى عهدهن محيل [5]

فيقول أبو عامر :

..... *** أمن رسم دار بالعقيق محيل [6]

ويعارض" قيس بن الخطيم " في قصيدته التي يقول فيها :

"1"- المصدر السابق،ص: 204.

"2"- عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص: 267.

"3"- عمر بن أبي ربيعة، الديوان شرح د يوسف شكري فرحات ،ط1 ،دار الجيل لبنان، بيروت، سنة: 1992م ص:64.

"4"- ابن الشهيد الديوان . ت يعقوب زكي ،راجعه د محمود علي مكي، دار الكتاب العربي القاهرة، ص: 107.

"5"- طرفة بن العبد ،الديوان ،د محمد محمود، (د.ط)، دار الفكر اللبناني، بيروت، سنة: 1994 ،ص: 112.

"6"- ابن الشهيد الديوان . المصدر السابق، ص: 140.

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر *** لها نفذ لولا الشعاع أضاءها [1]

فيقول :

منازلهم تبكي إليك عفاءها *** سقتها الثريا بالغري نحائها [2]

ثم يعارض المحدثين مثل " البحتري " و أبي نواس فقد أعجب بقصيدة البحتري أيما إعجاب و التي يقول فيها :

ما على الركب من وقوف الركاب *** في مغاني الصبا و رسم التصابي

أين أهل القباب بالأجرع الفر *** د تولوا لا أين أهل القـباب

سقم دون أعين ذات سقيم *** و عذاب دون الثنايا العــذاب

عرجوا فالدموع إن أبك في الرب *** ع دموعي و الاكتئاب اكتئابي [3]

فعارضها قائلا :

هذه دار زينب و الرباب *** .....

قد تركنا الصبا لكل غوي *** و انسلخنا من كل ذام و عاب

و انقطعنا لواعظات مشيب *** آذنتنا حياتها بذهـاب

و إذا ما الصبا تحمل عنا *** فقبيح ارتضاء التصابـي [4]

كما ولع بقصيدة أبي نواس التي يقول فيها:

و قائلة لي: كيف كنت تريد ؟ *** فقلت لها : ألا أكون حسود

"1"– قيس بن الخطيم، الديوان ،ت د ناصر الدين الأسد، (د.ط)، مطبعة المدني القاهرة، سنة: 1962م ص: 7.
"2"– ابن الشهيد الديوان .ت يعقوب زكي، ص: 82.
"3"– البحتري، الديوان ت بدر الدين الحاضري ،(د.ط)، دار الشرف العربي بيروت، سنة: 1999 ،ص:62
"4"– ابن الشهيد الديوان . المصدر السابق، ص: 85.

لقد عاجلت قلبي جنان بهجرها *** و قد يكفيني بذاك و عيد

لعل جنانا ساءها أن أحبها *** فقل لجنان : ثابت و يزيد [1]

فقد أثرت فيه المقطوعة النواسية على قصرها أيما تأثير بحيث وجد فيها تجاوبا مع ما يمر به من أزمة فصب (خوفه) في بحر طويل فعولن مفاعلين فعولن مفاعيلن.الذي استوعب تجربة أبي نواس و استطاع ابن شهيد من خلاله أن يعبر عن مشاهده التي آلمها هجران محبوبته [2]. و يقول ابن شهيد في قصيدته المعارضة لمقطوعة أبي نواس :

قريب بمحتل الهوان بعيد *** يجود و يشكو حزنه فيجيد

نعى ضره عند الإمام فياله *** عدوا لأبناء الكرم حسود

و ما ضره إلا مزاح و رقة *** ثنته سفيه الذكر و هو رشيد

جنى ما جنى في قبة الماء غيره *** و طوق عنه بالعظيمة حيد [3]

كما يتهيب " ابن شهيد " أن ينشد المتنبي ثم يسمعه عددا من قصائده فقد كان المعنى الواحد من معاني هؤلاء المتقدمين يذهب و يجيء في نفسه و يدهشه أحيانا ثم لا يلبث أن ينشق خاطره عن معنى مولد منه فقد ملك إعجابه – مثلا – قول امرئ القيس :

سموت إليها بعدما نام أهلها *** سمو حباب الماء حالا على حال

و افتتن به و رأى عمر بن أبي ربيعة قد حاوله فقصر عنه حين قال :

و نفضت عني النوم أقبلت مشية ال *** حباب و ركني خيفة القوم أزور(4)

و ظل يتأمل هذا المعنى حتى بدا له من وجوهه ما مكنه أن يقول :

"1"– أبو النواس، الديوان، د علي نجيب عطوي، (د ط)، دار المكتبة الهلال للنشر، سنة: 1986م، ص: 100.

"2"– أحمد الجبل إيمان ، المعارضات في الشعر الأندلسي، ص: 324.

"3"– ابن الشهيد الديوان ، المصدر السابق ،ص: 82.

"4"– عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص :267–268.

و لما تملأ من سكره *** فنام و نامت عيون العسس

دنوت إليه على بعده *** دنو رفيق درى ما التمس

أدب إليه دبيب الكرى *** و أسمو إليه سمو النفس [1]

و ظل معنى أبي الطيب :

أ أخلع المجد عن كتفي و أطلبه *** و اترك الغيث في غمدي و أنتجع

ظل يحيك في نفسه حتى استطاع أن يقول :

و من تحت حضني أبيض ذو سفاسق *** و في الكف منه عساله الخط أسمر

فذا جدول في الغمد تسقى به المنى *** و ذا غصن في الكف يجني فيثمر [2]

و أقلقه بيت " أبي الطيب " :

فأظمأ فلا أيدي إلى الماء حاجة *** و للشمس فوق البعملات لعاب

حتى قال و أعجب بقوله :

إذا الشمس رامت فيه أكل لحومنا *** جرى جشعا فوق الحياد لعابها

و يستشف من رسالته هذه أن المتنبي هو الرمز الكبير الذي كان بأسره و يملك إعجابه ويدفعه إلى المحاكاة و توليد المعاني.

و أكثر شعر " ابن شهيد " بقوله على البديهة و قد عزف فيه أصحابه ذلك فكانوا يعقدون له المجالس ويمتحنونه في القول على البديهة ذلك ما فعله الوزير " ابن عباس " حين قدم قرطبة و مثل ذلك أيضا قام به جماعة من أصحابه حين طلبوا إليه أن يصف مجلسا رديء الهيئة فيه باب غريب معرض و قد خلعوا نعالهم على إحدى حواشيه فقال بديعة مطلعها :

"1"- المرجع السابق ، ص :267- 268.

"2"- الشنتريني ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1/م1 ،ص:177.

و فتية كالنجوم حسنا *** كلهم شاعر نبيل

و منها في صفة المجلس :

في مجلس شابه التصابي *** و طاردت وصفه العقول

كأنما بابه أسير *** قد عرضت وسطه نصول

كأن أخفافنا عليه *** مراكب مالها دليل

و أكثر شغفه – في شعره – بالصور السابحة المعتلية على مستوى الأرض المقترنة بالجو أو بالنجوم أو بالطيور أو بظهور الخيل و هو يتصور نفسه على ارتفاع، و مرد هذا كله إلى شعوره بالاستعلاء بالنسبة لمن حوله و إلى خوفه من الموت حتى أنه حين تصور قدوم الموت تمنى قائلا :

تمنيت أني ساكن في غيابة *** بأعلى مهب الريح في رأس شاهق

و تشيع هذه الصور السابحة المعتلية في شعره فتنقله عن الأرض و تبعده عن القبر، و عن الناس، و هذا الطيران هو الذي طاف به على ديار الجن " و سار كالطائر يجتاب الجو فالجو " و من ثم تحجبه صور النجوم في حيرتها أو تعلقها و صورة الليل.

تراه كملك الزنج في فرط كبره *** إذا رام مشيا في تبختره أبطا

مطلا على الآفاق و البدر تاجه *** و قد علق الجوزاء في أذنه قرطا

فإذا ترك هذه الصورة، بقيت الموسيقى العامة في شعره تصور التحدر و الاندفاع مستعينا على ذلك ببعض الجناس [1] كقوله

قضت النوى بذياد رجح عينهم *** ظلما و كان الدهر من أعوانها

زجروا اغترابا من نعيب غرابهم *** و قضوا ببين من معرد بانها

" 1"– ينظر عباس إحسان ، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص: 268 إلى 273.

و يصبح شغفه بالجناس أحيانا ضربا من التكلف خارجا عن حد الإعتدال. و مع ذلك فإن وراء هذا الثوب من الصنعة روحا بدوية، تجعل ابن شهيد أقرب الأندلسيين شبها بشعراء المشرق الذين ينسجون في عالمهم الحضاري على نماذج الجاهلية و صدر الإسلام [1].

و فنون شعره المديح و الرثاء و الوصف البار لمظاهر الطبيعة و للآثار العلوية خاصة " الجو و السماء " و هو مغرم باستخراج الصور الغريبة المبتكرة و له نسيب و غزل و إخوانيات و خمريات و مجونيات .

و من قول ابن شهيد في الغزل و هو ينظر إلى معاني نفر من الشعراء المشارقة :

أصباح شيم أم برق بدا *** و سنى المحبوب أورى أزندا

هب من مرقده منكسرا *** مسبلا لكم مرخ للردا

يمسح النعسة من عيني رشا *** صائد في كل يوم أسدا

وردته لطفا آياته *** صفوة العيش و أرعته ددا

فهو من ذل عراه زبدة *** من صريح لم يخالط زبدا

قلت " هب لي يا حبيبي قبلة *** تشق من عمك تبريح الصدا "

فانثني يهتز من منكبه *** مائلا لطفا و أعطاني اليدا

كلما كلمني قبلته *** فهو إما قال قولا رددا

شربت أعطافه ماء الصبا *** و سقاه الحسن حتى عربدا [2]

"1"- ينظر عباس إحسان ،المرجع السابق ،ص:273-274.

"2" فروخ عمر، تاريخ الأدب العربي ،الأدب في المغرب و الأندلس إلى آخر عصر ملوك الطوائف، (د.ط)، دار العلم للملايين بيروت، ج 4 ،ص: 456-457.

ومن نسيبه البارع :

و لما تملأ من سكره *** ونام و نامت عيون العسس

دنوت إليه على بعده *** دنو رفيق درى ما الشمس

أدب إليه دبيب الكرى *** و أسمو إليه سمو النفس

أقبل منه بياض الطلى *** و أرشف منه سواد اللعس

فبت به ليلتي ناعما *** إلى أن تبسم ثغر الغلس [1]

و تتسم هذه الأبيات بالسهولة و الرقة فهي عذبة تتسربل بغنائية محببة يزينها هذا القص المفعم بالحركة بفضل توالي الأفعال مثل : تملأ. ونام ودنوت و أدب و أسمو و أقبل و أرشف ... و الصور سائغة بالرغم أنها مألوفة في الشعر لوقوعها في سياقها و مناسبتها لموضوعها. كتشبيه سعيه الرقيق إلى الحبيب بدبيب الكرى و صعوده إليه بسمو النفس ... ربما أكسب الأبيات مزيدا من الجمال بحرها المتقارب بإيقاعه الواضح المنتظم الذي يوحي بالحركة فضلا عن التوازن بين شطري البيت الرابع و ما انطوى عليه من المقابلة بين بياض الطلى و سواد اللعس.

و غزل ابن شهيد – كما هو جلي – ينطوي على المجون و الهزل من غير وحش و لا سخف خلافا لما رماه به بعض الجامدين من الخصوم وعلى رأسهم " ابن حيان " بل إن من شعر ابن شهيد في غزلياته العذبة ما ينم على فرط حساسية و رهافة مزاج ورقة طبع [2]

وذلك في مثل قوله :

ما أطربت فوق الغصون حمامة *** إلا رأيت دموع عيني تسكب

و إذا الرياح تناوحت ألفيتني *** بين الصبابة و الأسى أتقلب

"1"– المرجع السابق ،ص: 257 .

"2"– الدقاق عمر ، ملامح الشعر الأندلسي، ص: 109–110.

يا عاذلي في الحب مهلا بالأذى *** لو كنت تعشق ما ظلت تؤنب [1]

و بحق ما يقول المستشرق " شارل بلا " من أن " ابن شهيد و هو ذو نفس حساسة و ذكاء حاد لا يرى في الشعر لهوا باطلا بل ضرورة نفسية تسمح له بالفرار من جو يتكبد فيه المكارة و البلايا"[2] . إنه يعبر عن منازعه و منازع كل إنسان بأمانة و أصالة و صدق.

و قال " ابن شهيد " بمدح " يحي المعتلي بالله بن حمود " و يصف في أثناء ذلك شعره و نفسه و يشكوا الناس و الأيام :

و ما في إلا الشعر أثبته الهوى *** فسار به في العالمين فريد

أفوه به – لم آته متعرضا *** لحسن المعاني – تارة فأزيد

فإن طال ذكري بالمجون فإنني *** شقي بمظلوم الكلام سعيد

و هل كنت في العشاق أول عاشق *** هوت بحجاه أعين و خدود

فراق و سجن و اشتياق و ذلة *** و جبار حفاظ علي عنيد

فمن مبلغ الفتيان أني بعدهم *** مقيم بدار الظالمين وحيد [3]

أطاعت أمير المؤمنين كتائب *** تصرف في الأموال كيف تريد

إلى المعتلي عاليت همي طالبا *** لكرته إن الكريم يعود

همام أراه جوده سبل العلى *** و علمه الإحسان كيف يسود ! [4]

و قد عابه (ابن شهيد) معاصروه بشيئين : الإنتحال و التطويل، و كان هذان الإثنان بالمعنى الذي يفهمه ابن شهيد من مصادر تفوقه [5] .

"1"– ابن شهيد الأندلسي، الديوان، القصيدة رقم: 6 ، ص :88.

"2"– شارل بلا، ابن الشهيد الأندلسي حياته و آثاره، ص :122.

"3"– ابن شهيد الأندلسي ،الديوان، القصيدة رقم: 18 ،ص: 99.

"4"– المصدر نفسه،ص:99.

"5"– عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة ،ص: 274.

وبعد فشعر ابن شهيد في عمومه شعر رشيق، يجنحه خيال واسع، بيد أن التفكير فيه ضعيف لأن صاحبه كان هازلا لاهيا ينقصه الجد و الرصانة، و أسلوبه سلس العبارة جذاب لما فيه من الدعابة و الرقة في موضوعات اللهو. و أكثر لهوه مقبول خال من الفحش و الهجر [1]

ت2- نثره:

أما نثره فممتاز في موضوعاته و أساليبه و معانيه ؛فلقد كتب موضوعات شائقة طريفة، نادرة في النثر العربي ككتاباته القصصية الخيالية التي يصفها أدباء العرب بالكتابة الهزلية،فقالوا عنه :

" إنه في تنسيق الهزل و النادرة الحارة أقدر منه على غير ذلك ". و يبدو من هذه الموضوعات أنه ولع بقراءة القصص و اطلع على ما كتبه أهل المشرق في ذلك، و جارى بعضهم في أساليبه، كما في رسالته " التوابع و الزوابع " و كرسالته في الحلواء و غيرها مما كتبه على ألسنة الحيوان.

وهذه الرسائل و إن لم تكن بدعة في نوعها، أو فريدة في أسلوبها، تدل على ميل خاص للكتابة القصصية، و براعة في التصرف في المعاني و أساليب التعبير و سعة الخيال و اطلاع واسع على كتب الأدب و آراء الأدباء، و ما كان معروفا لديهم في النقد الأدبي،على الرغم مما قالوه عنه من أنه كان لا يقرأ كثيرا و رسالته " التوابع و الزوابع " أطول رسائل ابن شهيد و هي شبيهة برسالة الغفران لأبي العلاء المعري [2].

كما يفيض نثره بروح الفكاهة و هذا ما يقر به " الجاحظ "،فنراه في رسالة " التوابع و الزوابع " يقبل إلى بركة في وادي الجن فيرى حولها طائفة من الحمر والبغال. فتتقدم بغلة عليها الجل و البرقع فتنشده شعرا و تقول له " أما تعرفني أبا عامر ؟ " فيقول " لو كانت ثم علامة " فأماطت لثامها فإذا هي بغلة " أبي عيسى " و الخال على خد□ها،فتباكيا طويلا و أخذا في ذكر أيامهما.

"1"- الفاخوري حنا ، تاريخ الأدب العربي، ص: 832.

"2"- خفاجي محمد عبد المنعم ، الأدب الأندلسي التطور و التجديد، ص: 613.

و كلام "ابن شهيد" مسّجع في غير إطراد فيه كثير من العبارات الغامضة الخفية المعنى، و الإشارات و التلميحات المحتاجة إلى شرح و إيضاح [1].

و هو في النثر لا ينفصل عن الشعر في مذهبه، فقد ذكر له : (رسائل نافعة الجد كثيرة الهزل،و تصانيف غريبة بديعة،منها كتاب " كشف الدك و إيضاح الشك " و كتاب " حانوت عطّار " في البلاغة و النقد الأدبي.وعلى الجملة فرسائله كثيرة في فنون الفكاهة و أنواع التعريض و الأهزال. نذكر منها : رسالة في " وصف الحلواء " رسالة في " وصف الجارية " رسالة عن " النار والحطب"..وفي رسائله قال" إبن حيان" "قصار طوال،برز فيها شأوه ،و أبقاها في الناس خالدة بعده،و كان في سرعة البديهة، وحضور الجواب و حّدته،مع رقة حواشي كلامه، وسهولة ألفاظه، و براعة أوصافه، و نزاهة شمائله و خلائقه ،آية من آيات الله خالقه) [2].

و لرسائل "ابن شهيد" قيمة كبرى سواء أكان ذلك من الناحية العلمية أم من الناحية الأدبية فهي تطلعنا على نفس الرجل،وسعة مداركه، وعمق تفكيره،وهي صفحات تنير حياته و توضح لنا معالمها،و تفسر لنا كثيرا من غوامضها [3].

و إذا نظرت إليها من الناحية الأدبية و النقدية وجدت أنها مرحلة جليلة من مراحل النظر و التحليل، " فإبن شهيد "محدود الثقافة،قليل المطالعة و لكنه بعيد مدى التفكير والانكفاء على الذات؛ فهو من طبعه فيلسوف نفساني ينطلق في عالم الوجود الأدبي،و يتغلغل إلى طوايا النفس البشرية ليرى الصلة بين النفس و الجسم،وبينهما وبين الأدب،وإذا به يرى و يعلن أن " البيان " لا يقوم بغنى الألفاظ و معرفة النحو فحسب، بل يقوم أيضا بقوى الطبيعة التي هي مزيج من تركيب أعضاء وصلة بالنفس [4].

"1"- الفاخوري حنا ، تاريخ الأدب العربي، ص: 832.

"2"- البستاني فؤاد أفرام ، رسالة التوابع و الزوابع، ط الأولى،دار الشرق المطبعة الكاثوليكية بيروتن لبنان سنة: 1962م، ص: 91.

"3"- الفاخوري حنا ، تاريخ الأدب العربي، ص: 911.

"4"- ينظر البستاني بطرس،رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي ،(د-ط) ،دار صادر ،بيروت سنة:1980،ص:78 ،80 .

فيقول:"فإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب و استيفاء مسائل النحو بل بالطّبع مع وزنه من هذين،ومقدار طبع الإنسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه."فمن كانت نفسه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا يطلع صوّر المعاني في أجمل هيئاتها، و من كان جسمه مستوليا على نفسه من أصل تركيبه كان ما يطلع من الصور ناقصا عن الدرجة الأولى في التمام و الكمال،ولتركيب الأعضاء كما يقتضي علم الفراسة تأثير في صلاح الآلة الروحانية وفسادها؛ ففساد الآلات الظاهرة في الجسم يعين على فساد الآلة القابلة الروحانية، والخادمة لآلات الفهم،منها : فرطحة الرأس و تسفيطه، و نتوء القمحدودة،والتواء الشدق،و خزر العين، وغلط الأنف،و انزواء الأرنية " [1].

و قد قال الثعالبي في نثره " فنثره في غاية الملاحة و شعره في غاية الفصاحة " [2].

– أسلوب " ابن شهيد ":

أما أسلوبه،فتغلب عليه سلاسة العبارة ليس به الكثير الكثير من الغموض و الخفاء ؛

يجذب القارئ بأخيلته و معانيه المستظرفة و لامتزاج هذه المعاني بنفس الشاعر كان يعبر بلا تكلف. هذا إلى سهولة الموضوعات،وما تقتضيه من رقة و دعابة،لأنها موضوعات لهو.وأكثر لهوه ظريف مقبول لا تكاد تجد فيه فحشا أو بغضا [3].

كما يغلب الأسلوب القصصي على النتاج الأدبي لابن شهيد في الكتابة الأدبية مما يجعله نادر المثال،وربما انفرد في نوع كتابته، فنجده في مختلف رسائله و فصوله محدثا يسوق الخبر والنادرة، و يحسن السرد و الأداء، ويعنى بالتحليلات النفسية و تصوير الأخلاق و الأشكال

"1"– المصدر السابق ص 78–80.

"2"– مبارك زكي : النثر الفني في القرن الرابع هجري (د.ط) دار الجيل بيروت (د.س) ص324.

"3"– خفاجي محمد عبد المنعم الأدب الأندلسي التطور و التجديد ص 613.

مما يدل على ميله إلى الأسلوب القصصي و ابتكاره الفني. [1]

و تراه يلتزم السجع أحيانا، ويؤثر المجاز على الحقيقة فتكثر عنده الاستعارات و التشابيه و الكنايات،وجملته رشيقة العبارة محكمة التركيب،فيها جزالة و إيجاز،على غير خشونة وإخلال، يمدها بآيات القرآن الكريم و الحديث الشريف،وأقوال العرب و أمثالهم و يستعين عليها بمأثورات أخبارهم و أحاديثهم فتستكين إليه الرواسم الجاهزة و العناصر المستعارة .

فهو من النفر الذين إذا كتبوا ارتاحت إليهم ملكة البلاغة، و تشققت لهم أكمام البيان .[2]

و إذا ما نظرنا إلى نتاجه من الناحيتين الأدبية والنقدية و جدنا أنه يمثل مرحلة من مراحل النظر والتحليل..ويمثل بعده الفكري والإنكفاء على الذات،فهو بطبعه فيلسوف نفساني ينطلق في عالم الوجود الأدبي،ومعه نلحظ هذه(الثنائية الكامنة في فلسفته و هي ثنائية تتفق مع العقائد الإسلامية من مثل النقيضتين:الدنيا والآخرة،ولكن إبن شهيد يصل بين طرفي فلسفته في حدة نافذة تكاد تشبه حدة المانوية،والثنائية دائما تقود إلى اليأس و التشاؤم و لعل في بأس ابن شهيد إرهاصا لما يأتي بعده من عقيدة أبي علاء المعري.وقد لاحظ هيكل في عام 1946م ما في أدب ابن شهيد من تشاؤم،ومن الملاحظ أن تشاؤم ابن شهيد أعم و أشمل من تشاؤم المعري إلا أنه يصل من حين إلى حين إلى درجة أعلى من التركيز و التحديد)[3] .

و قومية الاتجاه تجعل من ابن شهيد صاحب نظرية التجديد الدائم في الأدب فعلى الرغم من الولاء العربي،والتمكن من الأدب المشرقي و محاكاته و معارضته،ومجاراة لموقف الأسرة الأموية في الأندلس لمواجهة العباسيين في المشرق،نراهم يحاولون أن يتجافوا النماذج المشرقية بل و يفاضلوا بينها و بين المغربية و من ثم ظهرت نظرية التجديد الدائم في الأدب العربي [4].

"1"- السيوفي محمد مصطفى ، تاريخ الأدب الأندلسي، ص: 88.

"2"- المرجع نفسه،ص:88 .

"3"- ابن شهيد ، الديوان ت ، يعقوب زكي،ص: 70.

"4"- السيوفي محمد مصطفى ،تاريخ الأدب الأندلسي، ص:89

و أول من دعا إلى ذلك ابن شهيد فهو يقول (و كما أن لكل مقام مقالا كذلك لكل عصر بيان و لكل دهر كلام و لكل طائفة من الأمم المتابعة نوع من الخطابة و ضرب من البلاغة لا يوافقها غيره و لا تهش لسواه... وكما أن للدنيا دولا كذلك للكلام صورا متنقلة و رسوما متغايرة ألا ترى كيف أن الزمان لما دار أحال بعض الرسم الأول في هذا الفن إلى طريقة عبد الحميد و ابن المقفع و سهل بن هارون و غيرهم من أهل البيان [1].

و على ذلك قامت دعائم نظرية التجديد و التفرد للشخصية الأدبية الأندلسية في نظره.

ت3 – آراؤه في الأدب و النقد :

و لابن شهيد آراء مختلفة في الأدب و النقد ينثرها هنا و هناك و من تلك الآراء :

1)– أن الشعر ليس باللفظ وحده و لكنه باللفظ و المعنى الكريم و الشاعر. الشاعر هو من يقتحم و ينطلق بالفصل و يطلب الأشياء النادرة و السائرة و ينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته متصرفا في كل غرض و في كل فن تصرف من يحسن التلون و يعرف أساليب الكلام ووجوه المعاني فعلى الناقد إذن ألا يخدعه ظاهر كلام الشاعر و لا تغره الديباجة اللماعة و الألفاظ المنمقة بل ينظر في نقده إلى الظاهر و الباطن فيجعل لكل شيء ميزانا و يقيم لكل ناحية قسطاسا من غير ما اضطراب و لا غرور [2].

و قد أدلى ابن شهيد برأيه في موضوع اللفظ و المعنى من خلال نصائح وجهها إلى الأديب الذي يريد أن يأتي بما يذيع اسمه و ينشر ذكره و هو ينصح بالبحث عن اللفظ الرائق و المعنى الرفيع بحيث يحصل من اجتماعهما البيان و يحذر من تزويق اللفظ و بهرجته بما يذهب بأصالته ونصاعته فكم من شعر فضي البشرة رصاصي المكسر !فإذا اجتمع لدى الأديب المعنى الكريم ف__

"1"– الشنتريني ابن بسام، الذخيرة، ج1/م1 ،ص: 203.

"2"– الفاخوري حنا ، تاريخ الأدب العربي، ص: 911–912.

اللفظ الكريم إلى شيء من البديع مع توشيه بنادرة أو حكمة فقد حازما يريد و إنما يستحق اسم

صناعة بتقحم بحور البيان و تعمد كرائم المعاني و الكلام [1] .

2) – و من آراء " ابن شهيد أن للحروف أنسابا و قرابات تبدو في تركيب الألفاظ فإذا جاور القريب قريبه تم الائتلاف و حسنت صور الكلام و ليس من العجب في نظره أن يعمد الكاتب أو الشاعر إلى ألفاظ غريبة أو غير مأنوسة و إنما العيب كل العيب في أن يستعملها في غير محلها أو في أن تكون متنافرة الحروف أو غير مؤتلفة فيما بينها أو غير دالة دلالة واضحة على المعنى الذي جعلت في خدمته.

3) – كما يرى أن البلاغة قائمة في مراعاة مقتضى الحال و أنه لا بد للكاتب من تفهم نفسيات من يوجه إليهم كلامه إذا شاء التأثير و رمى إلى السيطرة الأدبية و إلا كان كلامه هباء و أقواله بعيدة عن العقول و القلوب.

4) – و يرى أن أسلوب الكتابة يختلف باختلاف العصور و الشعوب و قد قال في ذلك " لكل عصر بيان و لكل دهر كلام و لكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة و ضرب من البلاغة لا يوافقها غيره و لا تهش لسواه... وكما أن للدنيا دولا فكذلك للكلام نقل و تغاير في العادة " [2].

5) – و في رسالة " التوابع و الزوابع " إشارة لطيفة إلى رأي ابن شهيد في البيان و هو يعتقد أن البيان نفخة سماوية لا صلة بينها و بين معرفة النحو و التصريف فليس يكفي أن يختلف الإنسان إلى الأستاذة يتلقى عنهم و ليس يعني أن براجع الكتب و الدواوين و إنما يجب أن تكون هناك فطرة سمحة و طبيعة سخية يصدر عنها النثر الجيد و الشعر البليغ [3].

"1"– رضوان الداية محمد، دراسات أندلسية تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ط2 ،مؤسسة الرسالة، دمشق سنة (1401هـ–1981م) ،صن 304.

"2"– الفاخوري حنا ، تاريخ الأدب العربي، ص: 912.

"3"– مبارك زكي ، النثر الفني في القرن الرابع هجري، (د.ط)، دار الجيل بيروت ،(د.س)، ص:330.

و قد عرض ابن شهيد في نقده لنحاة قرطبة الذين قادهم الغرور إلى اصطناع البيان و التعرض لأهله فكواهم بلاذع كلامه و شبههم بالقرود اليمانية التي ترقص على الإيقاع و لا تدرك من أسرار الفن شيئا [1].

وذكر ابن شهيد ثلاثة من خصومه بكناهم " أبو محمد " و " أبو بكر " و لعله الأديب الملقب بأكشمياط و " أبو القاسم الإفليلي " و ناقش شيطان " ابن الإفليلي " أنف الناقة فعاج ثانية على الموضوع ثقافة الأديب و رجع منزلة الموهبة من شروط الإبداع الفني ورد على " أنف الناقة " قوله إنه " أبو البيان " و إنه تلقى ذلك عن المؤدبين (قال : لقد علمنيه المؤدبون " قلت " ليس هو من شأنهم إنما هو من تعليم الله تعالى حيث قال : 25 الرحمن (1) علم القرآن (2) خلق الإنسان (3) علمه البيان (4)) [2]

و استبعد ما يسمى بالصدق من اعتبار الجودة و الحسن أو القبح في الأثر الفني فالمهم هو جمال الأثر الفني و قدرة الأديب على حسن الصياغة و التعبير عن الفكرة المقصودة و مقياس الجودة أن (تتناول الوضيع فترفعه و الرفيع فتضعه و القبيح فتحسنه) [3]

و قد عرض ابن شهيد كذلك للجاحظ فرأى كتابه في البيان بعيدا عن أن يكون طريقا سهلا إلى البلاغة و رأى أن الجاحظ أغبن الناس لنفسه لأنه ؟ و هو واحد البلاغة في عصره لم يلتمس شرف المنزلة " شرف الصنعة "(فلا يخلو في هذا إما أن يكون مقصرا عن الكتابة و جمع أدواتها أو يكون ساقط الهمة أو يكون إفراط جحوظ عينيك قعد به عنها) [4]

"1"- الفاخوري حنا ، تاريخ الأدب العربي، ص: 913.

"2"- سورة الرحمن، الآيات: (1 - 4) .

"3"- رضوان الداية محمد ، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص: 302-303.

"4" الفاخوري حنا ، تاريخ الأدب العربي، ص: 913.

و هو يرى في النثر العربي ثلاث مدارس : مدرسة عبد الحميد و ابن المقفع ومدرسة إبراهيم ابن عباس و محمد ابن الزيات و مدرسة بديع الزمان الهمذاني و هو يرى أن لتطور النثر صلة وثيقة بتطور المدينة.

ثم إنه يقسم أهل صناعة الكلام إلى ثلاث طبقات فمنهم القريبو المرامي الذين يجيدون التأليف و لا يحسنون الغوص في الأعماق فيكونون لزمن من الأزمان حتى إذا تبدلت الأحوال و اتسعت الآفاق تلاشوا كالدخان و اضمحلوا اضمحلالا و منهم الكارحون في بحر الغزارة المندفعون اندفاع السيل لأولئك الذين تزدحم لديهم المعاني ازدحاما فلا يشكون فشلا و لا تخطئ لهم سهام و لا يكون لهم على الدهر أفول أو ذبول ؟ ومنهم أخيرا المتجافون عن الكلام الذين يألفون الصمت و الذين إذا منوا بالقول جاروا أبلغ الناس و مشوا في أرباب الصناعة و من خرج عن هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان و لا يدخل في أهل صناعة الكلام [1]

6) – و لابن شهيد رأي في " البديهة " و البديهة لون من الألوان الشعرية التي تتداخل مع المعارضات في بعض عناصرها – و لقد نبه " ابن رشيق" إلى الحد الفاصل بين مصطلحي " البديهة " و " الارتجال " مشيرا إلى غفلة بعض الأدباء عن هذا الأمر مبينا أن في البديهة تفكرا و تأنيا دون إطالة في حين يتصف الارتجال بالتدفق و الانهمار دون توقف [2]. كما يرى " ابن طافر " " أن الارتجال هو أن ينظم الشاعر ما ينظم في أوحى من خطف البارق و اختطاف السارق و أسرع من إلتماح العاشق و نفوذ السهم المارق حتى يخال ما يعمل محفوظا أو مرئيا ملحوظا من غير حاجة إلى كتابة و لا تعلل بتقفية "[3] .

"1"– الفاخوري حنا ، تاريخ الأدب العربي، ص: 912–913.

"2"– أحمد الجبل إيمان، المعارضات في الشعر الأندلسي، ص: 589–590.

"3"– علي بن ظافر الأزدي ، بدائع البدائه، ت محمد أبو الفضل ابراهيم، مكتبة الأنجلوالمصرية، سنة: 1970 ، ص: 8.

و هو على تطلبه (ابن شهيد) حسن اللفظ و جمال المعنى، يعجب بالبديهة و يعتبرها ميزة، و يرتاد ساحتها و لعله لا ينزل،فيما يحظر من البديهة من شرائط الإجادة عن رأيه في المروى [1] .

و نقل " الحميدي " في ترجمة " عبد الرحمن بن أبي الفهد الأشجعي "بإسناده قال : " أخبرني أبو عامر بن عبد الملك الشهيدي أن عمل بحضرته أربعين بيتا على البديهة إلى – عبادة – ليس فيها حرق يعجم أولها :

* حلمك ما حدا حده أحد *[2]

وأثنى"ابن شهيد"على الخليفة المستظهر قال : و كان يتهم في أشعاره و رسائله حتى كتب أمان يعلي " ابن أبي زيد " حين وفد عليه ارتجالا فيعجب أهل التمييز منه [3].

و دعي مرة لإجازة شطر قاله الوزير " ابن عباس " بمحضر من عليه الشعراء و الأدباء في وقته [4].

و الإجازة إرهاص من إرهاصات فن المعارضات و فيها إجازة بيت ببيت. يقول شاعر بيتا و يطلب من آخر أن يجيزه ببيت آخر و يتبادلان ذلك حتى ينتهي القول ثم تكون للثاني جائزة عليه [5].يكمل مع بعض الشيء الذي يرجّح اشتهاره بهذا الفن؛مقدرة عليه و إعجابا به (ونقل " المقري " في " النفح " أن " عبد الله " بينما كان الشاعر تناول نرجسه فركبها في وردة ثم قال لصاعد " البغدادي " و " لأبي عامر بن شهيد " صفاها فأفحما و لم يتجه لهما القول فبينما هم على ذلك إذا دخل " الزهيري " صاحب أبي " العلاء و تلميذه " و كان شاعرا و أديبا أميا لا يقرأ

"1"– رضوان الداية محمد ، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص: 305.

"2"– المصدر نفسه، ص: 25.

"3"– الحميدي جذوة المقتبس، ت محمد بن تاويت الطنجي، (د.ط) ،القاهرة، سنة: 1952م، ص: 259.

"4"– رضوان الداية محمد ، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص: 305.

"5"– أحمد الجبل إيمان، المعارضات في الشعر الأندلسي، ص: 594.

فلما استقر به المجلس أخبر بما هو فيه فجعل يضحك ...)[1].

7) – أما عن السرقات الأدبية فإذا كان ابن عبد ربه يرى الأخذ سائغا إذا أحسن المرء ذلك فإن رأى ابن شهيد لا يبتعد عن ذلك فالأخذ عنده درجات فمن الشعراء من يأخذ و يزيد فهو محسن و منهم من يقصر فهو مسيء و روى طرفا من حديث جرئ بينه و بين الجن مما تعاورته الشعراء من المعاني و من أحسن ومن قصر و وضع أسس للأخذ و أجرى ذلك على لسان شيخ من الجن يعلم ابنه صناعة الشعر [2] . (إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسن تركيبه و أرق حاشيته فاضرب عنه جملة و إن لم يكن بد ففي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن لتنشط وطبيعتك و تقوى متنك)[3].

و ساق مثالا تطبيقيا فقد روى أن أحد الجن استملح بيت " امرئ القيس "

سموت إليها بعد ما نام أهلها *** سمو حباب الماء حالا على حال

واستصعب محاكاته فشاركه ابن شهيد الإعجاب و مثل ببيت " عمر بن أبي ربيعة " على الإخفاق في المحاكاة و هو قوله:

و نفضت عني النوم أقبلت مشية الـ *** حباب و ركبني خيفة القوم أزور

و جعل محاكاته هو لمعنى بيت " امرئ القيس " مقياسا جديا لحسن الأخذ و الإبداع فوقه و هي أبياته :

و لما تملأ من سكره *** فنام و نامت عيون العسس

دنوت إليه على بعده *** دنو رفيق درى ما التمس

أدب إليه دبيب الكرى *** و أسمو إليه سمو النفس [1]

"1"– المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت إحسان عباس ،(د.ط)، دار صادر بيروت، سنة: 1988م، ج4 ، ص: 86.

"2"– رضوان الداية محمد ، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص: 303.

"3"– الشنتريني ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1/م1 ،ص: 244.

أدب إليه دبيب الكرى *** و أسمو إليه سمو النفس [1]

وهو أي ابن شهيد يدافع عن جزء هام من طريقته فهو مولع بمساماة الفحول و الجري على حلبتهم و الأخذ عنده على المقاييس التي ارتضاها أمر مسلم به مندوب له [2] .

و هكذا يمضي ابن شهيد في نقده و أدبه محاولا أن يخط طرقا جديدة و أن يحلل و بعلل و لكن- و الرأي لحنا الفاخوري – نتائجه أوسع نطاقا من مقدماته و تحليلاته لا تخلو من أخطاء ونقداته لا تخلو من غلو و كتابته صافية الأسلوب خيالية المنهج يكثر فيها المجاز و الاستعارة و هي رشيقة العبارة محكمة التركيب لا تخلو من التسجيع و الصناعة و " ابن شهيد " ميال إلى الأسلوب القصصي ميال إلى النقد الجريء الحافل بالهزء الجارح ميال إلى التوكؤ على الغير في إنشائه إلا أن ذلك التوكؤ لا يخلو من شخصية بارزة المعالم واضحة الخطوط و ابن شهيد كثير الوصف وصفه دقيق يتتبع فيه الموصوف و يبرزه حيا زاهي الألوان رائع الصورة [3]

فهذا هو إذن ابن شهيد الناقد الذي ساعدته سخريته و شاعريته و حدة ذكائه و ذوقه فوضع بعض المصطلحات و الملاحظات النقدية و أدرك تطور الشعر العربي و الكتابة الفنية في مدارسها المشرقية و أصدائها الأندلسية إلى عهده و سوغ الأخذ بحدود رسمها و ضرب لها الأمثال و أبدى إعجابه بمعارضة المتقدمين و رأى في ذلك قدرة و براعة و أعجب بالبديهة و فضلها على التروي و التزوير و مارس ذلك عمليا و حاول أن يفهم البيان و يضع للمبين صفات و قواعد و رسم له نماذج.

"1"- الشنتريني ابن بسام ،الذخيرة، ج1/م1 ص: 244-245.

"2"- رضوان الداية محمد ، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص: 303.

"3"- الفاخوري حنا ، تاريخ الأدب العربي،ص: 913.

ث – خصومه و حساده :

بلغ ابن شهيد في زمانه منزلة أدبية شعره و نثره رفعت قدره في قصور الأمراء على أقدار أقرانه،فأوت إليه جماعة المعجبين به تلف لفة و تشيد بذكره،فناله ما ينال الأدباء من الزهد و الإعتداد بالنفس،فتتكر له جماعة من أبناء طبقته و أهل حرفته،و حسدوه على نعمة من خفيض العيش يتقلب فيها،فراحوا يسعون لدى الملوك،و يتنقّصون شعره و أدبه و أخلاقه،حتى حبسه " ابن حمود " و أعرض عنه المستعين. فراح يذود عن شعره و ينافح عنه،و يزري على حاسديه.و يذكر في رسالته " التوابع و الزوابع " ثلاثة أشخاص لا يملون من الطعن عليه و هم " أبو محمد " و " أبو القاسم " و "أبو بكر ".

"فأبو محمد " انتصب عليه لسانه عند المستعين،و اتهم شعره و شك فيه،و لا يعلم من الأدباء من يكنى بهذا الاسم و له صلة به غير " أبي محمد بن حزم " و كان صديقه و ليس في أخبارهما ما يدل على تخاصمهما في بعض الأوقات،و إنما كان بينهما مكاتبات و مداعبات،– على ما أنبأنا به ابن خلكان – [1]. و من معاصريه القاضي " أبو المهدي " و قتله البربر يوم استيلاء " المستعين " على قرطبة سنة أربعمائة للهجرة بحسب رواية " الذخيرة "، غير أن " نفح الطيب " يجعل مقتله في سنة "403هـ 1013م" فيكون قد أدرك خلافة المستعين الأولى، و هو رجل ذو حظ من الشعر و الأدب و لكن لم تعرف له علاقة صداقة أو خصومة " بأبي عامر بن شهيد " فالأولى أن يكون المقصود " أبا محمد بن حزم " لسلاطة لسانه، و قد تحدث أمثال هذه الهنات بين الأدباء و إن كانوا أصدقاء[1].

"1"– البستاني بطرس، رسالة التوابع و الزوابع، لابن شهيد الأندلسي، ص: 28–29.

كما يردد كثيرا " ابن شهيد " في صراحة و وضوح على كراهيته الشديدة لأدعياء العلم و المتعالمين في قرطبة على عهده.و في فقرة لاذعة غنية بتلك الصور الخيالية المتفردة يكشف الحجب عن دقائق أحوالهم التي ربما خفيت على الكثيرين،و يفطن إليها ذكاء " ابن شهيد ".فيقول: " و قوم من المعلمين بقرطبتها ممن أتى على أجزاء من النحو،و حفظ كلمات من اللغة بجنون على أكباد غليظة ... كقلوب البعران،و يرجعون إلى فطن حمئة،وأذهان صدئة،لا منفذ لها من شعاع الرقة،ولا مدبّ لها من أنوار البيان سقطت إليهم كتب في البديع و النقد فهمو منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الإيقاع و الرمز على الألحان ، فهم يعرفون غرائبها فيما يجري عندهم من تصريف من لم يرزق آلة الفهم فهذه حال العصابة من المعلمين يدركون بالطبيعة و يقصرون بالآلة و تقصيرهم بالآلة هو عن طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة للروحانية،و الخادمة لآلات الفهم " [1].

و تمضي الأيام و" ابن شهيد" لا يزال في مناقضات و مما حكات بينه و بين معاصريه من الأدباء و الشعراء ، فتصدى له من الشعراء خصمه و صديقه (ابن الحناط الأعمى) الذي كان مغرى بالكيد له و جرت بينه و بين " ابن شهيد " مناقضات في عدة رسائل و قصائد، و من رسائله التي أنحى فيها على طريقة "ابن شهيد" في النظم و النثر: (الإسهاب كلفة،والإيجاز حكمة و خواطر الألباب سهام، يصاب بها أغراض الكلام، و أخونا أبو عامر يسهب نثرا و يطيل نظما، شامخا بأنفه، ثانيا من عطفه، متخيلا أنه قد أحرز السباق في الآداب و أوتي فصل الخطاب، فهو يستقصر أساتيذ الأدباء، و يستجهل شيوخ العلماء) [2].

"1"- السيوفي محمد مصطفى، تاريخ الأدب الأندلسي، ص: 80-81.

"2"- عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص: 253-254.

لكننا نجد ابن الحناط يمدح ابن شهيد في قصيدة فيما بعد فيقول :

أما الفراق فلي في يومه فرق *** و قد أرقت له لو ينفع الأرق

عاق العقيق عن السلوان واتضحت *** في توضيح لي من نهج الهوى طرق

بل إن ابن الحناط لما نعي إليه أبو عامر بكى و رثاه بديهة بقوله :

لما نعى الناعي أبا عامر *** أيقنت أني لست بالصابر

أودى فتى الظرف و ترب الندى *** و سيد الأول و الآخر

كما هاجم ابن شهيد في رسائله ("ابن فتح" و أبا عبد الله الفرضي) الذي كاد له أيام (المستظهر 414 هـ) إضافة إلى "ابن عباس" وزير زهير الفتى الصقلي صاحب المرية. لكن السبب الحقيقي في تنافر "ابن شهيد" و "ابن عباس" كان يتم دون حاجة إلى تدخل الآخرين ودسائسهم فقد كان كل منهما معجبا بنفسه و بقدرته الأدبية ثم إن "ابن شهيد" هجا "ابن عباس" هجاء مقذعا حينما ورد مرة على قرطبة.

هؤلاء هم غالبية الشعراء الذين كان "ابن شهيد" على خصومة معهم. لكن هذا لا يعني على الإطلاق أن شاعرنا لم يتمكن من إنشاء علاقات إخوانية طيبة مع غيره في قرطبة [1]. فقد كان " أبوالمغيرة بن حزم " من أقرب أصدقائه إليه ، حتى كانا كما قال الفتح : (لا ينفصلان في رواح ولا مقيل،ولا يفترقان كمالك وعقيل،فكانا في قرطبة رافعي ألوية الصبوة وعامري أندية السلوة)[2].

"1"- المرجع السابق ، ص:256

"2"- ابن خاقان الفتح ، مطمع الأنفس و مدح التأنس ، تحقيق محمد علي الشوابكة، ص:22 .

كما اكتسب ود العديد من رجال العلم و الأدب بقرطبة في طليعتهم الفقيه الشاعر "ابن الحزم " و كانت سناهما متقاربتين فانعقدت بينهما صداقة راسخة امتدت إلى آخر العمر، و كان من ثمارها جملة من الرسائل و الأشعار و المجاوبات الإخوانية .

فعندما اشتد المرض على ابن شهيد افتقد في وحشيته صفيه "ابن حزم"، فكتب إليه يبلغه شوقه وحنينه و يذكره بعهود الإخاء و المودة، و يطلب إليه أن يؤنبه و يشيع ذكره، و يدعو له الله أن يغفر له ذنبه و راح يقول بنبرة شجية :

و لما رأيت العيش ولى برأسه *** و أيقنت أن الموت لا شك لاحقي

تمنيت أني ساكن في غيابة *** بأعلى مهب الريح في رأس شاهق

فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي *** يدا في مسلماتي و عند مضايقي

عليك سلام الله إني مفارق *** و حسبك زادا من حبيب مفارق

فلا تنس تأبيني إذا ما فقدتني *** و تذكار أيامي و فضل خلائقي

و إني لأرجو لله فيما تقدمت *** ذنوبي به مما درى من حقائقي

فأجابه ابن حزم بعبارات تنم على فيض من مشاعر الإخلاص و الود :

أبا عامر ناديت خلا مصافيا *** يفديك من دهم الخطوب الطوارق

و آلمت قلبا مخلصا لك ممحضا *** بود□ك موصول العرى و العلائق [1]

و قد تمنى له في سائر أبياته الفرج بعد الشدة و أبان له صدق حبه ووفائه .

"1"– ابن شهيد الأندلسي، الديوان القصيدة رقم: 17 ص 98.

ج – علته ووفاته :

بدأ مرض ابن شهيد في مستهل ذي القعدة سنة 425هـ ولازمه حتى قضى نحبه، و معنى هذا أنه ظل مريضا سبعة أشهر كاملة، قاسى فيها العذاب الشديد، و يقول "ابن بسام" إن الفالج غلب عليه،و لكنه لم يقضي على حركته تماما فكان يمشي إلى حاجته على عصا مرة،و اعتمادا على إنسان مرة،و في العشرين بوما الأخيرة صار حجرا لا يبرح و لا يتقلب،و لا يحتمل أن يتحرك لعظيم الأوجاع،أما " الحميدي " فيقول نقلا عن " ابن حزم " إن علته في ضيق التنفس و النفخ، ويبدو أنهما اجتمعا معا،و أن إصابته بالعلة الثانية ترجع إلى ما قبل إصابته بالفالج،و أن هذا المرض أي الفالج هو الذي استمر سبعة أشهر،ولما بلغت منه مبلغا شديدا هم بقتل نفسه،ثم آثر الرضا بقضاء الله،و في ذلك يقول :

أنوح على نفسي و أندب نبلها *** إذا أنا في الضراء أزمعت قتلها

رضيت قضاء الله في كل حالة *** علي و أحكاما تيقنت عدلها [1].

و لم تكن هذه الأوجاع وحدها التي يقاسي " ابن شهيد " مرارتها فقد انضم إليها مرض الجفون و اللثغة في المنطق، الذان زاداه مرارة الألم. و قد قال فيها :

مرض الجفون و لثغة في المنطق *** سيان جراء عشق من لم يعشق

من لي بألثغ لا يزال حديثه *** يذكي على الأكباد جمرة محرق

ينبي فينبو في الكلام لسانه *** فكأنه من خمر عينيه سقي

لا ينعش الألفاظ من عثراتها *** و لو أنها كتبت له في مهرق[2]

و على ما أصاب جسمه من وهن و تعب بقي ذهنه متفتحا،و قريحته متوقدة،و إن الشعر الذي

"1"– عباس احسان، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص: 260.

"2"– البستاني بطرس، رسالة التوابع و الزوابع لابن شهيد الأندلسي، ص: 35.

صدر عنه في فترة المرض و إن صدر عن نفس يائسة متألمة، ليدل على حيوية شعرية غير عادية.

و ليخفف عنه مرارة الألم و قسوته،راح يأنس بالعواد فيطارحهم الشعر،و يتسلى عن حالته بإثارة الذكريات،أو بإملاء الرسائل إلى أصدقائه من أمراء و وزراء و أدباء و منهم: " أبو محمد بن حزم " الشهير فقد بعث إليه بأبيات – سلف ذكرها غاية في خلوص العاطفة منها: [1].

فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي *** يدا في مسلماتي و عند مضايقي

عليك سلام الله إني مفارق *** و حسبك زادا من حبيب مفارق

فلا تنس تأبيني إذا ما فقدتني *** و تذكار أيامي و فضل خلائقي[2].

كما كتب إلى صديق له اسمه "عمرو" يقول :

إقر السلام على الأصحاب أجمعهم *** و خص عمرا بأزكى نور تسليم

و قل له يا أعز الناس كلهم *** شخصا علي و أولاهم بتكريم

الله جارك من ذي منعة ظفرت *** منه الليالي بعلق غير مذموم

و كتب إلى جماعة من إخوانه يقول :

هذا كتابي و كف الموت تزعجني *** عن الحياة و في قلبي لكم ذكر

إن أقضكم حقكم من قلة عمري *** إني إلى الله لا حق و لا عمر

و في كل أشعاره تلمح أسى على فراق أصدقائه،و موقفه منهم موقف المو□دع الذي يعرف أن نهايته اقتربت على انه لا يشير في الظاهر إلى خوفه من الموت و لكنه يتجلد في الغالب. و آخر ما قاله مودعا لأصدقائه:

"1"– البستاني فؤاد أفرام، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 334–335.

"2"– ابن شهيد الأندلسي، الديوان القصيدة رقم: 17، ص: 98.

أستودع الله إخواني و عشرتهم *** و كل خرق إلى العلياء سباق

وفتية كنجوم القذف نيرهم *** يهدي وصائبهم يودي بإحراق

و قد أوصى قبل وفاته بهذه الوصايا :

1- أن يصلي عليه الرجل الصالح (أبو عمر الحصار)، فيتغيب إذ دعي، و صّلى عليه جهور بن جهور أبو الحزم صاحب قرطبة حينئذ.

2- أن يسنّ التراب عليه، تراب دون لبن أو خشب، فلم ينفّذ هذا أيضا.

3- أن يدفن بجانب صديقه " أبو الوليد الزجالي " في بستان له كان وقّفه حديقة للجمهور [1] .

4- أن ينقش على رخامة فوق قبره ما يلي :

باسم الله الرحمن الرحيم

(قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون)[2].

هذا قبر "أحمد بن عبد الملك بن شهيد " المذنب، مات و هو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أن محمدا عبده و رسوله، و أن الجنة حق، و أن النار حق و أن البعث حق، و أن الساعةآتية لا ريب فيها، و أن الله يبعث ما في القبور، مات في شهر كذا من عام كذا. (و يذكر الشهر و السنة).

و يكتب تحت النثر هذا النظم :

يا صاحبي قم فقد أطلنا *** أنحن طول المدى هجود !

فقال لي لن نقوم منها *** ما دام من فوقنا الصعيد

تذكر كم ليلة لهونا *** في ظلها و الزمان عيد !

"1"- عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة،ص: 261-262.

"2"- سورة ص، الآيات: (67-68).

و كم سرور همى علينا *** سحابة ثرة تجود !

كل كأن لم يكن تقضى *** و شؤمه حاضر عتيد !

حصّله كاتب حفيظ *** و ضمه صادق شهيد

يا رب عفوا فأنت مولى *** قصر في أمرك العبيد ![1]

و كان أبو عامر بن شهيد يخشى صعوبة الموت و شدة السّوق، فأخذ يدعو الله. عز وجل، و يشهد شهادة التوحيد، و يرغب إلى الله أن يرفق به، و يكثر من ذكره، و قد أيقن بزوال الدنيا، إلى أن ذهبت نفسه – رحمه الله – يوم الجمعة آخر يوم من (جمادى الأولى سنة ست و عشرين و أربعمائة –11 نيسان 1035م). و لم يشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء و العويل. و أقام الصلاة عليه: " أبو الحزم بن جهور ". و رثاه عدة شعراء منهم (أبو الأصبغ القرشي و أبو جعفر بن برد الأصغر) و انقرضت به أسرة بني شهيد [2].

خ– آثـاره :

لم يتوفر " ابن شهيد على الشعر كما توفر على النثر، فكان له في الشعر قصائد مدحية، و وصفية و غزلية، حفظها من دونوا تاريخ الأدب الأندلسي، أمثال الأستاذ " شارل بلا " الذي جمع ديوان "أبي عامر " الشعري، و طبعه سنة 1963م. و ديوان " ابن شهيد " الأندلسي جمع و تحقيق و دراسة للدكتور (يعقوب زكي)، و المطبوع بالقاهرة سنة 1967م .

أما آثاره النثرية فرسائل تناول فيها أغراضا شتى منها : رسالة في الحلواء؛ حيث ذهب مذهب الهمذاني في مقامته المضيرية، و رسالته في وصف البرد و النار و الحطب، و رسالته

"1"– البستاني فؤاد أفرام، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 337.

"2"– المرجع نفسه، ص: 336.

المدعوة "حانوت عطار"، و أشهر رسائله على الإطلاق رسالته المسماة "بالتوابع و الزوابع" و هي شبيهة برسالة الغفران لأبي العلاء المعري. [1]

وخلاصة القول أن حياة الأديب " إبن شهيد " كانت حافلة بالأجداث التي صقلت موهبته الفنية ، وأسهمت في كثرة إنتاجه الأدبي ، وأبرزت لنا الوجود الفني القصصي في بواكيره الأولى ، بما تضمّنته رسالته " التوابع والزوابع " من عناصر فنية ناضجة في موضوعها وبنائها الفني ، وهدا الذي سنحاول معالجته في الفصل الموالي .

"1"– الفاخوري حنا، تاريخ الأدب العربي، ص: 831.

<<رسالة ابن شهيد (دراسة في الشكل و المضمون) >

1- طبيعة الرسالة و شكلها الأدبي .
2- تاريخْ تأليفها و أقسامها.
3- مصادر الرسالة .
4- السبب و الغاية من تدوين التوابع و الزوابع .
5- موقف ابن شهيد في هذه الرّسالة .
6- الهيكل الوظيفي للرسالة .
7- أسلوب الرّسالة .
8 - قضايا نقدية في ثنايا رسالة التوابع و الزوابع
9- مضمون الرسالة

1-* طبيعة الرسالة و شكلها الأدبي :

شهدت الأندلس نهضة واسعة في أدبها من شعرٍ و نثر إبّان عصر ملوك الطوائف ، و كأنما انقسامها إلى وحداتٍ صغيرة أهلّها لنشاطٍ أدبي واسع ، إذ أصبح لكلِ وِحدة صغيرة حاكم مستقل ، سعى بسبب ما بينه و بين الحكّام الآخرين من تنافس إلى تشجيع الحركة العلمية و الأدبية في وطنه و مقر حكمه و ملكه ، وقد أفرز هذا المخاض الأدبي عن ظهور فن النثر القصصي، مجسّدًا في << رسالة التوابع و الزوابع>> لابن شهيد القرطبي .

و نحن في هذا المقام سنحاول إبراز معالم هذه القصة، و شكلها الأدبي، و كذا دوافع تأليفها.

<<أما التوابع و الزوابع فاسم رسالة نفيسة لواحدة من الآثار التراثية العربية القيمة ، لم يبق منها إلاّ شذرات في كتاب مخطوط هو الذّخيرة ، ألّفها أبو عامر بن شهيد الأندلسي ، و معنى ذلك أن الرِّسالة لم تصل إلينا كاملة ، بدليل قول << ابن بسام الشنتريني >> الذي أثبت ما وَصَل إلينا منها في العنوان الذي وضعه لها : << فصول من رسالة سمّاها التوابع و الزوابع >>[1]، و كان يحذف أشياء من الرِّسالة مثل رسالته في صفة البرد و النار و الحطب ، كما نجد عنوانا يسميه < فصل > مما يدلّ على الإختيار ، كما أنه يأتي بأشياء في الرسالة من خارجها ؟ كالحديث الذي نقله عن < ابن حيان > عن <<الإفليلي>> و التعريف به و بعمله ،و قوله : << فلذلك وقفت دون الغاية و قطعت قبل النهاية >> ، و ذلك بعد إجازة تابعي < الجاحظ> و < عبد الحميد > له.

و كل المصادر التي جاءت بعد<< ابن بسام >> نقلت عنه مقتطفات من هذه الرِّسالة ، و من هؤلاء: "زكي مبارك" في عمله:" النثر الفني في القرن الرّابع" ، و"أحمد هيكل" في كتابه": الأدب

(1) الشنتريني إبن بسام، الذخيرة، ج1/م1/،ص: 245.

الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة" ،و"محمد رضوان الدّاية " في كتابه" النقد الأدبي في الأندلس" ، و" مصطفى الشكعة" في كتابه" الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه" ، و لم يتحدّث أي واحدٍ منهم عن أي مصدرّ لنا ما وصلنا من هذه الرّسالة عدَا ماجاء في كتاب الذّخيرة".[1]

و لم نجِدْ لها صدًى يُذكر في كتب القدماء، وأوّل من وجّه الأنظار إليها هو الأستاذ المرحوم <<محمد المهدي>> في محاضراته بالجامعة المصرية سنة 1915، ثم عاد الدكتور" أحمد ضيف" فتحّدث عنها في سنة 1922م.[2] ومن رأي الدكتور" ضيف" أن " التوابع و الزوابع" محاكاة لرسالة الغفران، وأن " إبن شهيد" كان يقلد " أبا العلاء" لأنه أدرك عصره، ولأنه شهرة: أبي العلاء" كانت ذائعة في المشرق و المغرب، و كان أهل الأندلس يقلّدون أهل المشرق في كل شيء.[3]

وأقوى حِجة عند الدكتور"ضيف" أن عصر ابن شهيد يتزامن مع عصْرِ "أبي العلاء" ، فقد عاش من سنة:382هـ إلى سنة 426هـ ، وعاش المعرّي من سنة 363هـ إلى سنة 449هـ.[1]

ورسالة " التوابع و الزوابع" قصة خيالية جعل: ابن شهيد" مسرحها في وادي الجن من دنيانا هذه، وجعل دليله في ذلك الوادي جنيا اسمه" زهير بن نمير من بني أشجع الجن.[2] وضعها "ابن شهيد" للردِّ على خصومه وحسّاده ومنتقديه، ولإظهار براعته و عُلوِّ مقامه في دولة الكتابة و القريض.[3] وفي هذه الرّسالة يستعرض " ابن شهيد" عددًا من المشكلات البيانية والأدبية مع نفرٍ

"1"– محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي ،(د.ط) ، منشورات جامعة بسها ، ليبيا ، طبع بإشراف دار النهضة العربية، بيروت، عمان، بنغازي، روما، برونواي، (د.س) ، ص: 253–254.

"2"– مبارك زكي، النثر الفني في القرن الرّبع هجري، ص:318.

"3"– ضيف أحمد، بلاغة العرب في الأندلس، (د.ط) مطبعة مصر ،سنة(1342–1924م) ،ص:48.

"4"– المرجع السابق، ص: 48.

"5"– فروخ عمر، تاريخ الأدب العربي، ص:253.

"6"– الفاخوري حنا ، الجامع في تاريخ.

من الجن الذين يتبدّون في صوّرٍ مختلفة (في صوّر البغال و الحمير و الإوز...إلخ) في أسلوبٍ قصصي مرح يميل مرّةً ذات الهزل و مرّة ذات الجِدْ.... فهذه الرّسالة كما سلف الذِكر تذكّرنا بقصة" أبي العلاء المعَّري" رسالة الغفران– غير أن رسالة الغفران أشهر–

ويرى "زكي مبارك" أن رسالة <التوابع و الزوابع> وُضعت بعد سنة403هـ–1012م بقليل، وقبل أن كتب المعّري رسالته بعشرين سنة أو تزيد. و جهّها إلى " أبي بكر بن حزم".[1]

وقال:" الحميدي"إن " أبا عامر" سّمى عمله هذا شجرة الفكاهة،[2] واختار الشاعر لفظة شجرة لأن الشجرة تحوي أغصانًا كثيرة متفرعة بعضها عنِ بعضٍ و في جميع الجهاتّ، و عمله هو الآخر يحوي شخصيات متنوعة، و مواقف متباينة وأماكن متعددة في أرض الجن، و إضافة لفظة<شجرة> إلى <الفكاهة> سببه أن الرِّسالة تحْوي عددًا من المواقف التي يندِّرُ فيها أبو عامر من خصوصه من توابع الشعراء و الكتاب، و كذلك تندّره بالإوزة و سخريته من توابع بعض معاصريه الذين شبههم بالحمير و البغال.[3]

فقد تخيل أنّه صَاحَبَ جنيًا اسمه زهير بن نمير فطار به إلى عالم الأرواح ، إلى أرضِ التوابع و الزوابع ، حيث اتّصل بصاحب "امرئ القيس" ، وصاحب"طرفة"، وصاحب "أبي تمام"، وغيرهم من الشعراء، ثم صاحب " عبد الحميد الكاتب "، و "صاحب الجاحظ"، وغيرهما من أرباب النثر، فيُساجلُهُمْ جميعًا، ويعرض عليهم بضاعته ، و يأخذ الإجازة منهم، ويُدافعُ عن نفسه ،و يخرج من ذلك الميدان شاعرًا و خطيبا من أكابر الشعراء والخطباء. ثم يحضر مجلسا من مجالس الأدب يدور بين الجن

(1) فرخ عمر، تاريخ الأدب العربي ،ص:254.
(2) الحميدي، جذوة المقتبس، ص: 374.
(3) محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص: 254.

حول السرقات الشعرية، ثم ينتقل مع تابعه إلى حيوان الجن، وإذا به أمام أوزّة تدّعي العلم و تحاول أن تناظره في النحو و الغريب، فيرميها بقوا رص الكلام، و يرمي من ورائها كل من سَار على منهجها، وأضاع العمر في السخافة و الحمق.[1]

هكذا جعل" ابن شهيد" رسالته رِسالةً أدبٍ وعلمٍ، صناعة فن، ونقدٍ ومناظرة، فجعلها آية من آيات منظومه منثوره. [2]

وقد عُرِف عن "أبي عامر" أن له رسائل في فنون الفكاهة و أنواع التعريض و الأهزال، وَصَلنا بعضها ، وفُقِدَ بعضها الآخر.

وسّماها كذلك <قصصَا> حين قال يُحدِّث أبا بكر الذي وجّه إليه الرسالة هو يتحدّث عن الصُّحبة بينه و بين زهير بن نمير تابعه الجني:< وجَرَت قصص و لولاَ أن يطول الكتاب لذكرتُ أكثرها، لكني ذاكرٌ بعضها>

و نجد القص يبدأ من المدخل الذي افتتح به أبو عامر رسالته و يبين كيف عجز عن تكلّمه بيت شِعْرٍ فخرج له الجنِّي وأكمله له، كما أن حديثه عن التوابع< توابع الكتاب و الشعراء> نحى به منحنى القص.

و سُميت كذلك " رسالة" و لا ندري هَلْ هُوَ أبوعامر نفسه، أم الذين نقلوا عنه سمّوها كذلك أمثال ابن بسام والحميدي ومن جاء بعدهما.

و الرسّالة نوعٌ من الخطاب من متكلم إلى مخاطب يتميز بحسن التأنق في عباراتها، و هذه الرسالة التوابع و الزوابع أظهر فيها " أبو عامر" مهاراته الفنية و قدراته التعبيرية لتوصيل أفكاره و آرائه

(1) الفاخوري حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص:910.
(2) المرجع نفسه، ص: 910.

إلى غيره واكتسبت هوية باقي الفنون و حملت بذلك في بنائها ألوانا من فِصاح الخطب،[1] وعلى الرّغم من انتماء هذا العمل للأدب النثري المكتوب فإنه يحمل في طياته الإبلاغ الشفوي الذي كان يدُل على الرسالة في العصر الجاهلي ،ويظهر ذلك من خلال الإستعمال المتكرّر لأفعال الإنشاء و السماع(أنشدني، أنشدته، استنشدني، أسمعني.....) ، ومع أن إستعمال هذه الأفعال جاوره إستعمال فعل القراءة(اقرأ، قرأت، قرأ) الذي ارتبط بقراءة النصوص مكتوبةً لاسيما الرِّسائل الوصفية التي أوردها في النص، فإن الشفاهية تظل مهيمنة عليه حتى فعل القراءة نفسه برغم ارتباطه بالمكتوب يقود إلى تلاوة شفوية.[2]

وتعدُّ رسالة التوابع و الزوابع شكلاً أدبيا متميزا تولّد من إدماج عدّة أجناسٍ أدبية فيها الشعر و النثر و المقامات و قصص الحيوان.[3]

وبهذا العمل الفني الفريد من نوعه، استطاع صاحبه أن يحرز قصب السبق على غيره من الأدباء في بيئته الأندلسية على المجال الضيقْ، و مجاراته للأدب المشرقي و تجاوزه على النطاق الواسع.

---

(1) محمد سعيد محمد ، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 254-255.

(2) الرويبي ألفت كمال، تشكل النوع القصصي ، قراءة في رسالة التوابع و الزوابع، مجلة فصول،م13/العدد3/سنة1993، ص:197.

(3) محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي،ص:255.

2* تاريخ تأليفها أقسامها :

ينتج من النقد الدّاخلي < للتوابع و الزوابع > أنّ" ابن شهيد " ألّفها في شبابه ، و يُستخلص من بعض الإشارات التاريخية أنه كان ذلك بعيد السنة 414هـ – 1023م، وإذا فقد تقدّمت ببعض سنوات رسالة " الغفران " التي كان يمليها أبو العلاء قي غضون السنة 424 هـ – 1033م. [1]

و قد أورد الدكتور "علي بن محمد " أن " زكي مبارك " و"شارل بلا "يذهبان إلى أنّ ابن شهيد قد ألّف رسالته بين سنتي 401هـ و 407 هـ ، بينما لم ينته أبو العلاء من إملاء رسالة الغفران إلاّ سنة 424 هـ . [2]

و بذلك تكون رسالة التوابع قد تقدّمت رسالة الغفران بعشرة سنوات على الأقل أو تزيد .

و لم تصلنا نُسخة كاملة مستقلة من < التوابع و الزوابع > ، و لا نعرفها حتى اليوم ، إلا بما نقله منها "ابن بسام " في < الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة > . و هو النص الذي حققه و ضبطه ، و شرحه و قَدَّمَ له الأستاذ " بطرس البستاني " ، و نشره في بيروت سنة 1951م . و قد قسّم الرِّسالة إلى مَدْخلٍ و أربعة فصول ، تناول المدخل التعريف بتابع " ابن شهيد " و هو " زهير بن نمير " . و أفرد الفصل الأوّل لتوابع الشعراء ، و الفصل الثاني لتوابع الكتاب ، و تناول الفصل الثالث نقاد الجن و آراءهم في شعرهم و شعر الإنس . أمّا الفصل الرّابع فموضوعه على حيوان الجن من حمير و بِغالٍ خاصة ، و فيه ذكر الأوزة الأدبية ،و هي نهاية ما وصل إلينا من الرّسالة . و قد عنّ لنا الآن أن نعرِض توابع كل من هؤلاء الشعراء و الخطباء و النقاد .

---

(1) البستاني فؤاد أفرام ، رسالة التوابع و الزوابع ، ص : 343.

(2) بن محمد علي ، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس ، الطبعة 1 ، بيروت ، دار العرب الإسلامي ، سنة 1990، ج 1 ، ص: 561.

1- توابع الشعراء:

* شيطان امرىء القيس : و هو عتيبة بن نوفل.

* شيطان طرفة : عنترة بن العجلان .

* شيطان قيس بن الخطيم : أبو الخطّار .

* صاحب أبي تمام : عتّاب بن حبناء .

* صاحب البحتري : أبو الطّبع .

* صاحب أبي نواس : أبو الإحسان .

* صاحب أبي الطيب : حارثة بن المغلس .[1]

2- توابع الكتاب :

* صاحب الجاحظ : و هو عتبة بن أرقم ، و كنيته أبو عَيَيْنة .

* صاحب عبد الحميد : أبو هبيرة . و قد قرأ عيه " ابن شهيد " رسالته في صفة البرد و النّار و الحطب فاستحسنها ، كما قرأ عليه رسالته في الحلواء .

* صاحب الإفليلي : ابن معمر ، و قد وصف له البرغوث و الثعلب .

* صاحب بديع الزمان : و هو زبدة الحقب ، و قد وصف له الجارية .

3- *من مجالس الجن*/ في نقد الشعر

4- حيوان الجن ، من شعر الحمير و البغال ، و الأوزّة الأدبية . [2]

---

(1) - البستاني فؤاد أفرام ، رسالة التوابع و الزوابع ، ص: 343 .

(2) المرجع السابق ، ص: 343-344.

3* مصادر الرِّسالة:

يحقق لقد أوحت وعبدّت الطريق أمام ابن شهيد لغوض غمار رحلته الخيالية، و تدونيه < التوابع و الزوابع> : عدة أمورٍ نذكر منها قضية:

1- الإلهام :

تعدُّ قضية شياطين الشعراء علامة بارزة ظهرت عند عددٍ من شعراء العربية وادّعى هؤلاء أن الشياطين تلهمهم الشعر[1]، فيخرج على ألسنتهم، وادّعوا بأن لكلِّ شاعرٍ شيطانًا يلهمه، وعددّوا بعض شياطين الشعراء؛ فشيطان " امرئ القيس" " لافظ لاحظ" ، وشيطان" عبيد بن الأبرص " "هبيد" و شيطان النابغة: " هَادِرْ بن مادر" ، إلى غير ذلك.

وقد أراد " أبو عامر" أن يوظّف هذه القضية التي أثيرت في كتب التُّراث و شغلت عددًا من الأدباء و النقاد على مرّ العصور في الدِّفاع عن نفسه أمام خصومه اللذين يتهمونه بالتقصير،و توسّع في هذه القضية حيث جعل لطوائف الشعراء و الكتّاب و اللغويين و النحاة شياطين يحاورهم ينال منهم في آخر المطاف الإجازة و يحقق الإنتصار في القضية التي يطرحها [2]، وذلك مثل قول " جرير":

رأيت رُقى الشياطين لا تستفزّه وقد كان شيطاني من الجن راقيا

وقول "حسان بن ثابت" :

ولي صاحبٌ من بني الشيصبان فحينا أقول و حينا هو

---

(1) ينظر تفاصيل هذا الموضوع، المعطاني عبد الله سالم:<قضية شياطين الشعراء وأثرها في النقد العربي ، مجلة فصول ، ع1،2، أغسطس، سنة1991.

(2) محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص: 261،262.

وقول"الأغشى":

وما كنت ذا قولٍ و لكن حبني إذا مسحل يبري لي القول أُطلق

خليلان فيما بيننا من مودّة شريكان جني وأُنس موقف

وقول " أبي النجم":

إني وكل شاعرٍ من البشر شيطانه أنثى و شيطاني ذكر [1]

2- قصص الحيوان :

انتشرت في قرطبة الحركة الثقافية في القرن الهجري الرّابع بفضل جهود الرّاحلين إلى الأندلس و على الأخص القالي الذي أدخل معه دواوين شعراء جاهليين و إسلاميين و عباسيين، و ديوان المفضليات ،و ديوان أشعار هذيل ، و أشعار الستة الجاهليين و غيرها من المؤلفات التي ذكرها ابن خليل الاشبيلي ، < و لم تكن مؤلفات الجاحظ و"ابن المقفع" و غيرهما غائبة عن الساحة الأدبية ، و حين شبّ " أبو عامر بن شهيد "

عن الطوق وجد ثقافة زاخرة و حركة أدبية مزدهرة تعمُّ ربوع قرطبة فنهل منها و تلمذ عليها ، و يبدوا أن كتاب الحيوان و البيان و التبيين ضمن الكتب التي قرأها و تأثر بها في رسالة " التوابع و الزوابع " ، كما أن كتاب " كليلة و دمنة " له حضوره في هذه الرسالة ، و أفاد منه في فصل " حيوان الجن " ، و كذلك أفاد في هذا الفصل من دواوين بعض شعراء العربية ؛ أمثال النابغة و الأعشى و أمية

---

(1) المرجع السابق، ص: 262.

بن أبي صلت و غيرهم . فلجأ إلى الرّمز و الكتابة على لسان الحيوان و هو ينقد بعض معاصريه من الأدباء الذين تقلّد بعضهم مناصب سياسية في الدولة ، و قد لجأ إلى ذلك خوفا من أن يُسْجن مرّة أخرى >>. [1]

3- المقامات :

كانت الحياة الثقافية و الأدبية في المشرق أيام " بديع الزمان " (ت : 398هـ) خلال القرن الهجري الرّابع مزدهرة غزيرة النتاج . أما في الأندلس و في قرطبة عاصمة الخلافة فكان النصف الثاني من القرن الهجري الرّابع من الفترات الخصبة في تاريخ الحضارة العربية بصفة عامة و الحياة الأدبية على وجه الخصوص ، و بلغت أوْجا

تجاوز المشرق في الخصب و النتاج ، يقول المستعرب غرسية غومس << كان حشدٌ من الثقافة يعتمل و يختمر في قرطبة في ظلال جيوش الخلفاء المظفرّة ، و أسنّتها المشرعة التي لا تغلب ، و كان الكتب يَنْشَؤُون ،و العلماء يُحاضِرون إلى جوار عمد المسجد الجامع وانصرف الأغنياء إلى التنافس في جمع الكتب ، و غنّت القيان و نظم الشعر ،وعكف العلماء على تصنيف طلائع مجموعات النظم و النثر>> [2].

و كان من ضمن ما قرأه " أبو عامر بن شهيد " مقامات " بديع الزمان الهمذاني " التي كانت فيما يبدو قدْ وصلت بسرعة إلى الأندلس فاطّلع عليها و تأثر بها.

---

(1) محمد سعيد محمد ، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص، 262 – 263 .

(2) غومس غرسية ، الشعر الأندلسي بحث في تطوّره و خصائصه ، تحقيق د. حسين مؤنس ، الطبعة 2 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة 1956م، ص:47 .

و المقامة لون من الحكاية ظهر على يد " بديع الزمان الهمذاني " في القرن الرّابع ، وتقوم على اللّغة المسجوعة المصنوعة الموشاة بغريب اللّفظ ، و يُراعى فيها غالبا أن تكون على لسان راوية ، و يكون لها بطل ثابت يقوم بمغامراته القائمة على التكدّي و الحيلة و البراعة. و كان هدف " البديع " من إنشائها تعليم الناشئة غريب اللغة عن طريق هذه القصص ،[1] المسجوعة ، أضف إلى ذلك أنها تصور مجتمع " بديع الزمان " الذي ظهر فيه التكدّي و التسوّل نتيجة للظروف الإجتماعية و الإقتصادية و السياسية التي مرّ بها المجتمع في القرن الهجري الرّابع . و هي تصور كذلك الحالة البائسة التي يعيشها الأديب والتهميش الذي يعاني منه ، وتظهر فيها صورة الصراع المتحدِم بين السيف و القلم الذي غالبا ما يكون فيه القلم هو المهزوم .

و قد كانت مقامات " بديع الزمان الهمذاني" ت(398هـ) ، ثم مقامات الحريري (ت 515هـ أو 516هـ) فيما بعد ، من أرقى أشكال المقامة التي عرفت في تاريخ الأدب العربي .

و قد أعجب " أبو عامر بن شهيد " بمقامات " بديع الزمان الهمذاني " و تأثر بها فأوحت إليه المقامة الإبليسية. بكتابة رسالة التوابع و الزوابع [2] ، و المقامة الإبليسية –كما سلف الذكر –هي التي رواها " عيسى بن هشام " راوية مقامات (بديع الزمان) في أنه إبِلَهُ ضاعت فخرج يبحث عنها ، فإذا هو بواد شديد الإخضرار ذي أنهار جارية ... فوجد هناك شيخا أقرأه السلام، ثم تناشدا شعرًا [3].

فهذه المقامة هي التي أوحت إلى " أبي عامر " بتأليف رسالته؛ إذ يتفق مطلعها و مطلع المقامة

---

(1) ضيف شوقي ، المقامة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف للنشر و التوزيع ، (دس) ، ص: 30.
(2) المرجع السابق ، ص: 30 .
(3) . بو ملحم علي ، مقامات بديع الزمان الهمذاني ، من ص : 142 إلى ص 152 .

الأبليسية. فبينما ابن شهيد يوما يرثي حبيبا له مات ارتج عليه القول فظهر له فارس أكمل له الأبيات ، و هذا الفارس هو زهير بن نمير من أشجع الجن رغب في صداقة " أبي عامر" ، و قبل أن يودعه قال له : متى شئت استحضاري أنشد هذه الأبيات [1]:

و إلى زهير الحب يا عز أنه إذا ذكرته الذاكرات أتاها

إذا جرتِ الأفواه يوما بذكره يخيل لي أني أقبل فاها

فأغشي ديار الذاكرين وإن نأت أجارع من دياري هوى بهواها [2]

ثم غاب عنه، و هكذا متى ارتج على "ابن شهيد" القول كان يذكر الأبيات فيتمثل إليه صديقه فيدرك بقريحته ما يطلب و يسير إلى ما يرغب .

و لم يقف تأثر " ابن شهيد " عند هذه المقامة بل تعدّاها إلى مقامات أخرى " لبديع الزمان " مثل المقامة البشرية ، و المقامة الحمدانية ، و فيها وصف جميل للفرس يقابله وصف الإوزة في التوابع و الزوابع ، و المقامة الجاحظية ، و فيها وصف لبلاغة الجاحظ و "ابن المقفع " يقابله وصف لبلاغة "الجاحظ" و " عبد الحميد " عند " ابن شهيد ".

و يظهر تأثر ابن شهيد " ببديع الزمان " في الموضوع و الأسلوب و الفكرة في وصفه للحلوى ثم إن أثر المقامة المضيرية ، [3]

---

(1) محمد سعيد محمد ، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص : 264 .
(2) البستاني بطرس ، رسالة التوابع و الزوابع ، ص: 90 .
(3) محمد سعيد محمد ، المرجع نفسه ، ص : 265 .

و المقامة البغدادية واضح كل الوضوح ، بل إن وصف الماء ليس إلا صورة محسنة لوصف " بديع الزمان " له في المقامة المضيرية [1] ، كما تأثير المقامات في توجيه هذا النص من خلال إستخدام الكاتب للسجع و الإهتمام باللغة و الحرص على اتقانها و استيعاب المعجم القديم ، كما تعتمد على الوصف و السرد و الصياغة [2]

و لم يقف تأثر " ابن شهيد " في " توابعه و زوابعه " " ببديع الزمان "عند هذا الحد ، بل هذه الحدود ، إنه كان متأثرا بمناظرة " البديع " و " الخوارزمي " التي رواها " بديع الزمان " بقلمه و ضمنها ديوان رسائله . لقد تأثر بها " أبو عامر " من حيث الفكرة و الأسلوب و الجدل أكثر من مرة ،مرة و هو يناظر << أنف الناقة >> شيطان " الإفليلي " و مرّة و هو يجادل الأوزة << أم خفيف >> . [3]

فهذه هي جملة الأمور التي تظافرت فيما بينها و أوحت إلى ابن شهيد القرطبي " لصنع عمله " التوابع و الزوابع " ، فجاءت مزيجا متجانسا مكونا من قضية شياطين الشعراء المنتشرة في العصر الجاهلي ، و قضية قصص الحيوان ، و المقامات المتفشية في العصر العباسي ، و بذلك تفرّد عمله كمّا سواه بطريقته المبتكرة في الإخراج و الإبداع و التصوير .

---

(1) المرجع السابق ، ص: 265.

(2) كمال الرويبي ألفت، تشكل النوع القصصي ، قراءة في رسالة التوابع و الزوابع ، ص: 201.

(3) الشكعة مصطفى ، الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه ، (د.ط) ، دار العلم للملايين ، (د.س) ، ص : 681.

4* السبب و الغاية من تأليف التوابع و الزوابع:

وُلد أبو عامرفي فترة مزدهرة أمدّته بالثقافة و العلوم في شتى المجالات منذ نعومة أظافره من <أدب و خبر، وفقه، وطب، و حكمه> ، بالإضافة إلى امتاز به من قوة الذّاكرة و سرعة البديهة، و قد شعر أن الناس لا يقدّرون عبقريته إذْ تفشى الجهل فكان دهره دَهْرَ الأراذل ، كما كثر خصومه، لذا كان لزاما عليه أن يبني مجده بجهوده ليثبت جدارته و تفوقه.

"وقبل أن نعرّج إلى معرفة دوافع" أبي عامر" لكتابة رسالته هذه ينبغي أولاً معرفة لمن وُجهت هذه الرسالة؟ فقد وجّه" ابن شهيد" رسالته إلى من أسماه بأبي بكر بن حزم الذي تعجّب من نبوغه ، وعدّ كلامه في النظم و النثر ليس في قدرة الإنس، و أن له تابعًا و زوابعًا ينجدانه.[1] فبين في فاتحتها أنّه كان في حداثته يحن إلى الأدب و يصبو إلى تأليف الكلام ، فابتاع الدواوين و جلس إلى الأساتيذ فنبض فيه عرق الفهم ودّر له شريان العلم و أنه كان له في أوائل صبوته هوىً اشتدّ له كُلفةً ، ثم لحقه مَلَلٌ في ذلك الميل. و كان أن مات من كان يهواه و جُزع و أخذ في رثائه فقال:

تولى الحمام بظبي الخدور و فاز الرّدى بالغزال العزيز [2]

أما عن الدوافع التأليف فإنه باستطاعتنا القول أنه إذا كان الدّافع وراء رائد القصة العربية في المشرق– بديع الزمان– هدفًا إجتماعيا ينحصِر أساسا في تصوير البيئة الإجتماعية لعصره، فإنّ الدافع عند ابن شهيد في كتابته قصته<التوابع و الزوابع> دافعٌ شخصي نابعٌ من إحساسه بأن معاصريه من الأدباء و النقاد لم يولوه حقه من التكريم، و لم ينزلوه المنزلة الأدبية التي رأى نفسه أهْلاً لَهاَ، و من جملتهم أبو القاسم

(1) محمد سعيد محمد ن دراسات في الأدب الأندلسي ،ص: 256.

(2) مبارك زكي ، النثر الفني في القرن الرّابع هجري ، ص: 321.

الإفليلي الأدبي الشاعر الكاتب ، بل كانوا يكنون له الحقد و يكيلون له الكيد ، و من ثم فقد راح يلتمس التقدير و التكريم عند من هم أعلى قدرًا من معاصريه و أوفَى شهرةً و أعلى كعبًا في الأدب بفرعيه: الشعر و النثر، فهداه خياله الخصب إلى كتابة قصته.[1]

و فيما يتلقي بجني اسمه زهير بن نمير، فتتوثق الصداقة بينهما و يحمله"زهير" على متن الجو إلى أرض الجن، وما تجشم الرّحلة الأدبية إلى وادي عبقر إلاّ ليلقى توابع الشعراء و الكتاب ، و ينال منهم إجازة النظم و الخطابة، فأجازه تابع امرئ القيس، و طرفة ، و قيس بن الخطيم ، و أبو تمام، و البحتري، و أبو نواس، و أبو الطيب، وتابع عبد الحميد ، و الجاحظ ، و بديع الزمان ، و سواهم ، و أسمعهم من أشعاره و رسائله ن و فاخرهم بإعراق بيته في الشعر ، و نَقَضَ أقوالهم في أدبه ، و إنما هي أقوال نقّاده ، و عارضهم في قصائدهم، [2].

و أوصافهِمْ ن فقال * أبو نواس* :< هذا شيءٌ لم نُلْهَمْهُ نحن > و قال "عبد الحميد" :< اذهب فإنّك شاعِرٌ و خطيب>.[3]

< و في أثناء هذه السياحات في وادي الجن و الشياطين يُلقي بعظيم اللّوم و قوارص اللفظ الناقد لخصومه من المؤّدبين و معلّمي قرطبة مازجًا ذلك بآرائه الخاصة في القضايا الأدبية و النقدية و في الموازنات و السرقات الأدبية إلى جانب ما تعمّده من عبارات الفكاهة و أساليب التندّر و الإستهزاء في طابعٍ فكه ظريف >.[4]

و ثمة أمورٌ وَقُرتْ في نفس ابن شهيد من بينها : حب العربي المثقف للعلم و شغفه بالتقليد حينًا

(1) الشكعة مصطفى ن الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونهن (د،ط)، دار العلم للملايين، (د،س) ، ص: 641-642.
(2) البستاني بطرس ، رسالة التوابع و الزوابع ، ص: 70-71.
(3) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
(4) السيوفي محمد مصطفى، تاريخ الأدب الأندلسي، ص: 79-80.

وبالمحاكاة في أحيانٍ كثيرة ، و ذلك إلى ما لاحظه عن كثب من طغيان المعلّمين و ازدياد سطوتهم في قرطبة. ومن هنا هجم بشدة على جمهور المؤدّبين حتى علماء النحو المشاهير من أمثال سيبوية، كما هجم على الكتب التي ألفوها ، ثم أضاف حقيقة أخرى في نظره.. هي أن "الله تعالى"هو الذي يهب الفصاحة و ليست الكتب و لا المعلمون...

و يؤيد ابن شهيد رأيه بالإشارة إلى التنزيل الحكيم و حكمه الفاصل من خلال سيّاحته في الرّحلة السماوية حين لقي واحدًا من هؤلاء المثقفين المتغطرسين و دار بينهما الحوار التالي : < فقال لي : دَعْ عَنْكَ.... أنا أبو البيان... قلت: لا تا الله إنما أنت كمغنٍ في وسطٍ لا يحسُ فيُطرب و لا يُسيء فيلهي>.

قال: لقد علمنيه المؤدّبون....[1]

قلت: ليس هو من شأنهم ، إنما هو من تعاليم* الله تعالى* حيث قال:{ الرحمان(1) علّم القرآن (2) خلق الإنسان(3) علّمه البيان(4) }[2]

و يضيف إلى ذلك توكيده على دور الذكاء و الفطنة و هو ما يعبّر عنه بالقول حين يقول:* أوّل أدوات الكتاب العقل، و لا يكون كاتب غير عاقل*.[3]

أمّا بَعْدَ فإنه بالإضافة إلى هذا يمكننا تلخيص دوافعه إلى كتابة رسالته هذه في الآتي:

1- الرّد على خصومه و ذمهم و تحقيرهم و التقليل من شأنهم ، و يقف في صدارة هؤلاء" أبو بكر" الذي ذكره في مقدمة الرِّسالة و تعجب من نبوغه في قوله:< أما إن به شيطانا يهديه، و شيطانًا يأتيه، و أقسم أن له تابعة تنجده وزابعة تؤيده ليس هذا في قدرة الإنس ، و لا هذا النفس لهذه النفس>.[4]

(1) البستاني بطرس، رسالة التوابع و الزوابع ،ص: 125.
(2) سورة الرّحمان،الآيات (1 – 4) .
(3) السيوفي محمد مصطفى، تاريخ الأدب الأندلسي ،ص: 81.
(4) محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص: 258.

وذكر مرة أخرى وعده من خصومه بقوله:<< أما أبو بكر فأقصر واقتصر على قوله:له تابعة تؤيده >> ، و توحي هذه المقولة بذم " أبي عامر " أكثر مما توحي بمدحه ، و كأنه يردد أقوال غيره ، لكن هذا الكلام الذي يحمل في باطنه التعريض " بأبي عامر " سرعان ما عرف هذا الأخير مغزاه ، عندما رد على خصمه هذا بقوله : << فأما و قد قلتها " أبا بكر"<<فأصغ أسمعك العجب العجاب >>،و هو بذلك يريد أن يدافع عن نفسه أمام خصمه من تهمة الانتحال التي نعته بها " أبو بكر " ، و غيره ، فألف هذه الرسالة التي أثبت فيها مقدرته على النظم و النثر و النقد بإجازة كبار شعراء العربية و كتابها و إجازاتهم له عن طريق توابعهم التي استحضرها ، و من خلال نقده الذي أبداه في مجالس نقد الجن . [1]

2- رغبته في إثبات تفوقه الأدبي أمام سلطان معلمي قرطبة ؛ من لغويين و نحويين حكموا بقصوره في علم النحو و اللغة و الغريب ؛ ففي وصفه لهم يقول : << و قوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو ، و حفظ كلمات من اللغة يحنون على أكباد غليظة و قلوب كقلوب البعران و يرجعون إلى فطن حمئة و أذهان صدئة ، لا مدب لها من شعاع الرقة و لا مدب لها من من أنوار البيان سقطت إليهم كتب في البديع و النقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الإيقاع و الرمز على الألحان. >> [2].

و عندما اشتدت المشاجرة بين " ابن شهيد " و تابع " الإفليلي " المسمى أنف الناقة و طلب التابع من " ابن شهيد " أن يطارحه كتاب الخليل قال : <<هوعندي في زمبيل >> . قال تابع " الافليلي " : فناظرني في كتاب سيبويه قال : " أبو عامر " : " خريت الهرة عندي عليه و على شرح ابن درستويه >> . [3]

(1) المرجع السابق ، ص: 258-259.
(2) الشنتيري ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ج1/م1/ص: 235.
(3) محمد سعيد محمد ، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص: 259.

3- إحساسه بأنه جرح في كبريائه بسبب الإحباطات التي وقفت عائقا في طريقه لتحقيق المجد الذي كان يحلم به ، و هو الوصول إلى أن يكون كاتبا من كتاب الدولة ووزيرا من وزرائها و أعد نفسه ليكون كذلك ، بخاصة و أنه من أسرة تقلدت مناصب مهمة ابتداءا من جده الأول عيسى بن شهيد إلى والده الذي وزر في دولة " المنصور بن أبي علمر " ، و ما يزيد من معاناته أنه يرى من هم أقل منه وصلوا لمساعدة المؤدبين و اللغويين و الفقهاء الذين وقفوا في طريقه حين اتهموه بالتحرر و فساد الأخلاق و المروق ، فالف رسالته هذه للانتقام منهم ؛ فعلى سبيل المثال ظهر سخطه على الفقهاء من خلال رسالة الحلواء التي تهكم فيها على واحد منهم ، و انتقم منهم عن طريق الأدب . [1]

4-رغبته في أن يثبت للناس تفوقه الشعري (تفوق الشاعر الأندلسي) و أن يرضي غروره الذاتي شاعرًا عبقريا وإن لم يكن كذلك في نظر الآخرين، و لا أدل على ذلك ما سّجله بقلمه في ثنايا رسالة من ثناءٍ على شعره ساقه على ألسنة من لقيهم من قدامى الشعراء و الخطباء ، فهو يقول مثلا على لسان تابعي " الجاحظ" و" عبد الحميد" يوجه الخطاب إلى نفسه:"إنا لنخبط منك ببيداء حيرة، و تفتق أسماعنا منك بعبرة، و ما ندري أنقولُ شاعرًا أو خطيبًا؟ فقلت: الإنصاف أولى ، و الصدق بالحق أجحى و لا بُدّ من قضاء، فقالا: اذهب فإنّك شاعِرٌ و خطيب.[2]

و كذلك ما ساقه الشاعر على لسان تابع< المتنبي> عندما سمع بعض أشعاره فقال:" إن امتدَّ به طلق العمر فلا بُدَّ أن يَنْفث بِدُرَرِ ، وما أراه إلاّ سيحتضر بين قريحة كالجمر، و همةٍ تضع أنمصه على مفرق البدْرِ. "

(1) المرجع السابق ، ص: 259-260.

(2) الشنتريني ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1/م1/،ص:278.

5- اعتزاز" أبي عامر" البالغ بأصالة فنِّه و اعتقاده بنبوغه الفذ، فمن ذلك قوله عندما أنشد خمريته لتابع" أبي نواس" المسمى حسين الدّنان ، و صاح من حبائل نشوته أأشجعي؟ و كذلك تابِعُ أحَدُ الأندلسيين الذين لم يصرّح ابن شهيد باسمه، و اكتفي بذكر اسم التابع فقط و هو *فرعون بن الجون* و عندما سمع من أشعار أسرة إبن شهيد قال:<و الذي نفس فرعون بيده لا عَرَضْتُ لك أبدًا إني أراك عريقا في الكلام>.

6- كان لأحداث قرطبة و تدمير مدينة الزهراء و الزّاهرة و مينة المغيرة التي شهدت مولِدَ الشاعِرِ وطفولته أثّر على نفسيته و على صديقه ابن خزم ، فمكث "أبو عامر" في قرطبة و غادرها صديقه ، هذه الأحداث و لدت في نفس "أبي عامر" الأسى و الأحزان، وقتلت فيه آمال الطفولة و طموح الشباب، فحاول أن يُسقط هذا الألم النفسي فأَلَف رسالته يبْرِزُ فيها تفوقه في المجال الأدبي و يبني انتصارات و همية له تشبع له غروره و كبرياءه.[1]

ومن هنا يتبين أن" ابن شهيد" وضع رسالة التوابع و الزوابع التي قدّمها إلى صديقه" أبي بكر يحي بن حزم"، فإليه توجه بالخطاب؛ تخيل نفسه مع شيطانه و لكل أديبٍ تابعة أو شيطان يرقى إلى حيث توابع الشعراء و الكتاب، فطارحهم شعره و نثره، و أجرى بينه و بينهم أحاديث أدبية مختلفة، و استغل هذا التخيل ليُدّلي بآرائه. و قد شغلته عدّة قضايا جعل رسالته عرضًا لها و تبيانًا لموقفه و منها:

1- ما منزلته من شعراء قومه و كتابهم؟، و ما منزلة شعره و نثره في الأدب العربي بعامّة؟.

2- وما هي حدود الأخذ، و متى يَسُوغُ؟

3- ما هو الموقف من طغيان السجع على كتابة الكتاب؟... وعرّج في مواضع مختلفة لينال من خصومه من المعلمين و الأدباء و رجال الدولة بلسانٍ لاَدِغْ، يتراوح بين التصريح و التلويح.[2]

(2) محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص: 260-261.

(3) رضوان الدّاية، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص: 301.

و هكذا يتضح لنا أن دوافع" أبي عامر" هي دوافع شخصية، فقد عُرف عنه أنه شاعرٌ جياش العواطف يزهو بنفسه بدرجة كبيرة، وحين عرّض به معاصروه من الأدباء و رجال السياسة و اتهموه بقلة الإطلاع و انتحال أشعار مشاهير الشعراء، ثارت ثائرته و أحسّ بأنه طُعِن في كبريائه ، عندها اصطنع هذه الرحلة الخيالية التي ينتقل منخلالها إلى العالم الآخر(عالم الجن و الشياطين) ، و فيه يلتقي أصنافًا من أشهرشعراء العرب و كتابها و نقاد الأندلس ، بعد أن نفخ الحياة فيهم عن طريق توابعهم، فيسخر من توابع خصومه و يبرز خطل عقولهم و فساد أذواقهم ، و في الأخير يتلقى اعتراف الجميع له بالبراعة و التفوق في مجالي الشعر و النثر على السوّاء.

و من هنا يتضح أن هدف الرّسالة لم يكن وظيفيا مباشرا و إنما هو هدفٌ أدبيٌّ ينطلق فيه ابن شهيد من الواقع، و لكنه يمتطي الخيال ليتجاوز الواقع و ليخلق الظروف الملائمة للتعبير عن آرائه في خصومه بطريقة غير مباشرة.

5- موقف ابن شهيد- في هذه الرسالة:

عرفنا أن أبا عامر كان كثير الخصوم و الحسّاد ، و لقي منهم عنتا و أذية و ضيمًا لم يصبِرْ لَهُ، فانبرى يواقعهم و يناضلهم ، و ينتقص أدبهم ، و يبسط آراءه في المنظوم و المنثور، و الفن و الجمال. فرسالة" التوابع و الزوابع"

لا تعدو هذا الغرض الذي يرمي إليه ، و هو الطعن على أنداده و منافسيه من الوزراء و الأدباء و أهل السياسة و القلم، ثم المنافخة عن أدبه بالرّد على غمرات نقّده، ثم إظهار محاسنه و فضائله في المتقدّمين و المتأخرين.

فقد عرضَ لمغتابيه عند المستعين، منددًا بضعفهم و عجزهم عن لحاقه، و ألح بالإزراء على أبي القاسم الإفليلي، فتعالى عليه بعلمه و معرفته، ودَعاهُ إلى مباراته بالوصف شعرًا و نثرًا، و سخِرَ بأدباء بلده ، و نسب الغباوة إلى أهل زمانه ، و عرّاهم من صحّة اللغة ، و حسن البيان.[1] .

و على العموم فقد كان طابعه العام في هذه الرسالة التندر بابن الإفليلي و الوقوع فيه مغلقا ذلك بالإستهزاء والتهكّم و السخرية في كلِّ موقفٍ أو مشهدٍ من مشاهد" التوابع و الزوابع" و حبسك من كل أولئك ما يصِفه به حين يتناول أوصافه و هيئته فيقول:" ليست شيبته شيبة أديب و لا جلسته جلسة عالم، و لا أنفه أنف كاتب، و لا نغمته نغمة شاعر" [2] .

ماذا نراه– إذن– وقد سلب عنه كّل هذه الصفات فلا هو من الأدباء و لا من المعلّمين و لا كان من الكتاب و لا الشعراء و من يكون في الناس؟ اللّهم إنه التحامل من " ابن شهيد" على المعلمين القرطبيين في شخص ابن الإفليلي.. لقد نال منهم جميعا متخذًا من" ابن الإفليلي" طريقا إلى ذلك.. خاصة إذا علمنا تضلّعه في علم اللسان و الضبط لغريب اللغة.

و نتابع" ابن شهيد" في هذا المشهد من " التوابع و الزوابع" مع " ابن الإفليلي" حيث يقول على لسان الجن: "و أما أبو القاسم بن الإفليلي فمكانه من نفسي مكين ، و حبّه بفؤادي دخيل ، على أنه حامل عَلَيّ ، و منتسب إليَّ، فصاحًا ، ذا أنف الناقة بن معمر، من سكّان خيبر، فقام إليهما جن أشمط ربعة يتظالع في مشيته كاسرًا لطرفه ، زاويًا لأنفه، و هو ينشد:

قومٌ هُمُ الأنفُ و الأذنابُ غَيْرُهُمُ و من يُسَوِّي بأنف الناقةِ الذّنَبَا ؟

فقالا لي : هذا صاحبُ أبي القاسم و مـا قولك فيه يا أنف الناقة؟

(1) البستاني بطرس، رسالة التوابع و الزوابع ، ص: 70.

(2) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص: 72.

قال : لا أعرف على من قرأت؟ فقال لمثلي يُقَالُ هذا الكلام ؟ فقلت و كان ماذا ؟ قال: فطارحني كتاب الخليل ، قلت: هو عندي في زمبيل... قال : فناظرني على كتاب" سيبويه" فقلت: خريت الهرّة عندي عليه." (1)

لقد قدّر " لإبن شهيد " أن يسخّر ملكاته ليثأر من حسّاده و جاحدي فضله، و ليظهر براعته في الأدب و السياسة في آنٍ معًا ، فاستغل موهبته أحسن استغلال و أنزل جامَ غضبه و قارص قوله على هؤلاء العيّابين خاصة المؤدبين في " قرطبة" في شخص " ابن الإفليلي".

6- الهيكل الوظيفي للرِّسالة:

إن بنية قصة " التوابع و الزوابع" تبدأ مع شروع الرّاوي في سرد سيرة حياة" ابن شهيد" منذ كان صبيًّا ، و يمكن استخراجها عن طريق" التحليل الوظيفي" و إذا كان التحليل الوظيفي قاصرًا حين يتعلق الأمر بالأشكال المعقدة من القص، فإنه لم يكن كذلك في حالة نصّنا،ذلك أنه يمزج بين عالمي الواقع و الخيال، و ينقلنا إلى عالمٍ خُرا في ذي صلةٍ قوية بعالم الواقع.

إن الرسالة تتكون من هيكل ذي بنية ثلاثية قارّة يمكن تحديدها كالآتي:

1- محور الرّغبة.

2- محور الاختيار.

3- محور تحقيق الرغبة.

1- محور الرغبة: تشترك كل الفصول ، أو المقاطع المحورية في الرّسالة في تعبيرها عن الرغبة؛ بل إن الرّسالة كلّها لا تعدو أن تكون استجابة من " ابن شهيد" لصديقه.... الذي رغب في إدراك سرّ

(1) المرجع السابق، ص: 79.

عبقريته الأدبية.و بعد أن يكون" ابن شهيد" في مقدمة الرّسالة محققا لرغبة " ابن حزم " ، يظهر في بقية الفصول باعتباره صاحب الرّغبة، بينما يتكفل تابعه " زهير" بتحقيقها له. و لئن لاحظنا في هذا المجال ضربًا من الإختلاف: بل التناقض بين الحالتين ، فإن الإشكال يمحّي إذا تذكّرنا أن تحقيق : ابن شهيد" لرغبة" ابن حزم" إنما هو تحقيق لرغبة " ابن شهيد" مما يعيد التناسق إلى الصورة العامة.[1]

2- محور الإختيار:

يمثل هذا المحور جوهرة الرّسالة كلّها؛ إذ عليه يتوقف نجاح الكاتب أو فشله، أي تحقيق الرغبة أو كَبْتها، فالإختيار ضربٌ من المحنة أو الإمتحان القاسي الذي يواجهه، و على ضوء نجاحه أو فشله يستحق المكافأة أو يُحَرِمُ منها .

و مادامَ متعلقا بشعراء و كتاب و نقادفمن البديهي أن يكون موضوع الإختيارهو الشعر و النثر و النقد[2]. لذلك حفلت الّرسالة بالأدب، و شغل هذا العنصر الحيّز الأكبر منها ، باعتبار أنه يقوم على المعارضة و المقارعة، أي على الإبداع و الشاعرية أولاً ، كما يقوم على التشويق و إطالة العقدة لِشَدِّ القارئ و إيهامه بجواز الفشل و إمكانية الخيبة ثانيا. و ذلك مما يخلق ضربًا من التعاطف مع البطل الممتحَن.

من جهة أخرى، فقد كان الإختيار شاملاً و دقيقًا و صَعْبًا ، فبالإضافة إلى كونه شمل الشعر و النثر و النقد الأدبي ، فقد تفرع أيضا في مجال الشعر إلى مراحل الجاهلية و صَدَرْ الإسلام.... مثلما تفرّع في النثر إلى مدارس الجاحظ[3]. و " عبد الحميد " و " الهمذاني" ، و تفرّع في النقد إلى مواضيع حسّاسة شاسعة

(1) الموافي ناصر عبد الرزّاق، القصة العربية عصر الإبداع، دراسة للسّرد القصصي في القرن الرّابع هجري، (د،ط) . كلية الآداب للنشر، القاهرة، (د،س) نص: 66.

(2) المرجع نفسه ، ص:67.

(3) المرجع نفسه، ص: 68.

مثل المعارضة و الإقتباس و السّرقة و الطبعة و الصنعة ، و لذلك فَعَلى قَدْرِ الإختيار تكون الجائزة ، وَلاَ أقل من أن تكون المكافأة تحقيقا للرغبة.

- تحقيق الرّغبة:

ما دامت الرغبة موجهة نحو لقاء الأدباء، و مادام الإختيار مركّزًا على الأدب ، فمن البديهي عندئذٍ أن تكون المكافأة متمثلة في الإجازة، أي إثبات المقدرة الأدبية و الإعتراف بالشاعرية ، و تلك كانت الغاية الكبرى من تأليف الرّسالة اصلاً .... إذ تكررت جملة" إذهب فقد أَجَزْتُكَ" حرفيا، أو بتحويرٍ طفيف ، ست مرّات بينما كان الإعتراف مُضمنًا في المناسبات الأخرى.

إن هذه البنية الثلاثية الأساسية تحتوي في داخلها على عدّة بنياتٍ فرعية أهمها:

البنية الواقعية/ الخيالية، و البنية الهجومية/ الدّفاعية ، و البنية الإنسية/ الجنية ، و البنية الهزلية/ الجادة، و بنية الماضي/ الحاضر، و بنية المشرق/ المغرب ، إضافة إلى البنية النثرية/ الشعرية ، وتعدُّدْ البنىَ هذا حين ينسجم مع مجمل البنية يزيد النّص قوة ، إذْ أن المحاور المختلفة تُكسِبْ النص درجةً من التشويق الذي يحافظ على القارئ مُنْتَبِهًا مُتابعًا للنص و أحداثه" .

فهذه هي المحاور الثلاثة التي قامت عليها رسالة " التوابع" ففي البدء رَغِبَ" ابن شهيد" في الرّد على خصمه " ابن حزم" الذي اتّهم أدبه ، و شكك في قدرته على النظم و النثر، و بعدها يختار الشاعر الكاتب الناقد، خوص غمار المعركة ، و يتحدّى خصومه و يقارعهم في المنظوم و المنثور ، لا بل حتى في النقد و النحو و الغريب، فيبعث الروح في خصومه من الشعراء و الأدباء و النقاد عن طريق توابعهم، و يُحَاوِرهُمْ و يُناقِرهم ثم ينتزع منهم الإجازة و الإعتراف بعبقريته الأدبية.

7- أسلوب الرّسالة :

تعد رسالة" التوابع و الزوابع" التي أنشأها أبو عامر بن شهيد من أبرز ما عرفه الأدب العربي من نماذج أدب الرّحلات الخيالية ، و رغم أنّها لم تصِلْ إلينا كاملة فإن ما وصلنا منها يكفي لتكوين فكرة عن أسلوب ابن شهيد وعن طريقته في الكتابة ،كما يعطينا فكرة عن الحياة الأدبية في عصره و عن آرائه في بعض معاصريه من رجالات السياسة و الأدب.

" و رسالة التوابع و الزوابع " ليست سوى مجموعة أشعار تقليدية في أكثر فنونها ،و أسلوبها و تعابيرها معروضة بطريقة مبتكرة من الإخراج .

فليس هناك تراكم أحداث ، و لا تداخل ملابسات و لا مضاعفات ، كما قَدْ يُتصور في التأليف السّردي القصصي أو الملحمي ، أو في الرّحلات إلى العوالم المجهولة ، و ليس هناك حوارُ إلاّ ما يؤديه بأسلوب بدائي رتيب إلى إبراز قصائد الشاعرْ ، و الإدلال بتفوّقها حين يبتزبها القدامى و المحدثين من شعراء الإنس الذين تقمصتهم " التوابع و الزوابع" ، وقد قال الفتح بن خاقان في " ابن شهيد" : " توغل في شعاب البلاغة و طرقها ، و أخذ على متعاطيها ما بين مغربها و مشرقها " . و قد تناقل النقاد من بعده هذا الحكم ، فجعلوا أسلوب صاحبها في الذروة من الأساليب الأدبية حتى لم يضنوا عليه بقوة الإبتكار. " [1]

" و تصطنع القصة أسلوب الرّسالة حيث يستهلها ابن شهيد برسالة بعث بها إلى صديقه " ابن حزم" يخبو فيها عن الكيفية التي تلقى بها تعليمه و التي تفتقت بها عبقريته الفنية، دون كبير عنت ،ثم ينتقل على خبر حبيب له مات و أخذ في رثائه ، فأرتبع عليه ، و إذا بجني اسمه " زهير بن نمير" يتصور له ، و يُلقي إليه بتمتمته الشعر رغبةً في اصطفائه ، كما تصطفي التوابع خلاّنها فتتأكد الصحبة بينهما؛ فأصبح

---

(1) البستاني فؤاد أفراد، رسالة التوابع و الزوابع ، ص: 341-342.

كلّما سدّت بوجهه مذاهب الكلام ، يدعو تابعه بأبيات لقِنها عنه فَيُمَثِّلُ لَهُ،و يُوحي إليه" [1].

وقد جاء تسلسل الأحداث منظما على الرّغم من أن الرّسالة لم تصل إلينا كاملة ؛ إذ اختصرها الكاتب ثم اختصرها "ابن بسام" ، فهي كما سلف الذكر ، تبدأ بتعريف أبي بكر بقدرة أبي عامر الإبداعية و يتهمه بأنه يردّدُ .ما يقوله غيره فثارت ثائرة " أبي عامر" وردّ عليه بقوله : " فأما و قد قلتها فإني سأسمعك العجب العجاب" .

و بهذا المدخل الطريف دخل في صلب الرِّسالة و شوق القارئ إلى ما سيأتي بَعْدُ ، فهو حديث من " أبي عامر" إلى " أبي بكر" و لمن يقرأ هذا العمل .

و يستعرض أبو عامر ثقافته و اطلاعه و قدرته الفائقة على الإستيعاب بأقل القراءة،ثم بعد ذلك يّدعي العي [2].

عن رثاء حبيب له مات فيظهر له جني يعينه على قول الشعر و يرغب في مصاحبته ويطلب منه أن يستحضره متى شاء ،ثم يغيب عنه. وهكذا رسم لنا أبو عامر بن شهيد في هذا المطلع قصة جميلة ، و يتم اللقاء مرّة أخرى بين أبي عامر و تابعه زهير بن نمير ، و يسأل أبو عامر تابعه عن إمكانية لقاء توابع بعض الخطباء و الشعراء، و بعد غياب قليل للتابع يعود إليه يحمل الموافقة و يلتقي بتوابع ثلاثة شعراء من شعراء العصر الجاهلي و أربعة شعراء من شعراء العصر العباسي ، و ينال إجازتهم بعد أن يستمعوا إلى شعره و بعد أن يحقق رغبته من توابع الشعراء،يطلب منه أن يميل به إلى الخطباء الذين تجمعوا في مكان واحد وأبرزهم توابع :الجاحظ ،وعبد الحميد الكاتب ، و بديع الزمان الهمذاني ، و الإفليلي فيحاورهم

(1) ابن سلامة الربغي ، محاضرات في الدب المغربي و الندلسي ن 0د، ط) ، منشورات الجامعة منتوري، قسنطينة سنة 2006،2007، ص: 144.

(2) محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الندلسي ن ص: 287.

و يستمعون لنثره و يسمع من وصفهم ، و أخيرا ينالُ إجازتهم لنثره.

و بعد أن أظهر لنا أبو عامر مقدرته الأدبية شعرا و نثرا أراد أن يُظهر قدرته على النقد فشارك في خلاف معنى من المعاني من قِصَرٍ ومن أجاد و أعطى رأيه ، كما أعطى رأيه في الفصل الرّابع حين طلب منه أن يحكم بين قصيدتين واحدة لبغل و أخرى لحمار فحكم للبغل.

على أننا نجدُ هناك تسلسلاً منطقيا ينتظم الأحداث ؛إذ ينسجم المدخل مع بقية الفصول حيث أراد " أبو عامر" أن يثبت تفوقه شاعرًا و ناثرًا ثم ناقدًا و قد حقق ذلك من خلال سرد أحداث النص .على أنّهُ مزج فيما بين أساليب السّرد، و الحوار ، و الوصف ، ليُعطي عمله بذلك قيمة فنية كبيرة.

و قد ظهر أسلوب السرد من بداية الرسالة ، و بالتحديد في المدخل حين يتحدّث مُخاطبًا أبا بكر ، و حين يتحدّث عن ثقافته و تحصيله العلمي فيقول[1] : " كنت أيام كتاب الهجاء ، أحن إلى الأدباء ، و أصبو إلى تأليف الكلام ، فاتبعت الدواوين ، وجلست إلى الأساتيذ ، فنبض لي عرق الفهم ، ودرّ لي شريان العلم " [2].

و شمل الحوار جوانب متعددة من الرّسالة و لا غرابة في ذلك لأن هدف أبا عامر انتزاع شهادات كبار الشعراء من خلال توابعهم .وهو يلجأ إلى الحوار ليظهر من خلاله إحساسه بالمعاناة من خصومه ليبرّر ما يُتهم به،وفي الوقت نفسه ليقنع التوابع الذين التقى بهم بما يتميز به من قدرات إبداعية متفردة تدعوهم على الفورِ للإعتراف بنبوغه .

---

(2) المرجع السابق ن ص : 287،288.

(3) المرجع السابق ، ص : 289.

وفي الوقت نفسه ليقنع التوابع الذين التقى بهم بما يتميز به من قدرات إبداعية متفردة تدعوهم على الفورِ للإعتراف بنبوغه .

كما وظّف الوصف في الرسالة " التوابع و الزوابع " ، فوصف بصورة مقتضبة في أرض الجن المكان الذي يقيم فيه تابع < امرئ القيس> ، وكذلك الوادي الذي يوجد فيه تابع طرفة ، ووقف طويلا في وصف ديرِحنة الذي يقيم فيه تابع أبي نواس . [1]

وقد أظهر طريقته في الوصف حين قال :على لسان < زبدة الحقب > تابع< بديع الزمان :" أوما علمت أنّ الواصِفَ إذا وصف شيئًا لم يتقدّم إلى صفته ، و لا سلط الكلام على لغته ، اكتفى بقليل الإحسان ، و اجترأ بيسير البيان ؟ لأنه لم يتقدم وصفٌ يُقرنُ بوصفه ، و لا جرى مساق يُضاف إلى مساقه > .[2]

و لجأ " أبو عامر " في أسلوبه إلى استعماله المحسنات البلاغية بصورة لافتة للنظر ، و بخاصة السجع ، و كان هدفه في الإكثار من السّجع إحساسه بأنّ الذّواقة في قرطبة أصبحت تستسيغ النثر الذي يُبنى على السجع [3] .

< و أسلوب الرّسالة مسجوع ، به كثير من محاكاة ما شاع في أسلوب المقامات ، وكثير من العبارات المتكلفة الغامضة ، والإشارة إلى بعض الأسماء و المسائل الأدبية ، مما يحتاج إلى شرحٍ و بيان....ولكن هذا الأسلوب يمتاز عن غيره بأنه أسلوبٌ قصصي من الأساليب النادرة في الكتابة العربية.وقد برع ابن شهيد في هذا النوع >. [4]

(1) المرجع السابق ، ص : 290 .

(2) الشنتريني ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ج1/م1/، ص: 276.

(3) محمد سعيد محمد ن دراسات في الأدب الأندلسي ن ص: 291.

(4) خفاجي محمد عبد المنعم ن الدب الندلسي التطور و التجديد ن ص: 614.

< و قد جعل ابن شهيد من التوابع والزوابع رسالة أدب وعلمٍ ، و صناعة وفن ،ونقد ومناظرة ،وهكذا جعلها مَعرِضًا من معارِض بيانه وشعره وفنون وصفه ، كما جعل منها مقدمة طيبة لأبي العلاء المعّري في رسالته " الغفران " .

و فيها يُطالعنا باستقصاءٍ دقيق لكلّ أجزاء الصورة التي يسطّرها و صفًا و إيضاحا وبيانًا و كأننا به يَرْقُب عن كُثبٍ من خلال خياله الخصيب ما يحدّث به، و كأنه مسطورٌ أمَامَه في دنيا الواقع و الحقيقة. فكيف تكون الحال إذا ما وصَفَ حشرة كالبرغوث مثلا، إنه بلا ريب ليمس بمبضعه أدق أعضائه ويضعها تحت مجهره فإذا هي متكاملة الحلقات تامة التراكيب و الشاهدُ في ذلك ما يقوله في وصف البرغوث : " أسودٌ زنجيٌّ ،وأهليُ وحشيٌ ، ليس بوانٍ و لا زمّيلٍ ، كأنه جزءُ لا يتجزّء من ليلً و شونيزهُ وثبتها غريزة ،أو نقطة مداد، أو سويداء قلب فؤأد " .. إنه ذو وعي كامِلٌ بطبائع الأشياء التي يصفها فيتتبّع أفعالها و نوعية سلوكها و يقول : " شرّه مبثوث ، وعهده منكوث ، و هكذا كل برغوث " ... [1].

(و هكذا استطاعت عبقرية " ابن شهيد" أن تتفرّد بهذا الخيال الواسع و الأسلوب ، و لقد بلغ في هذا من دقة التعبير و الوصول إلى المعنى و كأنك تلمسه بيدك ، أو كأنّك واقفٌ معه ترى ما يراهُ هو ، أو كأنّك تنظر إلى صورة تتبين لك أجزاؤها بألوانها المختلفة من كلِّ دقيقٍ و عظيم) .[2]

(وقد ذكر ابن حيان في كتابه المتين ما يصوّر تلك الطريقة الأسلوبية لابن شهيد من تفضيله الإيجاز في القول على غيره من نوعيات الأساليب إلى جانب تكثيف المعاني من خلال جملة الأوصاف التي يريدها.. و من ثم نلحظ في نثره الوَصفي الصورة التجسيدية .... يقول ابن حيان: [3] .

(1) السيوفي محمد مصطفى ، تاريخ الأدب الندلسي ن ص: 86-87.
(2) ضيف أحمد ، بلاغة العرب في الأندلس ، ص: 58.
(3) الشنتريني ابن بسام ن الذخيرة ، ج1/م1/، ص: 161-162.

< وكان أبو عامر يبلغ المعنى و لا يُطيل سفر الكلام ، و إذا تأمُله و لِسْنَهُ ، و كيف يجُّر في البلاغة رَسِنَةً قلت : عبد الحميد في أوانه و الجاحظ في زمانه ، والعجيب من أنه كان يدعو قريحته إلى ما شاء من نثره و نظمه في بديهة وروية> [1].

(إلى جانب ذلك كُلِّهْ فقد عَرض ابن شهيد رسالته هذه في قالب فكاهي يثير الإمتاع ، و في هذا يقول زكي مبارك متحدثًا عن طابع الفكاهة في رسالة التوابع والزوابع : " رسالة التوابع و الزوابع نفيسة جدًّا و مؤلفها خفيف الظّل إلى حدٍّ بعيد ، و قد وقعت له فيها فكاهات تبعث الأنس إلى النفس .....>) [2] .

فهذه هي رسالة التوابع و الزوابع ، إحدى القصص البارعة التي تعتبر في المقدّمة من ألوان الأدب الإمتاعي و الخيالي الأندلسي بصفة خاصة و العربي بشكلٍ عام .

8- قضايا نقدية في ثنايا رسالة التوابع و الزوابع :

تضمنت رسالة " التوابع" لإبن شهيد القرطبي العديد من القضايا ة والآراء النقدية ، التي أدلى بها " ابن شهيد" في معرض ردّه على خصومه من المعلّمين و المؤدبين في قرطبة، هؤلاء الذين استنكروا عليه إجادة النظم والنثر ، و اتهموه بالإنتحال و التقليد ، فهَّمَ بالرّد عليهم من خلال رسالته هذه ، التي جعلها معرضًا لآرائه النقدية في أدبهم بخاصة ، و في الأدب عامة ، فهاجمهم بقوة ، مُسنِدًا رأيه بالحجّة و البرهان . ومن بين تلك القضايا التي تضمّنها رسالة " التوابع" قضية:

1- البيان:

< ترددت قضية البيان في تراثنا العربي منذ القديم و مع الدعوة الإسلامية ؛ من خلال قول الرسول (ص)

(4) المصدر السابق ، ص: 161-162.

(5) مبارك زكي ، النثر الفني في القرن الرّبع هجري ، ص: 322.

قولته الشهيرة: " إن من البيان لسِحْرًا" حين تحدّث " الزبرقان" في حضرته بكلامٍ جميل . [1]

و منذ ذلك الوقت و محاولات الباحثين و النقّاد تنصب أو تسعى إلى تعريف له ، فيورد الجاحظ تعريفا يقول فيه :

< و البيان اسم جامع لكل شئ كشف لك قناع المعنى ، و هتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته و يهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان و من أي جنس كان الدليل ؛ لأن مدار الأمر و الغاية التي إليها يجري القائل و السامع ، إنما هو الفهم و الإفهام ، فبأي شئ ، بلغت الإفهام و أوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع > [2].

و تكررت التعريفات حتى لجأ بعض الدارسين إلى تقنينها و تذييقها ، و من هؤلاء : ابن رشيق ، و قدامة ، بن جعفر .

و كان البيان من القضايا التي شغلت " أبا عامر بن شهيد " فأولاها اهتماما في رسالة "التوابع و الزوابع "،و في رسائل أخرى، و وردت في سياقات مختلفة ، يقول وهو يحاور تابع " الإفليلي " : << فقال لي : دع عنك أنا أبو البيان قلت : لا و الله إنما أنت كمغن وسط لا يحسن فيطرب ، و لا يسئ فيلهي قال : لقد علمنيه المؤدبون ، قلت : ليس هو من شأنهم إنما هو من تعليم الله تعالى حيث يقول : 35 الرحمان ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان >> [3].

" فالبيان في هذا المقتطف في نظر " أبي عامر " لا يلقن في حلقات الدروس و إنما هو إلهام من الله تعالى

(1) القيرواني ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط4 دار الجيل ، بيروت ، (1972) ، ج1 ، ص : 254 .

(2) الجاحظ أبي عثمان ، عمرو بن بحر ، البيان و التبيين ، تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون ، (د،ط) ، دار الجيل ، بيروت ، (د،س) ، الجزء الأول ، ص : 76.

(3) الشنتريني ابن بسام ، الذخيرة ، ج 1 – م1 ، ص " 274.

و هيبة منه . و يتغير معنى البيان في السياق نفسه من خلال الحوار السابق ، يقول أبو عامر لتابع الإفليلي : " ليس من شعر يفسر و لا أرض " . تكسر هيهات حتى يكون المسك من أنفاسك ، و العنبر من أنفاسك ، و يكون مساقك عذبا ، وكلامك رطبا ، ونفسك من نفسك ، قليبك من قلبك ، وحتى تتناول الوضيع فترفعه ، و القبيح فتحسنه " [1] ، فقام" أبو عامر " ، بإعطاء تابع الإفليلي مثالا تطبيقيا حيث طلب منه التابع ذلك ، فوصف له برغوثا ، يتبين من خلال هذين المقتطفين أن " البيان " عند " ابن شهيد " إلهام من الله و هو يعني أيضا الإجادة فيما يصدرعن الأديب من قول ، وحين يمزج شعور الشاعر بتركيبته الجسدية وينصف " أبو عامر" نفسه أنه من أهل البيان؛ إذ يقول :" فطعنت ثغرة البيان دراكا ،وأعلقت رجل طيرة إشراكا فانثالت لي العجائب ،وانهالت علي الغرائب"[2].

يبين هذا المقتطف أن " أبا عامر " يجيد القول في المنظوم و المنثور دون كد ذهن و دون تكلف ، وبكل تلقائية ، و أن ما يصدر عنه آية في الجودة و الإتقان و لا يجارى . و جاء ذلك الإبداع و تلك الموهبة هبة من الله سبحانه تدعمها الثقافة الواسعة في شتى العلوم الإنسانية ، و بخاصة الأدبية منها مع القليل من علوم اللغة و النحو .[3]

2- السرقات الأدبية :

وردت فكرة السرقات الأدبية في تراثنا ، و هي قديمة قدم هذا التراث ، و قد تناولها عدد من النقاد و الباحثين في مؤلفاتهم التي ترجمت للشعراء و انتخبت من شعرهم .

و المقصود بالسرقات الأدبية هو السطو على أفكار الغير ، و قد أدرك الكتاب و الباحثون خطر هذا

(1) المصدر السابق ، ص : 274-275 .
(2) المصدر السابق ، ص : 246.
(3) المصدر السابق ، ص : 231.

الإتجاه ، فقاموا بتتبع أولئك و فضحهم لكن متتبعي هؤلاء لا يصيبون دائما في أحكامهم لأن هناك بعض المعاني من كثرة تداولها صارت مشتركة . [1]

و قد تعددت المصطلحات التي تدل على السرقة الأدبية ذكرتها كتب النقد ومنها : الإشارة ، الغصب ، والإغارة ، الهدمُ ، و التضمين و التلميح ، والإختلاس ، و السلخ والأخذ ، والإقتباس والتوليد / و الإنتحال و الإحتذاء والمسخ [2].

وأخد مصطلح السرقة في عصرنا مفهوما جديدا يستوعب المصطلحات السابقة وهو (التناص) الذي يعني :

" الدخول في علاقة نصوص مع نص بكيفيات مختلفة ، والتناص شئ لا مناص منه لأنه لإفكاك للإنسان من شروطه الزمانية و المكانية و محتوياتها .... فأساس إنتاج أي نص هو معرفة صاحبه في العالم ، و هذه المعرفة هي ركيزة تأويل النص من قبل المتلقي أيضا " [3].

و يسمي <ابن شهيد> السرقة بالأخذ ، و هو < يستعمله لمعانٍ متعددة ، بعضها يتصل بالسرقة المذمومة حالاً في طياته معنى قدحيا للكلمة ، و بعضها الآخر لا يمت إلى هذه الدلالة المستخلصة بصلة و إنما يريدُ التقليد أو التضمين أو الإقتباس أو ما شاكل ذلك من أنواع الإحتذاء > [4] ، ووضع له أسسا متعددة أظهرها على لسان شيخ من الجن يعلّم ابنه صناعة الشعر يقوله :" إذا اعتمدت معنى سبقك إليه غيرك فأحسن

(1) الجمحي نب سلاّم ، طبقات فحول الشعراء ، قرأة و شرحه أبو فِهْرْ محمود محمد شاكر ، (د،ط) دار المدني بجدّة للنشر ، (د،س) ، ج1/ ص : 58 .و " ابن قتيبة " ، الشعر و الشعراء ، ت. أحمد محمد شاكر ، (د،ط) دار المعارف ، القاهرة ، سنة 1966م ، ج2 ، ص : 14

(2) محمد سعيد محمد ، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص : 278.

(3) حافظ صبري ، التناص و إشارات العمل الأدبي ، مجلة عيون المقالات ، عدد 2 / 1986م ، الدار البيضاء ، ص : 77 و ما بعدها .

(4) حدوش العياشي ، حركة النقد الأدبي في قرطبة عصر الحجابة و الفتنة ، (د،ط) ، كلية تطوان ، (د،س) ، ص: 170.

تركيبه وأرق حاشيته فاضرب عنه جملة ،وإن لم يكن بدٌ ففي غير العروضِ التي تقدمَ إليها ذلك المحسن لتنشط طبيعتك و تقوي متنك> [1] .

" فأبو عامر" ينصح الشعراء بابتعاد عن المعاني العقيمة التي لا يستطيعون مجاراتها والنسج على منوالها أو الإجادة فيها ، لكن إذا أصرَّ أخذٌ الأدباء على مجاراةِ نِتاج غيره ، فعليه أن يُنشد شعره في عروضٍ مخالفْ ليستطيع بذلك أن يغيّر إيقاع شعره ؛ لما للإيقاع من أهمية في ذلك . و دَعَمَ " أبو عامر" نظريته هذه بالتطبيق فقال

عن " عمر بن أبي ربيعة" إنه أخفق في قوله حين قال محاولاً مجاراة قول " امرئ القيس" .

و نفّضت عنّي النوم أقبلت مشية ال حباب و ركني خيفة القوم أزور

فقد أساء " عمر" قسمة البيت و أراد أن يلّطف التوّصل فجاء يَرْكُنُ كَرُكْنِهْ أَزورُ على رأي " جني أبي عامر " فاتك ابن الصقعب" . لكن هذا المعنى الذي لا يُجارى لم يجعل " ابن شهيد" يبتعد عنه بل أراد أن ينسج على منواله ، وربما تفوق عليه، فطبّق عليه قاعدته السابقة؛ و هي أن يركّب عروضًا غير العروض السابقة و أنشد مقطوعته التي تعطي معنى بيت " امرئ القيس" ، و هي :

ولمّا تملأ من سكره فنام و نامت عيون العسس

دنوتُ إليه على بعده دُنوَ رفيقٍ درى ما التمسْ [2]

فغير العروض و الوزن ، فقافيّة " أبي عامر" السين و بحره المتدارك ، أما قافية " امرئ القيس" فهي اللاّم ، و بحره الطويل.[3]

(1) الشنتريني ابن بسام ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، ج1/ م1/، ص : 287.
(2) المصدر نفسه ، ص: 287.
(3) رضوان الداية محمّد، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، ص: 303.

و بعد أن تناول مَعْنىَ لأول شاعرٍ عربي وصل شعره و هو " امرؤ القيس" ، انتقل إلى مجاراة أشهَرِ شاعرٍ عربي عرفته العربية في القرن الهجري الرّابع ، و الذي أطبقت شهرته الآفاق ، و قال عنه " ابن رشيق" إنه < لملأ الدنيا و شعل الناس > [1] و هو "المتنبي " . < وهذا يبين لنا أن أبا عامر يبين فرادَتَهُ في الأندلس كشاعرٍ لا يضاهيه أحدُ ، و هي في الوقت نفسه أحد الشعراء القلائل المتميزين يقف جنبا إلى جنب مع امرئ القيس و المتنبي ؛يقول على لسان تابعه " فاتك بن الصقعب" حين سأله : هل جاريت أحدًا من الفحول؟ فردّ عليه بقوله : نعم ، و أنشد قول <أبي الطيب":

أَاَخْلَعْ المجد عن كتفي و أطلبه و أترك الغيث في غمدي و أنتجع .

و أنشد بعد ذلك ما نسجه على موالـه:

و من قبة لا يدرك الطرف رأسها تزل بهاريجُ الصبا فتحـدِرُ

وإذا زاحمت منها المخارف صوبت هويا على بعد المدى وهي تجـأر

تكلّفتها و الليل قد جاش بحـره و قد جعلت أمواجـه تتكسر

و من تحت حضني أبيض ذو سفاسقٍ و في الكف من عسالة الخط أسمر

و أعجب تابع" ابن شهيد" بمسامعه من شعر الشاعِرْ و قال : " و الله لئن كان الغيثُ أبلـغ فلقد زدت مليحة طريفة ، و اخترعت معاني لطيفة " [2] .

وظّل " أبو عامر" وفيًا لقاعدته في مجاراته لبيت " المتنبي" الذي جاء على قافية العين و بحر البسيط ، أما مقطوعة " أبي عامر" فقد جاءت على قافية الرّاء و بحر الطويل.

(1) القيرواني ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، 1/، ص: 100.

(2) الشنتريني ابن بسام، الذخيرة ن ج1/م1/، ص: 289.

و لم يكتفِ بمثالٍ واحِدْ للأخذ مع المتنبي ، بل مثل بأربعة نماذج ، و أنشد تابعه شعرًا لهُ و لأفراد عائلته، و في تقدير الدكتور " محمد سعيد محمد"– أنه أراد أن يُثبت أنه شبيهُ " بالمتنبي " و لَهُ جذورُ عميقة في هذا المجال ن و مثلما يقف " المتنبي " في صدارة شعراء المشرق دون منازع ، فإن " أبا عامر" شاعَرٌ الندلس بلا منازع.[1]

3- المعارضات الشعرية :

< و المعارضة في الشعر أن يقولَ شاعرُ قصيدة في موضوعٍ ما من أي بحر و قافية فيأتي شاعرٌ آخر فيُعجب بهذه القصيدة بجانبها الفني و صياغتها الممتازة ، فيقول قصيدة من بحر الأولى و قافيتها ، و في موضوعها

أو مع انحراف عنه يسير أو كثير، حريصا على أن يتعلق بالأوّل في درجته الفنية أو يفوقه فيها دون أن يعرِض لهجائه أو سبّه ، و دون أن يكون فخره صريحا علانية ، فيأتي بمعانٍ أو صُوّرٍ بإزاء الأولى تبلغها في الجمال الفني أو تسمو عليها بالعمق أو حسن التعليل، أو جمال التمثيل، أو فتح آفاق جديدة في باب المعارضة> [2].

<و قد كانت الأندلس في القرن الرابع الذي وُلد فيه " أبو عامر" لا زالت في بداية الطريق و في مرحلة تمثل التراث .

الوافد، وجمع تراثها الذي أُنتج خلال القرنين الثاني و الثالث ، و لذلك لا يُستغربُ أن تكون المعارضة في نهاية القرن الرّابع و بداية الخامس وسيلة من وسائل الإجادة عند الأندلسيين ، و هو ما دفع ناقدا من نقاد

(1) محمد سعيد محمد ن دراسات في الأدب الأندلسي ، ص: 281.

(2) د. الشايب أحمد، تاريخ النقائض في الشعر العربي ، الطبعة الثالثة ن مكتبة النهضة المصرية ، سنة 1998م ، ص : 7.

الوافد، وجمع تراثها الذي أُنتج خلال القرنين الثاني و الثالث ، و لذلك لا يُستغربُ أن تكون المعارضة في نهاية القرن الرّابع و بداية الخامس وسيلة من وسائل الإجادة عند الأندلسيين ، و هو ما دفع ناقدا من نقاد الأندلس البارزين، وهو " أبو عامر بن شهيد" ، إلى أن يوليها اهتمامه؛ يقول في كتابه " حانوت عطار" و هو يترجم

< لعبد الرحمان بن أبي الفهد> و يعلق على أشعار له: " و هو غزير المادة واسع الصدر حتى أنه لم يكدْ يُبقي شعرًا جاهليا أو إسلاميا إلا و ناقضه> [1] ، و تعجب كيف تكون له مرتبة أقل من مرتبة " عبادة" و له القدرة على المعارضة لكبار شعراء العربية.[2] وقد تبنى " أبو عامر" جزءاً من شعره عليها ؛ ففي رسالة " التوابع والزوابع" نجده يعارض كبار شعراء الجاهلية الذين التقى بهم في رحلته إلى أرض الجن ، فقد عارض " امرأ القيس " في قصيدته الشهيرة:

سما لك شوقٌ بعدما كان أقصرا و حلت سليمى بطن قوفعرعرا

بقصيدته التي وصلنا شطرٌ واحدٌ منها – من مطلعها– : شَجَتهُ مغانٍ من سليمى و أدؤرُ

فنجد ان " أبا عامر" عارض" امرأ القيس" في الوزن و القافية؛ فكلاهما على قافية الرّاء و من بحر الطويل، و قد تطابقت التفعيلات تماما . و يبدو أن تابع " امرئ القيس" حين سمع شعر" أبي عامر" أُعجب به و أجازه دون تعليق و كأن ما أنشده لَهُ كان على درجة عالية من الجودة[3]

كما عارض " طرفة" في قوله:

لهندٍ بحزّان الشريف طلول تلوح، و أدنى عهدهن مجبل [4]

(1) الحميدي ، جذوة المقتبس، ص : 277.

(2) المصدر نفسه ، ص : 277.

(3) الشنتريني ابن بسام ، الذخيرة ، ج1/م1/، ص : 249–250.

(4) طرفة ابن العبد، الديوان، ت، د، محمد محمود،(د.ط)،دار الفكر اللبناني،بيروت،سنة:1994م ، ص : 112.

بقوله في قصيدة وصل إلينا شطرُ من مطلعها:

أمِن رسم دارٍ بالعقيق مجبل.....

فقد نظم الشاعران شعرهما على بحر الطويل وتطابقت التفعيلات ، و يظهر على هذه القصيدة التي سبقتها قوة الألفاظ ذات الجرس الموسيقي ، و فيها روح القصيدة الجاهلية منذ مطلعها ، و لا غرابة في ذلك فهي في معارضة شاعرٍ جاهلي ، الأمر الذي دفع< بعنترة بن العجلان> تابع" طرفة" إلى إجازة " أبي عامر " بعد أن صاح مُعجبًا.[1]

و آخر شاعرٍ جاهلي عارضه هو " قيس بن الخطيم" في قوله:

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائرٍ لها نقدٌ لولاَ الشعاع أضاءها [2]

بقوله في قصيدة مطلعها :

منازلهم تبكي إلينا عفاءها سقتها الثريا بالغري نحاءها [3]

فالقصيدتان بُنيتا على بحر الطويل ، و لكن ما يُلاحظ هو تغيير طفيف في التفعيلات،و هذا يدُل على أن " أبا عامر" يملك القدرة على المعارضة باستعمال الزحافات و العلل دون أن يفسد ما يصدرُ عنه ويُبين قدرته ، و له معارضات شعرية أخرى لشعراء آخرين من شعراء العصر العباسي أمثال أبي نواس ، و البحتري ، و المتنبي .[4]

و ما يلاحظ على القصائد الثلاثة التي عارضها " أبو عامر" هو أنها من بحر الطويل، و قد سبق إلى هذه الملاحظة أحد الباحثين، فقال في ذلك : < إن معظم القصائد المعارضة من طرف ابن شهيد كانت من

(1) الشنتريني ابن بسام ن الذخيرة ن ج1/م1/، ص: 251.

(1) ابن الخطيم قيس، الديوان ،ت،د. ناصرالدين السد، ص : 7.

(2) ابن شهيد ن الديوان ن ت،د. يعقوب زكي ، ص : 82.

(3) الشنتريني ابن بسام ن الذخيرة ، ج1/م1/، ص : 253 وما بعدها.

بحر الطويل و هي إشارة ذكية منه على قوّة شكيمته في مجال الشعر فهو لم يرض أن تكون تلك القصائد المستهدفة من طرفه من البحور الصافية القصيرة التي يتعامل معها غيرُ الفحول من الشعراء.... بل أبى إلاّ أن يكون من الصفوة المتميزة بطول النفس المنسجمة على البحور الطويلة المركبة> . [1]

و لم يكتف " أبو عامر" بمعارضته للشعراء، بلْ لَمْ يسلم الكتاب من ذلك ، فقد عَارَضَ " الجاحظ" بكلامٍ جاء فيه السجع و المماثلة، و هو ما أقرّه عليه تابع " الجاحظ" و طلب منه أن ينشده من أهل بلده. [2]

كما عارض " بديع الزمان " عن طريق < زبدة الحقب> ، و كان " أبو عامر" هو الذي طلب من تابع" البديع" أن يسمعه وصفه للماء فقال التابع: هو من العقم؛ أي لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثله و أسمعه له ، و قال : < أزرق كعين السنّور، صافٍ كقضيب البلور ، انتخب من الفرات ، و استعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة في صفاء الدمعة> [3]

و عارضه " أبو عامر" بقوله< انظره يا سّيدي كأنه عصير صباح ، أو ذوب قمر لياح،له في إنائه انصباب الكوكب في سمائه، العين حانوته و الفم عفريته، كأنه خيطُ من غزل فلق....[4] ، و بعد انتهاء " أبي عامر" من وصفه ضرب" زبدة الحقب" الأرض برجله و غاب و انقطع أثره ، و كأن تابع" البديع" شعر بهزيمته< أمام أبي عامر> ويرى الدكتور محمد سعيد محمد أن هذا الأخير كان قاسيا في حكمه على وصف "بديع الزمان" للماء إذ جاء بنهاية لا تليق بتابعه ، و نحن نعلم أن " أبا عامر" تَلْمَذَ لبديع الزمان من خلال مقاماته التي كانت أمامه وهو يكتب رسالة " التوابع و الزوابع" . [5]

---

(1) محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص : 286.
(2) الشنتريني ابن بسام ، ج1/م1/، ص : 268-269.
(3) المصدر نفسهً ص : 276.
(4) المصدر نفسهً : 276.
(5) محمد سعيد محمد، المرجع نفسه، ص: 284.

نخلص من خلال ما سبق إلى أن ما دفَع " أبا عامر" للإتيان بهذه المعارضات هو إثبات تفوقه الأدبي شعرا و نثرا ذلك الإثبات الذي صرح به على لسان الجاحظ و عبد الحميد حين دار بينهما الحوار التالي:< يقول أبو عامر أن الأستاذين عتبة من أرقم تابع الجاحظ ، و أبا هبيرة تابع عبد الحميد قالاَ له : إنا لنخبط منك ببيداء حيرة فتفتق أسماعنا منك بعبرة و ما ندري أنقول : شاعرٌ أم خطيب، فقلت : الإنصاف أولي ، و الصّدع بالحق أحجى ولا بد من قضاء . فقال : اذهب فإنك شاعر خطيب ،وانقضّ الجميع والأبصارُ إليّ ناظرة ، والأعناق نحوي ماثلة .> [1]

و الجانب الآخر هو أن الأندلسيين نظروا على أن المعارضات الشعرية دليلٌ على التفوق لدرجة أنها أصبحت عامة في شعر الأندلسيين ابتداءً من عصر " ابن عبد ربه" ، و مرورًا بشعراء " عبد الرحمان الناصر" ، فشعراء ما بعد الخلافة ، ثم انتهاءً بشعراء بني نصر ، فقد حذَا كثيرٌ من شعراء هذه المراحل حَذْوَ " أبي تمام ط في بناء القصيدة ط على سبيل المثال ن إلى جانب ظهور معارضات لمختلف القصائد عبر العصور الأدبية. [2]

و بذلك يكون " ابو عامر" بدفاعه عن المعارضات يُدافع عن شخصية الأدبية و الأندلسية تلك التي إستطاعت بعد التقليد و المعارضات و المناقضات أن تميّز نفسها ، و من هنا جاء اعتبار المعارضة غير معيبة. [3]

4- البديهة و الإرتجال:

البديهة و الإرتجال مصطلحان متداخلان عند نقاد الأندلس ، فكلاهما يعني القول دون تروٍ وطول

(1) الشنتريني ابن بسام ن الذخيرة ، ج1/م1/، ص : 278.

(2) محمد سعيد محمد ، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص : 284.

(3) الحسيني قاسم، المؤثرات الثقافية في القصيدة الشعرية الأندلسية ن مجلة كلية الآداب و العلوم افنسانية ، الرّباط ن عدد16، ص : 144.

تفكير ، وقد يستعملون الأوّل و يريدون الثاني ، و لكن بعضهم فرق بينهما ، و قد سبق التفريق بينهما ، و قد أولى < أبو عامر بن شهيد " هذا الجانب اهتمامًا كبيرًا في كتابه " حانوت عطّار " و في الرسالة " التوابع و الزوابع " ، ثم في إشارته النقدية التي أثبتها ابن بسام في كتاب الذخيرة.

يقول في كتابه " حانوت عطّار " مُشيدًا بسرعة " الزبيري" : " كان أميًا لا يقرأ و لا يكتب و كان مع هذا من أطبع الناس شِعرًا و أسرعهم بديهة و كانت له منزلة من رجال النصر و أهل الجاه منهم > [1] و له إشارات نقدية أخرى يمجّد فيها البديهة و هو يتحدث عن فئة المعلمين بقرطبة و يبين حالته و حالتهم في المحافل : " وإنّما يتبين تقصير المقصّر و فضل السابق المبرز إذا اصطكت الركب و ازدحمت الحلق و استعجل المقال لم توجد فسحة لفكرة و لا أمكنت نظرةٌ لروية< [2] ، يرى " أبو عامر " في هذّا النص أن الإجادة و عدمها تظهر لمن هو مطبوع يقول على البديهة فذلك هو المجيد ، أما من لا يستطيع فهو قاصرُ و تنتفي عنه الشاعرية في نظر أبي عامر[3] .

وقد مجدّ " أبو عامر " الإرتجال في رسالة " التوابع" حين التقى في بركة الماء في أرض الجن < بأم خفيف> تابعة أحد اللغويين الأندلسيين ، وبعد الحوار الذي دار بينهما سألته: " ما الذي تحسن ؟ قال لها : ارتجال شعر و اقتضاب خطبة على حكم المقترح و النصبة> [4] .

و الغريب الذي يُلاحظ هو أن " أبا عامر" لم يُورِدْ شِعْرًا لأحد التوابع الذين التقى بهم بديهة أو ارتجالاً ، و يبدو أن السبب هو أن الذين يقابلهم من توابع الشعراء هم قمم شعراء العربية ولذلك لابُدَ من انتقاد

(1) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص : 408.
(2) الشنتريني ابن بسام ن الذخيرة ج1/م1/، ص : 244.
(3) محمد سعيد محمد ن دراسات في الأدب الأندلسي ، ص : 285.
(1) الشنتريني ابن بسام ، الذخيرة ، المصدر نفسه، ص : 299.

الأشعار التي سينشدها بين أيديهم لينال الإجازة و التفوق . أما شعره الذي ورد على البديهة فقد تناثر في أماكن أخرى غير رسالة " التوابع والزوابع " ، نستشهَدُ بمثالٍ على ذلك من أمثلة كثيرة وردت في كتاب الذخيرة ، وفي مطمح الأنفس [1] ، ومن ذلك مقطوعة ارتجلها في إحدى كنائس قرطبة حين بات فيها ليلة من الليالي يعبث و يشرب الخمر:

ولرُبَّ حانٍ قد شممت بديره خمر الصبا مزجت بصرفِ عصيره

في فتنة جعلوا السرور شعارهم متصاغرين تخشعًا لكبيرة

و القس مما شاء طول مقامنا يدعو بعود حولنا بزَبُورِ

يهدي لنا بالرّاج كلُ مُصَفَّر كالخشف خفزَّهُ التماح خفيره

يتناول الظرفاء فيه و شَرْبِهِمْ لِسُلافِهِ و الأكل من خنتريره [2] .

< ومن خلال ما سبق يتضّح أن " أبا عامر " يُعلي من شأن البديهة لأنها في نظره من صفات الشاعر المطبوع وتدل على أصالة صاحبها و هي التي تميز بين الشاعِر الأصيل و غير الأصيل ، أو المجيد و المقصّر ، وما إعلاؤه لها إلاّ لأنه أحد شعراء البديهة ، أو قُل إنه يرى نفسه يقف في صدارتهم.

و له إشارات نقدية أخرى وردت في رسالة " التوابع " ، منها موقفه من علماء اللغة و أشار إلى ذلك حين دار بينه و بين أوزَّة محاورة ، و الأوزة تابعة أحد شيوخ اللغة في الأندلس ، و يتضح من خلال الحوار أن اللغويين أو بعضهم يستنقصون الأدباء فينتصر أبو عامر للأدباء الذين يرى أنهم أهل البيان ، ومن ذلك فكرة موقفه من اللغويين حين تحاور مع " تابع الإفليلي " الذي قال " لأبي عامر " : " طارحني في كتاب الخليل ، فردّ عليه : هو عندي في زمبيل ، أما كتاب سيبويه فقال له عنه: خريت الهرّة عندي عليه و على شرح ابن درستويه> [3].

و لا يُريد أبو عامر أن ينتقص من علوم النحو و اللغة و لكنه يريد أن يفيد منها الأدباء بقدر ما يخدَّم موضوعاتهم.

---

(1) محمد سعيد محمد ، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص : 286.

(2) الفتح ابن خاقان ، مطمح الأنفس و مدح التأنس ، ت– محمد علي الشوابكة ، ص:195.

(3) محمد سعيد محمد ، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص:287.

و الرحلة في تقدير الدكتور محمد سعيد محمد لم ينته ؟ لأننا لا نعرف مصير الكاتب و لا مصير تابعه بعد الإنتهاء من الحديث مع قمر الجن ، غير أنه يرى أ، اللفت للنظر أ الترتيب الذي رتبه لها "إبن تمام " فيه منطقية و يحقق الهدف الذي من أجله ألف " ابن شهيد " رسالته الشيء الذي يجعلها نفترض أن ابن تمام حذف من داخل الفصول الرئيسية فهي ثابتة حتي و لو حذف منها فإنه حذف منها ما لا يؤثر على الجوهر .[2]

****

وخلاصة القول فهذه هي رسالة "التوابع والزوابع " لإبن شهيد الأندلس ،إحدى ثمرات الأدب الخيالي الإمتاعي الفكاهي الأندلسي ،التي تعد في الطليعة من ألوان أدب الرّحلات ،والرّحلات الخيالية الأندلسية على سبيل التخصيص العربية عموما .وإذا كانت رسالة " إبن شهيد " أشتهرت بمصطلح الرسالة فإنها رسالة من حيث القصد تأليفها أمّا مضمونها فهو أقرب إلى الفن القصصي .

---

(1)محمد سعيد محمد ، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص:287.

(1) – محمد سعيد محمد ، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص:253

9 – مضمون الرسالة :

عرفنا سابقا أن أبا عامر بن شهيد كان كثير الخصوم والحساد من رجالات الأدب والسياسة فقد لقي منهم عنتا وأذية لم يصبر لهما ، بعد إذ شككوا في قدراته على النظم والنثر، وراحو يسخرون منه، ويتغامزون عليه في المجالس النقد و الأدب ، ومن ثم لم يتذلوه المكانة الأدبية اللائقة به ، والتي كان يرى نفسه أهلا بها ، فانبرى بواقعهم ويجابههم، ومضى ينشد العدل و الإنصاف في عالم أخر غير عالم الإنس،في محكمة أخرى لا تعرف الإفتراء و الظلم و تعطي كل ذي حق حقه .

(فيمضي ابن شهيد في رحلة خيالية إلى أرض الجن برفقة صديقه الجني زهير بن نمير فيصطحبه إلى وادي عبقر أو أرض التوابع و الزوابع طائريه على متن جواده الذي يقطع بهم الفيافي بعد الفيافي إلى أن يصل إلى وادي الأرواح حيث يلتقي بتوابع الشعراء والكتاب فيحاورهم ثم يحضر مجالسهم نقاد الجن فيستمع إليهم و يسمعهم ، وينتقل إلى مجالس حيوان الجن فيفعل مثل ذلك أيضا)[1]

لقي "أبو عامر" بصحبه "زهير ابن نمير" توابع الشعراء المشهورين ، و الكتاب المبرزين كما التقى بشياطين بعض خصومه من معاصريه ، فلقي عتيبة بن نوفل تابع إمرئ القيس و عنتر ابن عجلان تابع طارفة ،وأبا خطال تابع قيس بن الخطيم من الشعراء الجاهلين ،ولقي عتاب بن حبناء تابع أبي تمام ، وأبا الطبع الختري وحسين الدنان تابع أبي نواس ، وحارثة بن المغلس تابع المتنبي ، كما التقي أيضا ببعض شياطين الكتاب ، وهي

(1) بن سلامة الربعي ،،محضرات في الأدب المغربي والأندلسي ، ص : 144.

فكرة جديدة صاحبها أبو عامر بشياطين صفوة كتاب العربية وهم عتبة بن أرقم تابع الجاحظ ، و"أبو هبيرة" تابع عبد الحميد ، وزبدة الحقب تابع بديع الزمان .

ولا يقف "ابن شهيد" في قصته عن المقابلة التوابع الذي مر ذكرهم ، وإنما تلقي به طبيعة رحلته إلى مجلس أدب رائق عقده بعض أدباء الجن الذي أخذوا يتناشدون قصائد لأعلام الشعراء من جاهلين وإسلاميين وعباسيين مثل الأفوه الأودي والنابغة الذبياني وأبي نواس وصريع القوني وأبي تمام و المتنبي ، وتكون جلسة مجموعة الجن الأدباء جلسة نقدية يعرضون فيها لأقوال الشعراء الذين مر ذكرهم في مقام وصف الطيور فيبدون جميعا دون المستوى أمام شاعر جني اسمه فتاك بن الصقعب الذي ينشد شعرا جميلا في الغرض نفسه فينال إعجاب الجن الأدباء.[1]

يبدأ ابن شهيد قصته البديعية بقوله :

< لله أبا بكر ظن رميتك فأصميت ، وحدس أملته فما أشويت أبديت بهما وجه الجلية وكشفت عن ثمرة الحقيقة ، حين لمحت صحبك الذي تكسبته ، ورايته قد أخذ بأطراف السماء ،فألق بين قمريها ،وتظم بين فرقديها ،فكلما رأى ثغرا شده بسهاها ، أو لمح خرقا رمه يزياناها ، إلي غيرة ذلك .فقلت كيف أوتي الحكم صبيا ، وهذا بجذع نخلة الكلام فا تساقط عليه رطبا جنيا ، أما إن به شيطانا يهديه، شيصبانا يأته ، وأقلم أن له تابعة تنجده ، ورابعة تؤيده ، ليس هذا في قوة الإنس، ولا هذا النفس لهذه النفس، فأما وقد قلتها أبا بكر ، فأصغ اسمعك العجب العجاب.

(1)الشكعة مصطفي ،الادب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص:677 .

كنت أيام كتأب الهجاء ،أحن إلى الأدباء ،وأصبو إلى تأليف الكلام ، فاتبعت الدواوين ، وجلست إلى الأساتذة ، فنبض لي عرق الفهم ، و در لي شريان العلم بمواد روحانية ، وقليل إلا لتماح من النظر يزيدني ، ويسير المطالعة من الكتب يفيدني ، إذا صادف شن العلم طبقة ولم أكن كالثلج تقتبس منه نارا ، ولا كالحمار يحمل أسفار، فطعنت ثغرة البيان حراكا ، وأعلقت رجل طيره أشتراكا ، فانثلت لي العجائب ،وانهالت علي الرغائب ، وكان لي أوائل صبوتي هوى إشتد به كلفي ثم لحقني بعد ملل في أثناء ذلك الميل ، فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الميل ، فرجعت وأخذت في اثائه يوما في الحائر ، وقد أبهمت علي أبوابه وانفردت فقلت[1]

تولى الحمام بظبي الحذور وفاز الردى بالغزال الغدير

إلى أن انتهيت إلى الإعتذار من الملل الذي كان فقلت :

وكنت مسك لا عن قلبي ولا عن فساد جرى في ضميري.

فأرتج علي القول وأفحمت ، فإذا أنا بفارس على باب المجلس على فرس أدهم كما بقل وجهة ، وقد اتكأ على رمحه وصاح بي : أعجزا يا فتى الإنس ؟ قلت : لا وأبيك ، للكلام أحيانا ، وهذا شأن الإنسان ، قال لي : قل بعده :

كمثل ملالي القن للنعيم إذا دام ، وحال السرور .

---

(1) المرجع السابق ، ص: 644 .

فأثبت إجازته ، وقلت له : يأبي أنت ، من أنت ؟ قال أنا زهير بن نمير من أشجع الجن ، قلت : وما الذي حداك إلى التصور لي ؟ فقال : هوى فيك ، ورغبة في إصطفائك >[1] < قلت أهلا بك أيها الوجه الواضح ، صادفت قلبا إليك مقلوبا ،وهوى نحوك مجنوبا. وتحدث حينها ثم قال : متى شئت استحضاري فأنشد هذه الأبيات .

وإلى زهير الحب يا عز إنه إذا ذكرته الذاكرات أتاها

إذا جدت الأفواه يوما يذكرها يخيل لي أني أقبل فاه

فأغشت ديار الذاكرين وإن نأت أجارع من داري ، هوى لهواه

و أوثب الأدهم جدار الحائط ثم هاب عني وكنت، ابا بكر ، من أرتج علي أو انقطع بي مسلك ، أو خانني أسلوب ، أنشد الأبيات فيمثل لي صاحبي ، فأسير إلى ما أرغب،وأدرك بي قريحتي ما أطلب،و تأكدت صحبتنا،وجرت قصص لولا أن يطول الكتاب لذكرت أكثرها ،لكني ذاكربعضها>

وبعد هذا الإستهلال الذي شرح فيه ابن شهيد نشأة صحبته لقد يبد الجني الأشجعي بمضي في حديثه واصفا كيف أتيح له بمساعدة تابعه أن يذهب إلى واد الجن ويلقي توابع الشعراء الذين أشدنا إليهم في صدر حديثنا عند تلخصنا لهذه الرسالة فيقول :

< تذاكرت يوما مع زهير بن نمير أخبار الخطباء و الشعراء ،وماكان يألفهم من التوابع والزوابع وقلت : هل حيلة له في لقاء من اتفق منهم؟ قال:حتى استأذن شيخنا، وطار عني ثم انصرف كلمح للبصر، وقد أذن له ، فقال: حل على متن الجواد فصدنا عليه وصار بنا

(1) المرجع السابق ، ص:645 .

كالطائر يجتاب الجو فالجو، ويقطع الدو فالدو حتى التمحت أرضا لا كأرضنا ،وشارفت جو الا كجونا ،متفرع الشجر،عطر الزهر، فقال لي:حللت أرض الجن أبا عامر، فبمن تريد أن تبدأ ؟ قلت!الخطباء أولى بالتقديم [1] ،لكني إلى الشعراء أشوق >.

قال :فمن تريد منهم ؟قلت:صاحب امرئ القيس ،فأمال العنان إلى واد من الأودية ذي دوح تتكسر أشجارها ،وتترنم أطياره ،فصاح يا عتيبة بن نوفل ،بسقط اللوى فحومل ،ويوم دارة جلجل ،إلا ما عرضت علما وجهك،و أشدتنا من شعرك ، وسمعت من الإنس،وعرفتنا كيف إجازتك له .فظهر لنا فارس على فارس شقراء كأنها تلتهب،فقال :حياك الله يا زهير،وحيا صحبك ،أهذا فتاهم ؟قلت:هو ذا وأي جمرة يا عتبة ،فقال لي :أنشد ،فقلت :السيد أولى بالأشياء ،فتطمح طرفه ،واهتز عطفه ،وقبض عنان الشقراء ،وضربها بالسوط فسمت تحضر عناء ،وكر فاستقبلنا بالصعدة هازا لها ثم ركزها وجعل ينشد>[2]:

سما لك شوق بعدما كان أضرا ....

حتى أكملها ثم قال لي : أنشد فهممت بالحيصة ،ثم اشتد قوى نفسي وأنشدت:

شجته مغان من سليمى وأدور.

حتى انتهيت إلى قولي :

ومنقبة لا يدرك الطرف رأسها تزل بها ريح الصبا فتحدر

تكلفتها والليل قد جاش بحره وقد جعلت أمواجه تتكسر

(1) المرجع السابق ، ص : 646 .
(2) المرجع السابق ،ص:647

ومن تحت حضني أبيض ذو سفاسق وفي الكف من عسالة الخط أسمر

هما صاحباي من لدن كنت يافعا مقيلان من جد الفتى حين يعثر

فذا جدول في الغمد تسقى به المف وذا غصن في الكف يجنى فيثمر

فلما انتهت ،تأملني "عتيبة" ثم قال :<اذهب فقد أجزتك > وغاب عنها.

ويمضي أبو عامر وصاحبه زهير فيلتقيان في واد من الأرض الجن يقال له واد عتيبة "بعنترة بن العجلان " شيطان طرفة فيرحب بهما ويستنشد "أبا عامر" شياء من شعره وفيجيبه "أبو عامر" في أدب جم :الزعيم أولى الإنشاد ،فينشد الشيطان قصيدة "طرفة" :

لسعدى بحزان الشريف طوال

فينشده أبو عامر قصيدة :

امن رسم دار بالعقيق محيل

وما إن ينتهي من الإنشاد حتى يصيح عنترة : لله أنت ،اذهب فإنك مجاز،ثم يغيب عنها .

ويجري لأبي عامر وصاحبه مع أبي الخطار شيطان قيس بن الخطيم ما جرى لهما مع تابعي امرئ القيس وطرفة من استنشاد وإنشاد ،ويجيز أبو الخطار أبا عامر على شعره .ويمضي شاعرا الإنس و الجن في طريقهما بعد لقائهما أبا الخطار إلى لقاء عتاب بن حبناء شيطان أبي تمام ،ولنترك ابن شهيد يحكي هذا الجزاء من القصة[1]:< ثم انصرفنا ،وركضنا حتى انتهينا إلى شجرة غيناء يتفجر من أصلها عين كمقلة حوراء،

(1) الشكعة مصطفى ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص: 647-648 .

فصاح زهير: يا عتاب بن حبناء ،حل بك زهير وصاحبه فبه مرو والقمر الطالع ، والرفقة المفكوكة الطابع ،إلا ما أريتنا وجهك ، فانفاق ماء العين عن وجه فق كفلته القمر ،ثم اشتق الهواء صاعدا إلينا قعرها حتى استوى معنا ،فقال : حياك الله يا زهير،وحيا صاحبك فقلت :وما الذي أسكنت قعر هذه العين يا عتاب؟قال :حيائي من التحسن باسم الشعر وأنا لا أحسنه ،فحصت :ويلي منه ،كلام محدث ورب الكعبة ،واستنشدني فلم أنشد إجلال له ،ثم أنشدته:[1]

< أبكيت إذا ظعن الفريق فراقها

حتى انتهيت فيها إلى قوله:

إني امرؤ لعب الزمان بهمتي وسقيت من كأس الخطوب دهاقها

وكبوت طرفا في العلافا ستضحكت حمر الأنام فما تريم نهاقها

وإذا ارتمت نحوى المنى لأنالها وقف الزمان لها هناك فعاقها

وإذا أبو يحي تأخر نفسه فمتى أو مل في الزمان لحاقها >[2]

< فلما انتهيت قال : أنشدي من رثائك ، فأنشده :

أعينا امرأ نزحت عينه ولا تعجبا من جفون جماد

إذا القلب أحرقه بثه فإن المدامع تل الفؤاد.

---

(1) المرجع السابق ، ص :649 .

(2) المرجع السابق ،ص:649.

ويزداد إعجاب عتاب بشعر أبي عامر بعد أن سمع مرثيته كلها فيستزيده إنشاء المزيد من الرثاء ، فينشده قصيدة رقيقة حزينة كان الشاعر قالها هي وسابقتها في رثاء < عبيدة حسان بن مالك> وزير<عبد الرحمن بن هشام > أيام الفتنة:

وكيف اهتدائي في الخطوب إذا نجت وقد فقدت عيناي ضوء نجوم

مضي السلف الواضح إلا بقية كغرة مسودة القميص بهيم

أنا السيف لم تتعب به كف ضار صروم إذا صادفت كف صروم

سعيت بأسرار الرجال فخانني رجال ولم أنجد عظيم

وضيفي الأملاك بدءا وعودة فضعت جدار منهم وحريم

فيعجب عتاب شعراين شهيد ويأنس إليه ويسري له نصح الأستاذ للتكبيد قائلا : إن كنت ولا بد قائلا فإذا دعتك نفسك إلى القول فلا تكد قريحتك ، فإذا أكملت فحمام ثلاثة لا أقل ،ونقع بعد ذلك وتذكر قول سويد بن كراع العكلي:

وجشمني خوف ابن عفان ردها فثقفتها حولا كريتا ومربعا

وقد كان في نفسي عليها زيادة فلم أخر إلا أن أطيع وأسمعا

ثم يشهد عتاب لا من شهيد شهادة أثلجت صدره أو هي في الواقع صدى لما في نفس ابن شهيد من مرارة وحفيظة على أهل زمانه فيقول : وما أنت إلا محسن على إساءة زمانك،فيقبل ابن شهيد رأسه ،ثم يغيص عتاب في العين التي منها ظهر.>[1]

(1) المرجع السابق ،ص:650-651 .

< ويسأل زهير أبا عامر عمن يريد مقابلة من التوابع فيقول إنه يريد صاحب أبي نواس ،فيقول زهير إنه يدير حنة منذ أشهر،قد علبت عليه الخمر ، ويفهمه أن هذا الدير بعيد عن مكانهما بعدا شاسعا فيركضان ساعين إليه فيمران على قصر يعيش فيه أبو "الطبع" شيطان "البحتري" ويجري بينه وبين "أبي عامر " إنشاد واستنشاد فينشده أبو عامر قصيدة له مطلعها :

هذه دار زينب و الربان >[1]

< وفيها يقول :

وارتضنا حتى مضى الليل يسعي وأنف الصبح قاطع الأسباب

فكأن النجوم في الليل جيش دخلوا للكمون في جوف غاب

فكان الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب

ويمضي أبو عامر محاولا أن يرضي غرور نفسه متصورا أنه متفوق على شيطان البحتري : فيقول :<حتى أكملتها ، فكمأ نما غشي وجه أبي الطبع قطعة من الليل ،وكر رابعا دون أن يسلم .فصاح به زهير : أأجزته ؟ قال : أجزته لا بورك فيك من زائر ، ولا في صاحبك أبي عامر>.

ويحتشد بعد ذلك ابن شهيد نفسيا اللقاء حسن الدنان شيطان أبي نواس ويفتن في وصف الطريق إليه ،ويختلف جوا نواسيا فيه حانات وخمر وكنائس وأديرة ورهبان وزنانير،

(1) المرجع السابق ،ص:651 .

بحيث نشعر أنه لم يحتشد للقاء شيطان شاعر في وادي الجن احتشاده للقاء شيطان أبي نواس ،ولنترك المجال لقلم أبي عامر ليقول:

< فضرب زهير الأدهم بالسوط ،فسار بنا في قننه ،وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل ،فشق قرع النواقيس فصحت من منازل أبي نواس ورب الكعبة العليا !! وسرنا نجتاب أديارا وكنائس وحانات ، حتى انتهينا إلى دير عظيم تعبق روائحه ، و تصوك نوافحه>[1]فوقف زهير ببابه وصاح :سلام على أهل دير حنة ، فقلت لزهير أو صرنا بذات الأكيراح ؟ قال : لغم ، وأقبلت نحونا الرهابين، تسددة بالزنانير ، قد قبضت على المكاكيز ، بيض الحواجب واللحى ، إذا نظروا إلى المرء استحيا ، مكشرين من التسبيح ،عليهم هدي المسيح ، فقالوا : أهلا بك يا زهير من زائر ، وبصاحبك أبي عامر ، ما بغيتك ؟ قال : حسين الدنان ،قالوا : إنه لفي شرب الخمر ، منذ أيام عشرة ،و ما نراكما منتفعين به ، فقال : وعلى ذلك ونزلنا ، وجاء وابنا إلى بيت له قد اصطفت دنانه ، وعكفت غزلانه ، وفي فرجته شيخ طويل الوجه و السبلة ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وبيده طر جهارة ، و حواليه صبية كأضب تعطو على حرارة فصاح به زهير حياك الله أبا الإحسان ، فجاوب بجواب لا يعقل لغلبة الخمر عليه ، فقال لي زهير : اقرع أذن نشوته بإحدى خمرياتك فإنه ربما تنبه لبعض ذلك ، فصحت أنشد من كلمة لي طويلة:[2]

(1)المرجع السابق ،ص: 652 .

(2)المرجع السابق ،ص :653 .

< ولرب حان قد أدرت بديره فمر الصبا مزجت بصفو نموره

في فتية جعلوا الزقاق تكاءهم متصاغرين نخشعا لكبيره

وترنم ناقوسهم عند صلاتهم ففتحت من عيني لرجع هديره

يهدي إلينا الراح كل معصفر كالخشف خفره التماح خفيره

فصاح من حيائل نشوته : أأشجعي ؟ قلت : أنا ذالك ، فاستدعى ماء قراحا فسرب منه وغسل وجهه ، فأفاق واعتذر إلى من حاله ، فأدركتني مهابته ، وأخذت في إجلاله لمكانه من العلم و الشعر ،فقال لي أنشد،أو حتى أنشدك ؟ فقلنا إن ذلك لأشد لتأنيسي ، على أنه ما بعدك لمحسن إحسان فأنحتد :

يادير حنة من ذات الأكيراح من يصح عنك فإني لست بالصاحي

يعتاده كل محفوف مفارقه من الدهان عليه سحق أمساح

لا يدلفون إلى جاء بأنيه إلا اغترافا من الغدران بالراح >[1]

فكدت والله أخرج من جلدي طربا ، ثم أنشد :

طرحتم من الترحال أمرا فغمّنا

وأنشد أيضا :

لمن دمن تزداد طيب نسيم على طول ما أقرت وحسن رسوم

تجافي البلى عنهن حتى كأنما لبسن من الإقواء ثواب نعيم

---

(1)الشكعة مصطفى ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ،ص:654 .

ومضى فيها حتى أكملها ، ثم قال لي أنشد ، فقلنا : وهل أبقيت للإنشاد موضعا، قال :لا بدلك ، و أوعثابي ولا تنجد ، فأنشدته :

أصبح شيم أمر برق بدا أم سنا المحبوب أدره أزندا

هب من مرقده منكسرا مسبلا للكم مرج للردا

فلما انتهت قال : لله أنت ، وإن كان طبعك مخترعا منك ، ثم قال لي :أنشدني من رثائك شيئا ، فأنشدته في بنية صغيرة :

أيها المعتد في أهل النهي لا تذب إثر فقيد ولها [1]

فلما انتهت قال : أنشدين من رثائك أشد من هذا وأفصح ، فأنشدته من رائي في " ابن ذكوان" ، ثم قال أنشدين بحدريتك من السجن فأنشدته:[2]

قريب بمحتل الهوان بعيد

حتى انتهيت إلى قولي :

فإن طال ذكري بالمجون فإن شقي بمنظور الكلام سعيد

وهل كنت في العشاق أول عاشق هوت بحجاه أعين وخدرد

فمن مبلغ الفتيان أني بعدهم مقيم بدير الظالمين طريد

فبكى لها طويلا ، ثم قال : أنشدني قطعة من مجونك . فقد بعد عهدي بمثلك ، فأنشدته :

وناضرة تحت طي القناع دعاها إلى الله والخير داع

(1) المرجع السابق ،ص: 655 .

(2) المرجع السابق ،ص :656 .

سعت بابنها تبتغي منزلا لو صل التبتل و الانقطاع

فجاءت تهاوى كمثل الرءوم فحلت بواد كثير السباع

وريعت حذارا على طفلها فناءيت :ياهذه لا تراعي

فولت وللمسك من ذيلها على الأرض خط كذيل الشجاع [1]

فلما سمع هذا البيت قام يرقص به ويردده ، ثم قال : < هذا شي لم نلهمه نحن ، ثم استدناني فدنوت منه ، فقبل بين عيني ،وقال اذهب فانصر فنا عنه وانحدرنا من الجيل >.

وبعد أن انتهيا من لقاء شيطان أبي نواس ، انتقلا للقاء < حارتة بن المغلس > شيطان <أبي الطيب>، ونترك المجال لابن شهيد ليقول :< فقال لي زهير ومن تريد بعد ؟ قلت له : خاتمة القول صاحب أبي الطيب فقال : اشدد له حيازيمك ، وعطر له نسيمك ، وانثر عليه نجومك ، وأمال عنان الأدهم إلى طريق ، فجعل يركض بنا، وزهير يتأمل أثار فرس لمحناها هناك ، فقالت له ، ماتتبعك لهذا الأثار ؟قال : هي أثار فرس حارثة بن المغلس صاحب أبي الطيب ،وهو صاحب قنص ،فلم يزل يتقراها حتى دفعنا إلى فارس بيضاء ، كأنه قضيب على كثب ، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه ، وعلى رأسه عمامة حمراء ،قد أرخي لها عذبة صفراء ،فحياه زهير ،فأحسن الرد ناظرا من مقلة سوساء ،قد خلت تيها وعجبا ، فعرف زهير قصدي ،وألقى إليه رغبتي ،فقال بلغني أنه يتناول ، قلت: للضرورة

الدافعة ، وإلا فالقريحة غير صادعة ، والشفرة غير قاطعة ،قال فأنشدني ، وأكبرته أن

---

(1)المرجع السابق ،ص: 656-657 .

أستنشده ، فأنشدته قصيدتي التي أولها [1]

أبرق جدا أم لمح أبيض فاصل

حتى انتهيت إلى قولي :

تردد البرق فيها حتى حسبته يشير إلى نجم الربى بالأنامل [2]

(فلما انتهت قال : أنشدني أشد من هذا ،فأنشدته قصيدتي :

فكلما انتهيت قال الزهير :<إن امتد بهطلق العمر ،فلا بد أن ينفث بدرر ،وما أدراه إلا سيحتضر ،بين قريحة كالجمر ،وهمة تضع أخمصه على مفرق البدر . فقلت : هلا وضعته على صلعة النسر : فاستضحك إلي وقال :اذهب فقد أجزتك بهذه النكتة ،فقبلت على رأسه وانصرفنا >.

وهكذا ينتهي دور أبي عامر وصاحبه على توابع الشعراء ، ولما كان أبو عامر شاعرا كاتبا فإنه لا يترك الفرصة تفلت منه حتى ينزل شياطين الكتاب وينال إعجابهم ،وأبو عامر ابن الشهيد لا يطلق على الكتاب اسم الخطباء ،وقد فعل ذلك الكثير من الأدباء الأقدمين قبل حين أسمر الكتاب خطباء)[3] .

ثم يبدأ دور أبي عامر مع صواحب الكتاب ، إذ يلتقي شيطان الجاحظ وعبد الحميد وصاحب البديع ، زبدة الحقب .ولترك السبيل لريشة أبي لترسم لنا طريقة في رحلته تلك.

يقول زهير ابن شهيد :<فقال لي زهير : من تريد بعد ؟ فقلت بل بي إلى الخطباء ،فقد

(1) المرجع السابق ،ص: 658 .
(2) المرجع السابق ، ص:659 .
(3)الشكعة مصطفي ،الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه،ص:661.

قضيت وطر من الشعراء . فركضنا حينا طاعنين في مطلع الشمس ،ولقينا فارسا أسر إلي زهير وانجزع عنا ،فقال لي زهير جمعت لك خطباء الجن بمرج دهمان ، وبيننا وبينهم فرسخان ،فقد كفيت العناء عليهم على انفرادهم ،قلت :لم ذاك ؟قال : للفرق بين كلامين اختلف فيه فتيان الجن .

وانتهينا إلى المرج فإذا بنا عظيم ،قد جمع كل زعيم ،فصاح زهير : السلام على فرسان الكلام ،فردوا وأشادوا بالنزول فأفرجوا حتى صرنا مركز هالة مجلدهم ،والكل منهم ناظر إلى شيخ أصلع جاحظ العين اليمنى ،على رأسه قلنسوة، بيضاء طويلة ،فقلت شرا زهير : من ذاك ؟قال :عتبة بن أرتم صاحب الجاحظ وكنيته أبو عيينة .فقلت :يأبي هو،ليس رغبتي سواه ،وغير صاحب عبد الحميد، فقال لي إنه ذلك الشيخ الذي إلى جنبه ،وعرفه صغوي إليه وقولي فيه ،فاستدناني وأخذ في الكلام معي،فصمت أهل المجلس، فقال إنك لخطيب ،وحائك للكلام مجيد ،لولا أنك مغرم بالسجع ،فكلامك نظم لا نثر. فقلتا في نفسي ،قرعك ،بالله بقارعة ،وجاء بمماثلة ،ثم قلت له : ليس هذا ،أعزك الله ،مني جهلا بأمر السجع ،وما في المماثلة و المقابلة من فضل ،ولكني عدمت يبلدي فرسان الكلام ، وذهبت بغباوة أهل الزمان وبااحري أن أحركم بالازدواج ،ولو فرشت للكلام فيهم طولقا وتحركت لهم حركة مشولم ، لكان أرفع لي عندهم ،وأولع في نفوسهم ،فقال:أهذا على تلك المناظر ، وكبرت لك المحابر ،وكمال تلك الطيالس ،قلت :نعم إنها لحاء الشجر وليس ثم ولا عبق ،قال لي:صدقت،إني أراك قد مثلت معي ،فقلت :كما سمعت ، قال : فكيف كلامهم بينهم ؟ قلت

:ليس لسيبويه فيه عمل، ولا للفراهيدي وإليه طريق ولا للبيان عليه [1] سمة، إنما هي لكنة أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية المجوس والنبط ، فصاح : إنا لله ، ذهبت العرب وكلامها أرمهم يا هذا بسجع الكهان فعسي أن ينفعك عندهم ، ويطير لك ذكرهم وما أراك مع ذلك إلا ثقيل الوطأة عليهم كريه المجيء إليهم .

فقال الشيخ إلى جانبه ،وقد علمت أنه صاحب عبد الحميد ،ونفسي مرتقبة إلى ما يكون منه : لا يغرنك منه أيا عيينة ما تكلفة لك من المماثلة إن السجع لطبعه ، وإن أسمعك كلفة ، ولوا شد به طلق الكلام ،وجرت أفراسه في ميدان البيان ، لصلى كودنه ،وكل برتنه ،وما أراك إلا من اللكن الذين ذكر ،وإلا فما للفصاحة لا تهدر ،ولا للأعرابية لا تومض ؟ فقلت في نفسي : طبع عبد الحميد ومساقه ورب الكعبة ،فقلت له : قد عجلت أبا هبيرة ،وقد كان زهير عرفني كنية ، إن قوسك لنبع ،وإن ماء سهمك لسم ، أحمارا رميت أم إنسانا ؟ وقعقعة طلبت أم بيانا ؟ وأبيك إن البيان الصعب ، وإنك منه لفي عباءة تتكشف عنها استاه معانيك تكشف است العنزة عن ذنبها . الزمان وفاء لا فر ،والكلام عراقي شامي إني لأرى من دم اليربوع بكفيك ، وألمح من كشي الضب [2] على مضيفك < فتبسم إلى وقال : أهكذا أنت يا أطليس تركب لكل نهجه ،وتعج إليه عجة فقلت : الذئب أطلس ، وإن التيس ما علمت فصاح به أبو عيينة : لا تعرض له ، و بالحرى أن تخلص منه ، فقلت : الحمد لله الخالق الأنام ، في بطون الأنعام ، فقال إنها كافية لو كان له يجر ،

---

(1) المرجع السابق ،ص:662 – 663 .

(2) المرجع نفسه ،ص: 663 .

فبسطاني وسألاني أن أقرأ عليها من رسائلي ، فقرأت رسالتي في صفة البرد و النار والحطب فاستحسنها ومن رسالتي في الحلواء حيث أقول :

خرجت في لمة من الأصحاب ، وتبة من الأتراب ، فيهم فقيه ذو لقم ، ولم أعرف به ، وغريم بطن ، ولم أشعر له رأى الحلوى فاستخفه الشر ، و اظطرب به الوله، فدار في ثيابه ، وأسال من لعابه ، حتى وقف بالأكداس وخالط غمار الناس، ونظر إلى الفالوذج فقال : بأبي هذا اللمص ، انظروه كأنه الفص ، مجاجة الزنانير ، أجريت على شوابير.ولمح القبيطاء ،فصح : بأبي نقرة الفضية البيضاء لا ترد عن العضة ، أبنار طبخت أم بنور ، فإني أراها كقطع البلور ،.....

ورأي الزلابية ،فقال : ويل لأمها الزانية ، أبأحشائي نسجت ، أم من صفاق قلبي ألفت ؟ فإني أجد مكانها من نفسي مكينا ، وحبل هواها على كبدي ميتنا.....[1]

فاستحسنها ، وضحكا عليها ، وقالا : إن لسجعك موضعا من القلب ،ومكانا من النفس ، وقد أعرته من طبعك ، وحلاوة لفظك ، وملاحة سوقك ما أزال أفنه ، ورفع غينه . وقد بلغنا أنك لا تجازى في أبناء جنسك ، ولا يميل من الطعن عليك ، و الإعتراض لك ، فمن أشدهم عليك ؟ قلت : جاران دارهما صقعب ، وثالث نابته نواب ، فامتطى ظهر النوى ، وألقت به في سرقسطة العصا ،فقالا : إلى أبي

محمد تسير ، وأبي القاسم و أبي بكر ؟ قلت : أجل.[2]

---

(1) المرجع السابق ، ص:664 – 665. بتصرف .

(2) المرجع نفسه ، ص: 666 . بتصرف .

قالا: فأين بلغت منهم ؟ أما أبو محمد فانتضى علي لسان عند المستعين ، وساعدته زرافة من لناس استهواها من الحاسدين ، وبلغني ذلك فأنشدت شعرا منه :

وبلغت أقواما تجيش صدورهم علي ،وأين منهم فارغ الصدر

أصاخوا إلى قولي فأسمعت معجزا وغاصوا على سري فأعياهم أمري

وأما أبو بكر فأقصر وأقصر على قوله : له تعابة تؤيده .[1] وأما أبو القاسم الإفليلي فمكنه من نفسي مكين ، وحبة بفؤادي دخيل ،علي أنه حامل علي ومنتسب إلي.

فصاحا ذا أنف الناقة من معمر، من سكان خيبر ،فقام إليها جني أسمط ربعة وارم الأنف ، يتظالع في مشيته ، كاسرا لطرفة ، وزاويا الأنفة ،وهو ينشد:

قوم هم الأنف و الأذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا.

فقالا لي :< هذا صاحب أبا القاسم ، ما قولك فيه الناقة ؟ قال: فق لم أعرف على من قرأ. فقلت لنفسي : العصا من العصية ، إن لم تعربي ذاك وتظهري بعض أدواتك ، وأنت بين فرسان الكلام ،و لم يطر لك طائر ، وكنت غرضا لكل حجر عابر.>

وتجري مناظرة حادة ساخرة بين أبي عامر وبين أنف الناقة شيطان الإفليلي يصب فيها جام غضبه ومنتهي زراية على شيطان خصمه ،فيقول:<وأخذت للكلام أهبة ، وليس للبيان بزنة ،فقلت :وأنا أيضا لا أعرف على من قرأت ؟قال: ألمثالي يقال هذا ؟فقلت :فكان ماذا ؟قال: فطارحني كتاب الخليل . قلت هو عندي في زنبيل ، قال :فناظرني على كتاب

(1) المرجع السابق ،ص:667 .

سيبويه .قلت :خريت الهرة عندي عليه ،وعلى شرح درستويه .قال لي :دع عنك أنا أبو البيان ،قلت :لاه الله إنما أنت كمغني وسط ، لا يحسن فيطرب،ولا يسيء فيلهي .....>[1]

وينال أبو عامر من أنف الناقة فيلا شديدا ويفاخره ببلاغته وأسلوبه وفكاهته ويتمثل برسالة في وصف البرغوث كما يزهو عليه برسالة القصيرة في وصف ثعلب.

ويمضي أبو عامر في رحلة تلك للقاء شيطان البديع :زبدة الحقب ،وفي ذلك يقول :<وكان فيما يقابلني من ناديهم فق قد اماني بطرفة ،واتكألي على كفه فقال :تخيل على الكلام لطيف وأبيك !! فقلت :وكيف ذلك ؟قال :أو ما علمت أن الواصف إذا وصف شيئا لم يتقدم إلى صفته ، ولا سلط الكلام على نعته ،اكتفي بقليل الإحسان، و اجتزى بيسير البيان ،لأنه لم يتقدم وصف يقرن بوصفه ،ولا جرى مساقٌ يضاف إليه مساقه ،وهذه نكتة بغدادية :أنى لك بها يا فتي المغرب ؟ <فقلت يا زهير : من هذا ؟قال :زبدة الحقب صاحب بديع الزمان ، فقلت :يا زبدة الحقب اقترح لي ، قال:صف جارية ،فوصفتها ،قال :أحسنت ما شئت أن تحسن ،قلتا : اسمعني وصفك للماء قال :ذلك من العقم فقلت بحياتي هاته.[2]

قال: أزرق كعين السنور ،صافي كقضيب البلور ، انتخب من الفرات ،واستعملت بعد البيان ،فجاء كلسان الشمعة في صفاء الدمعة .

فقلت :انظره ، يا سيدي ، كأنه عصير صباح ،أو ذوب تمر لياح ينصب من إنائه انصياب

(1) السيوفي محمد مصطفى ،تاريخ الأدب الأندلسي ، ص: 79 .

(2) الشكعة مصطفى ،الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ،ص: 668-669 .

الكوكب من سمائه العين حانوته ،والفم عفريته ،كأنه خيط من غزل فلق ، أو مخضر يضرب به من ورق ،يرفع عنك فتردى ،ويصدع به قلبك فتحيا .

فلما انتهيت في الصفة ،ضرب زبدة الحقب الأرض برجله ،فانفرجت له عن مثل بر هوت ،وتهدى إليها ، واجتمعت عليه ، وغابت عينه ، وانقطع أثره ، واستضحك الأستاذان من فعله ،واشتد غيظ أنف الناقة علي >[1] .

وينهي أبو عامر هذا المشهد من قصته بأنه يزجي المديح لنفسه على لسان شيطاني الجاحظ وعبد الحميد اللذين يقولان له :< إنا لنخبط منك في بيداء حيرة ، وتفتق أسماعنا منك بعبرة ، وما ندري أنقول : شاعر أم خطيب فقلت :الإنصاف أولى ،والصداع بالحق أحجى ،ولا بد من قضاء ،فقالا اذهب فإنك شاعر خطيب >

ويمضي بنا ابن شهيد أخر من مشاهد قصته الممتعة ، ولكنه هنا يصطنع مجلسا للأدب والنقد حضوره من نقاد الجن ،يناقشون أبياتا في وصف الطير من شعر الأفواه <الأودي> والنابغة وأبي نواس وصريع الغواني وأبي تمام والمتنبي ، ولكن من هؤلاء الشعراء سهم وافر في وصف الطيور الجارحة ، فيقول ناقد

من الجن اسمه شمردل السحابي إن أكثرهم إحسانا المتنبي حيث يقول :

له عسكر خيل وطير إذا رمى بها عسكرا لم تبق إلا جماجمها

ويأخذ الكلمة شاعر جني إسمه "فتاك بن الصقعب" ، وينشد أبياتا عني أنها أبلغ من قول

(1) المرجع السابق ،ص:669 .

جميع الشعراء ثم يتبين المجلس أن هذه الأبيات إنما هي من صنع الشاعر نفسه وليست من قبيل الإستشهاد بشعر الغير ، فيهتز المجلس له طربا وإعجابا ، يقول فيها :

وتدري سباع الطير أن كماته إذا لقيت صيد الكماة سباع
لهن لعاب في الهواء وهزة إذا جد بين الدارعين قراع [1]

ويسهم ابن شهيد نفسه في المناقشة ليظهر قدرته على النقد ، وملكته في الجدل ، ويصطنع مبادئ نقدية ويجريها على لسان شيخ يعلم ابنه صناعة الشعر فيقول له :<إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسن تركيبه وأرق حاشيته ، فاضرب عنه جملة ، وإن لم يكن بد ففي العروض التي نقدم إليها ذلك المحسن ، لتنشط طبيعتك ، وتقوى منتك >[2]

< ويمضي أبو عامر على سنته فيجعل ابن الصقعب يستنشده بعض شعره ويبدي إعجابه به ، ويقع بالمصادفة إنشاءه في سمع جني كان على مقربة منها ، كأنه هضبة لركابته وتقبضه ، برميه بسهمين نافذين ، وأبو عامر يلوذ بطرفه عنه ، ويستعيذ بالله منه لأنه ملأ عينه ونفسه ، ويسأل هذا الجني أبا عامر أن ينشده شيئا من شعره فيستجيب له أبو عامر وينشده قدرا كبيرا من شعره في فنون مختلفة لا يتسع المقام هنا لذكرها وكلها من جيد الشعرو منتقاه . وينهي أبو عامر هذا المشهد بأن يجعل ذلك الجني يسأله عن أشعاره بعينها فيجبه أبو عامر إنها تارة لأبيه وتارة أخرى لأخيه ، وثالثة لعمه ، وأخرى لجده أو جد أبيه . على أن الجني هنا لا يجيز أبا عامر وحسب ، بل يقول :<والذي نفس

---

(1) المرجع السابق ،ص:670 –671 .

(2) السيوفي محمد مصطفى ،تاريخ الأدب الأندلسي ، ص: 82 .

فرعون بيده لا عرضت لك أمر ، أني أراك عريقا في الكلام . ثم قل واضمحل حتى إن الخنفساء لتدوسه فلا يشغل رجليها>.

ويسأل ابن شهيد صاحبه زهير عن اسم هذا الجني ، فيقول له :استعذ بالله ، هذا فرعون بن الجون .>[1]

< وأما المشهد الأخير في التوابع و الزوابع " فإنه تهة أدبية فكهة ، اعتمد فيها ابن شهيد على قريحته أكثر من أعتماده على قريحته كبار الشعراء والخطباء . وهو في هذا المشهد يمنع ويطرف ، وسخر ويفكه ، ويصف ويجادل ، ويمر ويحلو ، وفي هذه المرة يترك عالم الإنسان من الجن إلى عالم جن الحيون ،ولكنه حيوان أديب شاعر عاشق يقول بن شهيد :< ومشيت يوما أناء زهير بأرض الجن ، نتقرى الفوائد ، ونعتمد أندية أهل الأداب منهم و إذ أشرفنا على قرارة غناء ، تفتر عن بركة ماء وفيها عانة من نمر الجن وبغالها ،قد أصابها أو لق و فهي تصدك بالحوافز ، وتنفخ من المفاخر ، وقد أشتد ضراطها ، وعلا شجبها ونهاقها .فلما بصرت بنا ، أجفلت إلينا ، وهي تقول : جاءكم على رجليه ،فارتعت لذلك ،فتبسم زهير وقد عرف القصد ، وقال لي : تهيأ للحكم ، فلما لحقت بنا ، بدأتني بالتفدية وحيتني بالتكنية . فقلت : ما الخطب ؟ حمي حماك أيتها العانة ، وأخصب مرعاك. قالت : شعران لحمار وبغل من عشاقنا اختلفنا فيهما ، وقد رضيناك حكما.

قلت : حتى أسمع .فتقدمت إلى بغلة شهباء عليها جلها وبرقعها لم تدخل فيما دخلت فيه العانة من سوء العجلة ، وسخف الحركة ،فقلت أحد الشغرين لبغل من بغالنا ، وهو :

(1)الشكعة مصطفى ،الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ،ص:671-672 .

على كل صب من هواه دليل سقام على حد الجوى ونحول

وما زاد هذا الحب داء مبرحا إذا ما اعترى بغلا فليس يزول

تعبت لما حملت من ثقل حبها وإني لبغل للثقال حمـول

ومانلت منها نألا غير أنني إذا هي بالت ،بلت حيث تبول

والشعر الأخر لدكين الحمار:

دهيت بهذا الحب منذ هويت وراثت إرادتي فلست أريت >

وغير منها قبلها لي كنيمة نمها أحم الخصيتين خبيث

و مانلت منها نائلا غير أنني إذا هي راثت حيث تروث[1]

فضحك زهير ،وتماسكت ،وقلت للمنشدة : ماهويث ؟ قالت :هو هويت بغلة الحمير ،فقلت ، والله إن للروث رائحة كريهة ، وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في هذا الشعر ، فقلت :فهمت عنك ، وأشارت إلى العانة أن دكينا مغلوب ، ثم انصرفت قانعة راضية .

وقالت لي البغلة :أما تعرفني أبا عامر؟ قلت لو كنت لم علامة ، فأماطت لثامها ، فإذا هي بغلة أبي عيسى ، والخال على خدها فتباكينا طويلا ، وأخذنا في ذكر أيامنا. فقلت :ما أبقت الأيام منك ؟ قلت: ما ترين ،قالت:شب عمرو عن الطوق، فما فعل الأحبة بعدي ؟ أهم على العهد ؟ قلت :شب الغالمان ،وشاخ الفتيان ،وتنكر الخلان ،ومن إخوانك من بلغ الإمارة ، و انتهيى إلى الوزارة فتنفست الصعداء وقالت : سقاهم الله سبل العهد ،وإن حالوا

---

(1) السيوفي محمد مصطفى ،تاريخ الأدب الأندلسي ، ص : 83 .

عن العهد، ونسوا أيام الود بحرمة الأدب،إلا ما أقرأنهم عني السلام ،قلت: كما تأمرين وأكثر >[1] .

وينتقل بنا أبو عامر بعد ذلك سريعا إلى جانب أخر فمتع من مشهده الأخير في قصته ، وهو جانب بطلته أوزة جميلة فصيحة ناقدة نحوية لغوية اسمها العاقلة وكنيتها أم خفيف ، ولترك المجال لابن شهيد يروى لنا مسيرته الأدبية وأوزنه " أم خفيف":

< وكانت بالقرب منا أوزة بيضاء شهلاء ، في مثل جثمان النعامة ، كأنما ذر عليها الكافور ، أو لبست فلالة من دمقس الحرير، لم أر أفق من رأسها حركة ، ولا أحسن للماء في ظهرها صبه ..... فترى الحسن مستعارا ، و الشكل مأخذا عنها ، فصاحت بالبغلة : لقد حكمتم بالهوى ورضيت من حكمكم بغير الرضا.[2]

فقلت لزهير ، من شأنها ؟ قال : هي تابعة شيخ من مشيختكم تسمي العقلة ، وتكن أم خفيف ، وهي ذات حظ من الأدب ، فاستعدلها ، فقلت : أيتها الأوزة الجميلة ، العريضة الطويلة ،أيحسن بجمال حدقتيك ، واعتدال منكبيك ،... مقابلة الضيف بهذا الكلام ، وتلقي الطارئ الغريب بشبه هذا المقال ؟ وأنا الذي همت بالإوز صبابة ،.... وأنا الذي استرجعتها إلى الوطن المألوف ،.... فاتخذتها السادة بأرضنا ،.. ورضيت بدلا من العصافير ، ومتكلمات الزرازير ،ونسيت لذة الحمام،

ونقار الديوك ، ونطاح الكباش . فدخلها العجب من كلامي، ثم ترفعت وقد اعترتها خفة

(1) البستاني بطرس ، التوابع والزوابع لإبن شهيد الأندلسي ،ص:149 .

(2) الشكعة مصطفى ،الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ،ص: 676 .بتصرف .

شديدة في مائها ،خمرة سابحة ، ومرة طائرة ،... فقالت : أيها الغار المغرور: كيف تحكم في الفروع وأنت لاتحكم الأصول ؟ ماالذي تحسن ؟ قلت : ارتجال شعر وأقتضاب خطبة ،على حكم المقترح والنصبة[1]. قالت :ليس عن هذا أسألك .قلت :ولا بغير هذا أجاوبك وقلت : حكم الجواب أن تقع على أصل السؤال، وأنا إنما أردت بذلك إحسان النحو والغريب الذي هنا أصل الكلام ، ومادة البيان[2].

قلت : لا جواب عندي غير ما سمعت .قالت : أقسم أن هذا منك غير داخل في باب الجدل . قلت : وبالجدل . قلت : وبالجدل تطلبيننا وقد عقدنا سلمه ،وكفينا حربه ، .... قالت : أقسم أن الله ما علمك الجدل في كتابه ! قلت :محمول عنك أم خفيف ،لايزال إلاوز حفظ أدب القرأن ،قال الله عز وجل في محكوم كتابه حاكيا عن نبيه إبراهيم عليه السلام :< ربي الذي يحيي ويميت ،قال :أنا أحي وأميت > فكان هذا الكلام من الكافر جواب ، وعلى وجوبه مقال ، ولكن النبي (ص) لما لاحت له الواضحة القاطعة رماه بها وأضرب عن الكلام الأول ، قال :< فإن الله يأتي بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر > وأنا لا أحسن غير ارتجال الشعر ، واقتضاب خطبة على حكم المقترح و النصبة .

فاهتزت من جانبيها ، وحال الماء من عينيها ، وهجمت بالطيران ثم اعترها ما يعتري الإوز من الألفة وحسن الرجعة ، فقدمت عنقها و أسها إلينا ، تمشي نحونا رويدا ،.....[3]

(1) السيوفي محمد مصطفى ، تاريخ الأدب الاندلسي ، ص : 85.

(2) الشكعة مصطفى ،الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ،ص: 677 .

(3) المرجع نفسه ، ص:677 . بتصرف.

ثم تكلمت بها مبسبسا ولها مؤنسا ، .... فقلت : يا أم خفيف ، بالذي جعل غذاءك ماء ،وحشي رأسك هواك ، ألا أيها أفضل : لأدب أم العقل ؟ قالت :بل العقل . قلت : فهل تعرفين في الخلائق أحمق من أوزة ، ودعيين من مثلهم في الحبارى ، قالت :لا ،قلت : فتطلبي عقل التجربة ، إذا لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة ، فإذا أحرزت منه نصيبا . و بؤت منه بحظ ، فحينئذ ناظري في الأدب ،فانصرفت و انصرفنا .[1]

فهذه هي رسالة "التوابع والزوابع" لابن شهيد الأندلسي ، إحدى ثمرات الأدب الخيالي الإمتاعي الفكاهي الأندلسي ، التي تعد في الطليعة من ألوان أدب الرحلات الخيالية الأندلسي على سبيل التخصيص ، و العروبة عموما.

و الرحلة في تقدير الدكتور محمد سعيد محمد لم ينته ؟لأننا لا نعرف مصير الكاتب ولا مصير تابعه بعد الإنتهاء من الحديث مع قمر الجن ، غير أنه يرى أ، اللفت للنظر أ الترتيب الذي رتبه لها "إبن تمام " فيه منطقية و يحقق الهدف الذي من أجله ألف " ابن شهيد " رسالته الشيء الذي يجعلها نفترض أن ابن تمام حذف من داخل الفصول الرئيسية فهي ثابتة حتى و لو حذف منها فإنه حذف منها ما لا يؤثر على الجوهر .[2]

****

وخلاصة القول فهذه هي رسالة "التوابع والزوابع " لإبن شهيد الأندلس ،إحدى ثمرات الأدب الخيالي الإمتاعي الفكاهي الأندلسي ،التي تعد في الطليعة من ألوان أدب الرّحلات ،والرّحلات الخيالية الأندلسية على سبيل التخصيص العربية عموما .وإذا كانت رسالة " إبن شهيد " أشتهرت بمصطلح الرسالة فإنها رسالة من حيث القصد تأليفها أمّا مضمونها فهو أقرب إلى الفن القصصي .

---

(1) المرجع السابق ،ص:678 .

(2) – محمد سعيد محمد ، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص:253

تضافرت عدة عوامل فيما بينها لتجعل الشخصية الأندلسية مؤهلة لاحتضان الفكاهة سلوكا و نمط حياة، تتمثل في بيئة فاتنة ومناخ حضاري يكرسٌ ثقافة اللهو، وواقع سياسي يبعث على الإنكسار، و منافسة تيار فني مشرقي تجسده كتابات سهل بن هارون (ت215 هـ) و الجاحظ (ت 255 هـ) و بديع الزمان الهمذاني (ت 398 هـ) و الحريري (ت516) و غيرهم، ينقل الظاهرة من إطارها السلوكي إلى مجالات إبداعية أكثر رحابة فأصبحت طرائفهم في السخرية والفكاهة – و خاصة طريقة الجاحظ – مطلبا يحاولون بلوغه.

و سواء أقدم الأندلسيون على الفكاهة– ببعديها التهكمي الساخر أو الفلسفي الباسم– إقبالا على طبيعة فاتنة تدعو مفرداتها إلى طرح كل ما من شأنه أن يعكر الصفو، أو نقدا للذات –فردية و جماعية – أو سمو على إنكسار نفسي ولّده واقع سياسي متردٍ، أو محاكاة لتيار فني مشرقي، فإن الفكاهة شاعت لديهم شيوعا صبغ سلوكهم بميسمها الخاص، فأضحت سمة أصلية من مكونات الوجدان الأندلسي و أصبح نزوعهم إليها " يكاد يكون شاملا " حتى لقد توفر عليها جماعة الأمراء و الفقهاء و الوزراء، بل كانوا يتمدٌحون أهلها و يشيرون إلى خصائصها المتميزة في الإنسان و لو كان عالما.

و امتد تأثير الفكاهة ليشمل إبداعهم النثري الذي استجاب لسلطانها استجابة فاقت الشعر، فراح يشاركه في إشاعة الروح الهزلي، بل أخذ النثر يحفل بالاهتمام، و يحتل ما كان يؤديه الشعر من دور، و لعل هذا التفوق للنثر في هذه الآونة في هذا المجال، يرجع إلى الرفعة الذهنية و التقدم الحضاري، فضلا عن صيرورة النثر أداة طبٌعة لدى الكتاب الذين جلٌ أثرهم في العهد الطائفي.

و رسالة " التوابع و الزوابع " لابن شهيد الأندلسي تفيض بروح الفكاهة الممزوجة بالمناقرات السياسية الحادة بين حالة أبي عامر و خصومه، و كذا الحالة النفسية الثائرة – لابن شهيد – والتي تريد النزول إلى حلبة الصراع لتكسب التفوق و النصر و الإجازة.

و سيتبيٌن لنا من خلال الدراسة النفسية لرسالة "التوابع و الزوابع" ما مدى تأثير الأوضاع

السياسة المتردية في عصر ابن شهيد، مع كثرة خصومه و حسّاده في نفسية الكاتب الشاعر، الأمر الذي جعله يبدع في تخليق عمل أدبي فريد من نوعه، يجابه به خصومه و أنداده و منافسيه من الوزراء و الكتاب و أهل السياسة و القلم، و يسترد مكانته الأدبية المنشودة في عالم آخر هو عالم التوابع و الزوابع.

(ولذلك جاءت الصورة التي وردت عليها مبنية على فكرة (التمثيل الكناني) في الأدب و عن " التمثيل الكناني " يرى النقاد أنه بوجد في الأدب، عندما تشير أحداث القص على نحو مستمر متزامن إلى بنية أخرى من الأحداث التاريخية أو الأفكار الأخلاقية أو الفلسفية،و أبسط صورة أن تقول الكلمات شيئا و تعني شيئا آخر وراءه.

و لكن بقدر ما ينطوي التمثيل الكناني على غاية تعليمية صريحة أو ضمنية ينطوي على فرار من المباشرة التي قد تصطدم بعوائق سياسية أو دينية أو اجتماعية،و لذلك تبدو البنية السطحية للتمثيل،رغم جاذبيتها الظاهرة،و كأنها تلح على لفت الإنتباه إلى بنيتها المحددة،فلا تكمل دلالة الأولى إلا باعتبارها دليلا على الثانية،و لا يغدو المعنى الأول للبنية السطحية لمفهومها إلا باقترانه بالمعنى الذي هو لازمه،و اهل دلالته [1].

و رسالة ابن شهيد فيها من التمثيل الكناني؛ الفرار من المباشرة،خوفا من الإصطدام بالقوى السياسية الفاعلة في المجتمع الأندلسي آنذاك،حيث عاصر الفتنة و إكتوى بنارها و رأى قرطبة و هي تنتهب و تخرب أجمل قصورها. و قد فشل سياسيا لأن يبلغ رتبة الكتابة،و إن كان قد اعتلى رتبة الوزارة لفترة بالغة القصر في دولة المستظهر الأموي سنة (414 هـ). و في الرسالة أيضا

"1"- عصفور جابر، المرايا المتجاوزة دراسة في نقد طه حسين، (د ط)، الهيئة العامة للكتاب، سنة:1983، ص:353

تحاشي الإصطدام بالعوائق الاجتماعية،فقد كان لابن شهيد حساد وخصوم، نغّصوا عليه حياته و أقضّوا مضجعه؛ على نحو ما سوف نحلل البناء القصصي من بعض زواياه في الرسالة.

و إذا كان ابن شهيد قد ظلمه مجتمعه،و لم ينصفه فلا مفر من البحث عن عالم آخر يمثل المعادل الموضوعي لقضيته مع واقعة بكلّ ملابساته،و قد بحث عن الآخر،فوجده في عالم الجن. و قد ركز ابن شهيد في رسالته على ثلاثة أشخاص ألبوا عليه حياته و كانوا يحسدونه و يطعنون عليه و هؤلاء هم : أبو بكر ؛ و أبو محمد ؛ و أبو القاسم.

إن الرؤية المعمقة للعلاقة بين البنية السطحية للبناء القصصي في الرسالة،و البنية التحتية المحددة فيها،تدل على أن الأولى لا تكتمل إلا باعتبارها دليلا على الثانية.

و في رسالة "التوابع و الزوابع" لا نستطيع فهم عالم الجن الذي ولجه الكاتب إلا من خلال اقترانه بالعالم الخارجي الذي يمثله عالم الإنس، و الذي هو ملازم له، و أصل دلالته[1].

و إذا كان الأدب هو فن التعبير بالكلمة عن رؤية الأديب لواقعه؛ تلك الرؤية التي يكشف الأديب من خلالها عن المعوقات التي تعوق حركة الواقع،و تقهر إنسانية الإنسان،و يضع لنا الحلول المثلى التي يرى من خلالها الواقع سليما خاليا من المعوقات[2].

نقول لقد عبرت رسالة "التوابع و الزوابع" عن كل ذلك،لأنها تناقش قضية كاتبها مع واقعه الذي ظلمه،فحاول أن يدافع عن نفسه أمام محكمة الإنس،ففشل في ذلك،فلجأ إلى عالم الجن طالبا الاحتكام إليه مع خصومه.

و يرحل الكاتب عن عالمه المزدحم بالخصوم و الحساد،إلى عالم الجن بكلّ ما فيه من تشويق و إثارة،متجشما رحلة أدبية من أجمل ما عرف أدبنا العربي.

"1"- الشناوي علي محمد الغريب، فن القص في النثر الأندلسي، ص:301.

"2" المرجع نفسه، ص :301-302.

و إذا رحنا نبحث عن الأسباب التي من أجلها وضع ابن شهيد "توابعه"،وجدناه يواجه أنداده و منافسيه من الوزراء و الكتاب،و أهل السياسة و القلم،ثم المنافحة عن أدبه بالرد على غمزات نقاده،ثم إظهار محاسنه و فضائله في المتقدمين و المتأخرين [1].

و قد حفلت رسالة "التوابع و الزوابع" بعناصر قصصية،تمثلت في الأشخاص،والحوار، و الأماكن و الوصف و الزمان و عنصر " السرد " الذي يعد بنية أساسية من لبنات البناء القصصي، و الذي اعتمد ابن شهيد في تجسيد أحداث نصه.وأبرز هذه العناصر مع الشرح والتعليل ما يلي :

1- السرد: و لعل أقل ممثل " للسرد القصصي " في الرسالة هو" أبو بكر بن حزم "،الرجل الذي عناه "ابن شهيد" بعمله هذا،وذكره في مفتتح نصه،ثم قرر السكوت عنه بعد ذلك لحاجة في نفس يعقوب.

و تظهر بدايات السرد في الرسالة بقول " أبي بكر بن حزم " عن " أبي شهيد ":(كيف أوتي الحكم صبيا،و هز بجذع نخلة الكلام فاسّاقط عليه رطبا جنيا،أما إن به شيطانا يهديه و شيطانا يأتيه، و أقسم أن له تابعة تنجده،و زابعة تؤيده،ليس هذا في قدرة الإنس،و لهذا النفس لهذه النفس).

ثم تعمد القاص التشويق في حواره مع "أبي بكر" فقال:(أصغ أسمعك العجب العجاب)،و منذ هذه اللحظة يبدو القاص،أو إن شئت فقل الراوي،لأن ابن شهيد منذ هذه اللحظة هو الذي يروي لنا رحلته إلى عالم الجن،لذلك يغلب ضمير المتكلم أو يسود أو يسيطر عل السرد في الرسالة .

ومن ثم يبدو هو البطل الوحيد في الرسالة؛يسرد حوادثها في معية تابعة " زهير بن نمير " الذي لا يقوم بدور ذي شأن في سرد الأحداث،اللهم إلا التعريف بالأشخاص و الأماكن [2].

يبدأ القاص السرد بإعطاء صورة عن نفسه،تبرز نبوغه المبكر و قدرته المتميزة على الإرتجال و البديهة،بسبب تردده الدائم على الكتاب،و الأدباء و الأساتيذ،الذين أخذ عنهم العلم، ___

"1"- المرجع السابق، ص :302-303.

"2"- المرجع السابق، ص: 302.

و بفضله نبض عرق الفهم و شريانه عنده،فقد كان قليل الإلتماح من النظر يزيده و يسير المطالعة من الكتب يفيده و من ثم فقد انثالت له العجائب،و انهالت عليه الرّغائب.

و يصطنع الكاتب سببا واهيا يجعله طريقا للقاء تابعه،و هو موت من كان يهواه،و قد شرع في رثائه ذات يوم في البستان الذي أغلقت عليه أبوابه فصار و حيدا. و بينما هو قد ارتج عليه قول الشعر تحدث المفاجأة التي تبعث على التشويق الذي هو أحد عناصر القصة، فيقول :

(فإذا أنا بفارس بباب المجلس،على فرس أدهم،كما بقل وجهه و قد اتكأ على رمحه،و صاح بي، أعجز يا فتى الإنس ؟ قلت : لا و أبيك للكلام أحيان،و هذا شأن الإنسان)[1].

و يدور بينهما حوار يسأله فيه ابن شهيد عن اسمه فيجيبه : أنا زهير بن نمير من أشجع الجن. و الحوار هنا معلل حيث نجد الجني يبرر للراوي سبب تصوره له بالرغبة في اصطفائه و حبه ثم إن تابعه أعطاه أبياتنا متى شاء استحضاره قالها،و بعدها أوثب الأدهم جدار الحائط ثم غاب عنه [2].

و قد أراد ابن شهيد بسرده لهذه الحادثة للمدعو "أبي بكر" بصيغة الغائب،أن يثبت لهذا الخصم صحة ادعائه من أن له تابعة تنجده و زابعة تؤيده [3].

وقد جرت له مع تابعه زهير بن نمير،قصص،عليها كان مدار الرسالة.و قد وصف القاص تابعه وصفا مجملا حين قال : بأنه فارس رآه على باب المجلس،و أنه كان يركب على فرس أدهم، و قد اتكأ على رمحه. و على اعتبار أن نص الرسالة بكل عناصره يرويه لنا دائما ابن شهيد فهو هنا الراوي القاص البطل حيث نجد صوته دائما يعلو على كل الأصوات في الرسالة،و إذا شئنا

"1"- البستاني بطرس، رسالة التوابع و الزوابع، ص :89.
"2"- الشناوي علي محمد الغريب، فن القص في النثر الأندلسي، ص :304.
"3"- المرجع نفسه ،ص: 304.

الدقة فإن كل الأشخاص في الرسالة تتحرك كالدمى في يديه،في خفة و رشاقة تتم عن عمق وعيه بتقنيات القص و مطالبه [1]. كما تتم من ناحية أخرى عن شخصية القاص البطل المستبدة التي انتقت شخصياتها بذاتها لتثأر لنفسها،و تشفي غليلها بما تنتزعه منها من عرفان بالتفوق و النصر والمقدرة الأدبية البليغة التي لا يضاهيها فيها احد قط من المشارقة و المغاربة،حتى أسياد الأدباء العباسيين المبرزين من مثل الجاحظ و المتنبي.

ثم إن "ابن شهيد" الراوي(القاص) يمهد دائما بالسرد قبل أن يعرفنا بمن يشاء من الأشخاص، و يبدو واضحا التشابه بين أسلوب المصاحبة،و طريقة التعرف في الرسالة وقصة كالإسراء والمعراج؛"فجبريل" عليه السلام–هو الذي اصطحب سيدنا محمد–عليه الصلاة و السلام–على ظهر البرّاق،و هو الذي كان يعرفه بالأماكن و الأشخاص، ويشرح له ما دقّ وغمض،و كذلك الحال هنا، فالمصاحب للراوي "ابن شهيد" دائما هو"زهير بن نمير"،وهوالذي يعرفه بتوابع الشعراء و الكتاب، أما وصف الأماكن والأشخاص فهو من نصيب القاص.على أنه لا يمكن أن يغفل النبع الحقيقي لهذا النوع من القصص،فهومصدرها الأصلي،وجذرها الخفي،وذلك المصدرهو قصة المعراج الإسلامية [2].

و يرى بعض الباحثين أن رحلة "ابن شهيد" إلى عالم الجن تتنافى مع الفكرة التي تربط بين رحلته والمعراج،معتمدا في ذلك على أن عالم الجن عالم مواز لعالم البشر،بدليل أن رحلة "ابن شهيد" كانت رحلة أرضية،و لم تكن سماوية علوية،حين يقول واصفا الجواد الذي ركبه: " و سار بنا كالطائر يجتاب الجو فالجو، و يقطع الدوفالدو حتى التمحت أرضا لا كأرضنا فقال لي:حللنا أرض الجن أبا عامر [3] .

"1"– المرجع السابق، ص :304–305.

"2"– المرجع السابق، ص: 305.

"3– البستاني بطرس، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 91

و لا يوافق "محمد علي غريب الشناوي" هذا الرأي بحجة أن هذا الرأي اعتمد على أن "ابن شهيد" لم يصعد إلى السماء،بل طار إلى أرض بعيدة،و بعبارة أخرى لم تكن الحركة هنا حركة صعود رأسية عبر السموات السبع كما هو الحال في رحلة المعراج [1].

غير أن الدكتور " أحمد هيكل " و هو صاحب الرأي في الربط بين رحلة "ابن شهيد" و قصة "المعراج الإسلامية"كان يقصد بذلك أوجه الشبه بينهما،و أن المعراج هي الأصل الذي استقى منه "ابن شهيد"وغيره قصصهم،حيث يقول : " إن من المعقول أن تكون قصة المعراج هي أول قصة في التراث العربي،ينتقل فيها البطل إلى عالم آخر على ظهر فرس يسابق الريح و في صحبه رائد يرود الطريق و ينتقل بالبطل من جو إلى جو،و من مشهد إلى مشهد؛من أجواء و مشاهد لا تعرف في دنيانا نحن [2].

و قد رحل "ابن شهيد" بالفعل إلى عالم الجن،و هو بالطبع مختلف تمام الاختلاف عن عالم الإنس،و كأن انتقاله في الرحلة على ظهر فرس يسابق الريح،و في صحبة رائد هو زهير بن نمير، و من هنا يبدو رأي هيكل معقولا سليما؛ يمكن الاعتداد و الأخذ به [3].

و لم يكن السرد القصصي في الرسالة معتمدا على المقامة،بحيث كان لها تأثير واضح في توجيه النص بدءا من صياغته المعتمدة على السجع بشكل واضح [4].

و إنما كان للمقامة حضور في صياغة النص،حيث أتى القاص برسالته في الحلواء فصاغها على طريقة صياغة المقامة.فالتوابع و الزوابع من حيث فكرتها مقتبسة و لا شك من المقامة الإبليسية لبديع

"1"- الشناوي محمد علي الغريب، فن القص في النثر الأندلسي، ص: 306.
"2"- هيكل أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص، 385.
"3"- الشناوي محمد علي الغريب، المرجع نفسه، ص: 306.
"4"- المرجع نفسه ،ص: 306.

الزمان رغم قصرها،فابن شهيد بعد هذا متأثر ببديع الزمان،و لقد كان البديع ماثلا في خاطر "ابن شهيد"،حاضرا أمامه بكل آثاره عندما بدأ هذا الأخير يكتب رسالته،وكذلك عندما انتهى .

ثم إن استقراء نص ابن شهيد ينفي عنه شبهة اعتماده في الصياغة على السجع و من يرجع إلى الرسالة يجد ابن شهيد لا يستخدم فيها دائما أسلوب السجع بل تارة يسجع و تارة لا يسجع[1].

ثم إن ابن شهيد حينما التقى بتابع الجاحظ و كنيته أبو عيينة قال له: " إنك لخطيب،وحائك للكلام مجيد،لولا أنك مغرى بالسجع،فكلامك نظم لا نثر" [2].

و قد دافع ابن شهيد عن نفسه،فقال له: " ليس هذا أعزك الله مني جهلا بأمر السجع،و ما في المماثلة و المقابلة من فضل،و لكني عدمت ببلدي فرسان الكلام و دهيت بغباوة الزمان و بالحري أن أحركهم بالازدواج،و لو فرشت للكلام فيهم طولقا و تحركت لهم حركة مشولم لكان أرفع لي عندهم و أولج في نفوسهم [3].

و النص هنا يدل على أن ابن شهيد كان يكثر فعلا من استخدام السجع،و إن كان يفضل عليه المماثلة و المقابلة،و هذا هو أسلوب الجاحظ ،غير أنه يبرر استخدامه للسجع بسبب ما يشير إليه من غباوة أهل زمانه [4].

و قد تناول ابن شهيد من أهل زمانه:المعلمين بصفة خاصة،في تضاعيف رسالة (التوابع والزوابع) و غيرها تناولا لا يتجاوز حدود التندر بهم و رسم صورة مضحكة لهم إلى نمط من أنماط السخرية اللاذعة و الاحتقار المهين،فيصفهم بغباء عقل و تبلد حسٌ ،وجهامة ملامح وجه فهم يحنون

"1"- المرجع السابق ،ص: 307.

"2"- البستاني بطرس، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 116.

"3"- المرجع نفسه، ص: 116.

"4"- الشناوي محمد علي الغريب، المرجع نفسه ، ص: 307.

على أكباد غليظة و قلوب كقلوب البعران،ويرجعون إلى فطن حمئة و أذهان صدئة...سقطت إليهم كتب في البديع و النقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الإيقاع [1].

و يقول في موطن آخر: " و مما علم من هذه العصابة إذا لمحتنا أبصارهم قابلونا بالملقا،و هم منطوون على حسد و فتن " رادا ذلك إلى زيادة غلظ أعصاب الدماغ و نقصانها عن المقدار الطبيعي. و تبلغ سخرية ابن شهيد مبلغا يحدو به إلى أن يدعو المولى-عز وجل-ألا يسلكه في زمرتهم خلقا و خلقة فقال: " نستعيذ بالله ألا يشوّه خلقة قلوبنا و لا بجسي أجرام أكبادنا،و يضم أوتارنا و أعصابنا، و لا يعظم أنوفنا، و لا يجعلنا مثْلة للعالمين [2].

و يفسر الدكتور أحمد هيكل سبب شيوع السجع و المماثلة و المقابلة،و أسلوب التفخيم في عمل أبي عامر " التوابع و الزوابع "؛ و كذا غيره من الأدباء الأندلسيين،بالظروف الاجتماعية التي ساندت في فترة الخلافة و ما كان لها من وقع مباشر على نفسية الكتاب و الأدباء خلال هذه الفترة، و على سبيل التخصيص "ابن شهيد".

و في ذلك يقول هيكل: " سار هذا النوع من النثر متأثرا بالمذهب الجاحظي الذي بدا التأثر به في اواخر الفترة السابقة... كذلك انعكست عليه فخامة الأندلس و عظمتها في فترة الخلافة؛ فكثرت الألقاب، و الجمل الدعائية المفخمة، و العبارات الاعتراضية المعظمة، و ظهر الميل إلى التطويل والتكرار و البسط "[3]

فالدكتور "هيكل" يربط هنا بين كثرة الألقاب و عبارات التفخيم و التعظيم التي شاعت في أسلوب

"1"- ميدان محمد أيمن ، دراسات في الأدب الأندلسي، ط1 ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، سنة :2004 ص: 87.

"2"- المرجع نفسه، ص: 88.

"3"- هيكل أحمد الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص 247.

النثر الأندلسي إبان مرحلة الخلافة و بين ما اضطلعت به الأندلس في هذه الفترة من أسباب القوة و السلطان و مظاهر الأبهة و الفخامة و الزعامة التي طرأت على الحياة الاجتماعية في البلاد[1].

و من ذلك أيضا ربط المؤلف بين مظاهر الترف و الفخامة التي غطت جوانب الحياة في فترة الحجابة و بين استجابة الذوق الإبداعي و النقدي آنذاك لطريقة "ابن العميد" التي تعتمد على توشية الأسلوب بألوان متنوعة من المحسنات البديعية، و لا شك في أن "ابن شهيد" متأثر و معجب بطريقة "ابن العميد" في التوشية اللفظية،وإلا لما وجدناه يسجع في رسالته،و بطريقة الجاحظ المفخمة للأسلوب،و إلباسه المعنى الشريف باللفظ الشريف،و إلا لما وجدناه في توابعه يطلب لقاء تابع "الجاحظ" و سواه "كعبد الحميد" و "البديع". يقول هيكل :" و أهم ما يلاحظ على أسلوب النثر في فترة الحجابة،ظهور أثر طريقة ابن العميد، تلك الطريقة التي تميل غالبا إلى الإطناب،و تعتمد كثيرا على المحسنات و خاصة السجع و الجناس و كالمقابلة والازدواج، والتي تتجه أيضا إلى تضمين النثر بعض الأمثال أو الإشارات التاريخية أو التلميحات الثقافية بعامة، ثم تعنى كذلك بتدعيم النثر بالشعر الذي يتخلله أحيانا أو يأتي في نهايته أحيانا أخرى،و ليس من شك في أن حياة الترف و مظاهر الفخامة في فترة الحجابة كانت من أسباب الاستجابة إلى هذه الطريقة في أسلوب النثر خلال تلك الفترة "[2].

و يستدل هيكل بنموذجين من الرسائل أحدهما "طوق الحمامة لابن حزم"، و الآخر "التوابع والزوابع لابن شهيد"، مبينا من خلالهما أهم الخصائص الأسلوبية التي اتسمت بها لغة النثر الفني في فترة الحجابة يقول : " و في هذين النموذجين يبدو أثر الطريقة الجاحظيةو التي كانت سائدة في الفترة السابقة تقريبا و تتضح سمات هذه الطريقة خلال هذين النموذجين الأخيرين في الميل إلى الجمل

"1"- ياسين السيد، التحليل الاجتماعي للأدب، ط3 ،مكتبة مدبولي القاهرة، سنة: 1992،ص: 185-186.
"2"- هيكل أحمد، المرجع السابق ، ص: 333-334.

القصار، و الفقرات المتقابلة،و عدم تعمد المحسنات،باستثناء السجع الذي يأتي طبع بين الحين و الحين،ثم في الإلحاح على المعنى و تأديته بعدة أساليب فيما يوهم التكرار و ليس تكرارا و أخيرا في إجادة استخدام حروف الجر و الحروف بعامة "[1].

و على الرغم من أن هذه الإشارة تكاد تكون الوحيدة في هذا السياق، فإنها قد كشفت عن استشراف "د. هيكل" منذ وقت مبكر أفق التحول النقدي الأندلسي إن ما عند ابن شهيد أو سواه، الذي بدأ يركز على البنية اللغوية للنص ذاته متجاوزا بذلك المناهج السياقية المختلفة التي تنعم النظر في خارج النص[2] .

كما تلقانا مجموعة إشارات في دراسة الدكتور"هيكل" يبدو فيها تأثر المؤلف بالدراسات النفسية في تفسير بعض الظواهر و بخاصة عند عرضه آراء ابن شهيد النقدية؛ يقول المؤلف :" ومن أحسن ما أثر عن ابن شهيد من كتابات نقدية،حديثه عن وظائف بعض الأعضاء في القدرة الأدبية، وصلات الهيئة الإنسانية بالملكة الفنية ووجود علامات عضوية تدل على عدم هذه الملكة أو نقصانها.وفي ذلك يقول ابن شهيد في توابعه في بعض أدعياء الفن من معالمي قرطبة: فهذه حال العصابة من المعلمين يدركون بالطبيعة،ويقصّرون بالآلة وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة للروحانية،والخادمة لآلات الفهم،الباعثة لرقيق الدم في الشريانات إلى القلب،و زيادة غلظ أعصاب الدماغ،و نقصانها عن المقدار الطبيعي.يعين على ذلك بالحدس و طريق الفراسة،فساد الآلة الظاهرة كفرطحة الرأس،و تسفيطه،و نتوء القمحدودة،و التواء الشدق، و خزر العين و غلط الأنف و انزواء الأرنبة" [3].

"1"- هيكل أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص: 395-396.

"2"- نجا أشرف محمود، في الأدب الأندلسي، بحوث في نقد الخطاب الإبداعي، ص: 176-177.

"3"- هيكل أحمد، المرجع السابق، ص: 394.

فابن شهيد بكلامه هذا يقترب من أصحاب النظرة العضوية ORGANISMIC للشخصية في علم النفس الحديث،و التي يرى أنصارها أن الكائن العضوي كل واحد،و ما يحدث للجزء يؤثر بدوره على الكل و أن أي عرض يعتري الكائن العضوي يجب النظر إليه بوصفه تعبيرا عن الكائن العضوي بأسره؛لأن قوانين الكل تحكم الجزء؛فالعقل و الجسم مثلا ليسا كيانين منفصلين أو متمايزين؛ و العقل لا يتكون من ملكات أو عناصر منفصلة،و كذلك الجسم لا يتكون من أعضاء و عمليات مستقلة؛ فالكائن العضوي إذن وحدة مفردة و ينبغي النظر إليه في إطار النظرية العضوية أو نطاق الكائن العضوي الكلي؛ و بناء على هذا فالتنظيم و الوحدة و التكامل و الثبات هو الحالة الطبيعية للكائن العضوي أو الشخصية السوية [1] كما نلغي من بين الإشارات النقدية.....

حيث يضطلع إبن شهيد بدور الحاكي أو القاص معتمدا على إطار زمني محدد هو الزمن الماضي بصيغه المعروفة كقوله:"كنت أيام كتاب الهجاء أحن إلى الأدباء،و أصبو إلى تأليف الكلام، فابتعت الدواوين ...الخ" و غالبا ما يرتكز السرد على صيغة المفاعلة في الماضي كقوله:" تذاكرت يوما مع زهير بن نمير أخبار الخطباء و الشعراء. " و إنما استعماله صيغة المفاعلة في الماضي إلا ليبرز " نفسه " شخصية البطل الراحل إلى عالم الجن،و ليبرز شأوه في خوض غمار معركته مع خصومه و حساده بنفسه،لينتزع منهم ببراعته و قدرته الأدبية إجازة التفوق و التقدير؛من كل تابع كاتب أو شاعر يلتقيه في رحلته إلى عالم الجن. [2]

"1"- نجا أشرف محمود، في الأدب الأندلسي، بحوث في نقد الخطاب الإبداعي، ص: 174-175.

"2"- عيسى فوزي، الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي، (د.ط) دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، سنة: 1991،ص:18.

و قد يستهل السّرد بصيغة الجمع في الزمن الماضي كقوله " ركضنا. حضرنا. انصرفنا...".

و قد يتحول خطاب السرد في مواطن قليلة من المتكلم إلى الغائب أو يمر بتحولات عدة كقوله " فضرب زهير الأدهم بالسوط فسار بنا في قننه و سرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل فشق سمع قرع النواقيس فصحت ..." فقد جمعت بنية السرد هنا بين الغياب و الحضور و الإفراد و الجمع..."[1].

و إنما استعماله للزمن الماضي بصيغه المختلفة يدل انطوائه على أحداث الماضي و التأثر به فمن مثل ابن شهيد عايش نار الفتنة و اكتوى بلظاها ؟ومن مثله تعرض للظلم السياسي و ذاق مرارة السجن ؟ و من مثله سعى لإلى منزلة الكتابة فلم ينصفه أهل زمانه فحقرته أقرانه من أهل اللغة والأدب و القلم ؟ أليست كل هذه الأحداث و غيرها كافية لتجعل من نفس أبي عامر نفسا ناقمة حاقدة تسعى للثأر و الانتقام ممن حقرها في زمن غير بعيد محاولة استرجاع كرامتها لا في مجال الشعر فحسب بل في مجال النثر و الخطابة أيضا.

و النص السابق يعكس تأثر صاحبه و إفادته في النظريات النقدية الحديثة المتصلة بالدراسات السردية تبع في قراءته النقدية المنهج الوصفي لملامح تحليل الخطاب الروائي الذي يركز على الوصف الدقيق لعناصر سردية مفردة في خصوصيتها من مثل وصفه لتابعة زهير بن نمير أو كمثل وصفه لحسين الدنان صاحب أبي النواس أو كوصفه الأورة و بغلة أبي عيسى و الخال على خدها.

وقد عرض ابن شهيد لبنية السرد و زمنه و أشكال تحولاته و هي كلها أركان أساسية في تقنيات السرد الروائي [2].

و يتضح من خلال استقراء نص رسالة " التوابع والزوابع "، أن القاص كان يرمي من وراء

"1"- المرجع السابق، ص: 18.

"2"- نجا أشرف محمود، في الأدب الأندلسي بحوث في نقد الخطاب الإبداعي، ص: 209.

رحلته إلى عالم الجن الاحتكام إليهم كي يجيزوه شاعرا و خطيبا بالإضافة إلى أن الرجل كان شديد الإنحناء على خصومه و حساده من الوزراء و الأدباء و أهل السياسة، ثم إنه دافع عن أدبه من غمزات نقاده،في أسلوب فكاهي ساخر،حين التقى ببعض الحيوانات في ختام الرسالة[1].

لتلك الأسباب حفلت الرسالة بالشعر والنثر الذي شمل بعض رسائله في وصف ثعلب و برغوث بالإضافة إلى رسالة له في الحلواء.و لما كان في الخطابة يعتمد فيما يعتمد عليه، على الوصف كعنصر جوهري،حفلت الرسالة ببعض صيغ الوصف المسجوع،و بالتالي جاء هذا التنوع في الرسالة بهذه الدواعي و تلك الأسباب.

و من ثم لم تكن الجدة،أو إن شئت الطفرة في ذلك التنوع الذي أسماه القاص " الرسالة " إنما تكمن الجدة في نص"ابن شهيد" في كونه جمع بين أشتات الشعر و النثر،و بعض صيغ الوصف، في أسلوب قصصي غير مسبوق في تراثنا النثري على هذا النحو[2].

و قد وجه بطرس البستاني النقد إلى "ابن شهيد" في رحلته، في كونه لم يوفّق في تصوير عالم الجن،و غرائب أرضه و خلقه،و ما اشتهر عنهم من القدرة على الحولة و الإتيان بالخوارق التي بعجز عنها الأناسى [3].

بيد أن الدكتور" علي الغريب محمد الشناوي " قد دافع عن ابن شهيد فرد إخفاقه هذا إلى أنه لم يخطط لصياغة هذه الرحلة صياغة فنية مكتملة الجوانب،و إنما دفعته إلى هذا القالب ظروفه الخاصة مع واقعه،فجاءت من حيث الملابسات التي أحاطت بها،لتعالج قضية"ابن شهيد"الكاتب الشاعرمع واقعه، فتم إغفال بعض الجوانب الفنية من أجل إبراز مشكل" ابن شهيد "مع خصومه و حساده.

"1"– الشناوي محمد علي الغريب، فن القص في النثر العربي، ص: 307.

"2"– المرجع نفسه، ص: 308.

"3"– البستاني بطرس، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 76.

ومن هنا كانت توابع الشعراء و الكتاب،بأوصافها في الرحلة جديرة بأن تكون مثلا لأصحابها[1].

أما لغة "السرد" فقد اتسمت بتوظيف و إيراد الكثير من الألفاظ الغريبة و التضمينات سواء من القرآن أو الحديث أو الأمثال ، و الشعر ، و كلام العرب.

وقد كثر استعمال اللفظ الغريب و الأعجمي في عمل "ابن شهيد " التوابع و الزوابع " فتراه عند حديثه عن الفقيه المنهوم يقول: "و نظر إلى الفالوج * فقال بأبي هذا اللمص، أنظر كأنه الفص، * مجاجة الزنابير، * أجريت على شوابير، * و أي الخبيص *.فقال: بأبي هذا الرخيص ،هذا جليد سماء الرحمة تضخمت به، فأبرزت منه زبده النعمة، يجرح باللحظ ،و يذوب من اللفظ، ثم قالوا بماء البيض البضّ " [2].

و الملاحظ أنه باستعمال "ابن شهيد" لغريب اللفظ أراد أن يضع منهجا للكتاب و المعلمين يتبعونه في تعليمهم للناشئة ،لكي يتعلموا البيان و الشعر و الأدب لرهن أحاسيسهم و مشاعرهم، و اتجاهه إلى استعمال الغريب إنما كان مجاراة للتيار السائد في ق 4 هـ ،و الذي برز فيه "بديع الزمان الهمذاني" بشكل خاص، فقد حاكى ابن شهيد مقامات بديع الزمان التي كانت تتخذ قالب القصة وسيلة لتعليم الناشئة، و كانت تحوي غريب اللفظ.

و ما استعمال ابن شهيد لغريب اللفظ إلا تحدّ " للإفليلي " العالم اللغوي و تحد لسواه من اللغويين والنحاة الذين يشهرون به في مجالسهم، ويرمونه بالجهل فكتاب سيبويه وكتاب الخليل قرأهما " ابن شهيد " من قديم، و لم يعد بحاجة إليهما، و لا أدل على ذلك من قوله و هو يناظر أنف الناقة تابع الإفليلي: قال: " فطارحني كتاب الخليل، قلت: هو عندي في زنبيل. قال: فطارحني على كتاب

"1"- الشناوي محمد علي الغريب، فن القص في النثر الأندلسي، ص: 308.

"2"- الشكعة مصطفى، الأدب الأندلسي، موضوعاته و فنونه، ص :664-665.

سيبويه ، قلت: خريت الهرة عندي عليه و على شرح درستويه . قال لي: دع عنك، أنا أبو البيان. قلت : لاه الله إنما أنت كمغن وسط لا يحسن فيطرب و لا يسيء فيلهي ...." [1].

و ينال"أبو عامر" من أنف الناقة نيلا شديدا و يفاخره ببلاغته و أسلوبه و فكاهته. و يتمثل برسالته في وصف البرغوث، كما يزهو عليه برسالته القصيرة في وصف ثعلب [2].

و في رأيه (ابن شهيد) أن علوم اللغة يجب أن يستفاد منها، و لا بد أن يعتمد الإنسان على الصياغة والموهبة، و لا يبقي ببغاء يردد ما في الكتب.

كما لجأ (ابن شهيد) إلى أسلوب التضمين و الإقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وهنا يظهر بوضوح تأثير الثقافة الدينية في رسالة "التوابع و الزوابع"؛ فمن المعروف أن الأندلسيين كانوا أول ما يعلمون أولادهم تحفيظ القرآن الكريم، ويظهر تأثير القرآن الكريم هنا في صور أبي عامر وألفاظه، وذلك حين يصور بعض المواقف، وأحيانا يكتفي بالإشارة، وأحيانا أخرى يورد نص الآية حسب الموقف فيقول على لسان"أبي بكر" الذي تعجب من نبوغه:" كيف أوتي الحكم صبيا، و هز بجذع نخلة الكلام فاساقط عليه رطبا جنيا." فهو تضمين للآية 25 من سورة مريم قال تعالى: " و هزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ".

وهنا نلاحظ أن "أبا عامر" قد أظهر على لسان خصمه نبوغه المبكر، وقرن حاله بحال سيدنا " يحي عليه السلام " الذي منحه الله سبحانه وتعالى الحكم والنبوة مبكرا،وكأن أبا عامر يريد القول أن نبوغه المبكر هبة من الله تعالى، وهو بذلك يؤيد نظريته في البيان، وهي أن البيان يعمله الله سبحانه و تعالى.وأظهر كذلك أنه شاعر مطبوع يصدر عنه الشعر بتلقائية وكذلك النثردون تكلف ،

"1"- الشكعة مصطفى، المرجع السابق، ص: 668.

"2"- المرجع نفسه، ص: 668.

و له القدرة على القول على البديهة دون أن يجد مشقة في ذلك مثلما لم تجد مريم العذراء مشقة حين جاءها المخاض و أمرها الله بأن تهز جذع النخلة فقط، عندها سيتساقط ثمر رطب ناضج تأكل منه .[1]

و حين يتحدث عن تعليمه يلجأ إلى الاقتباس من القرآن الكريم إذ يقول:" و لم أكن كالثلج تقتبس منه نارا، و لا كالحمار يحمل أسفارا"، تضمين للآية 05 من سورة الجمعة:" كمثل الحمار يحمل أسفارا ". فأبو عامر يعرض بخصمه "أبا بكر" و يراه بأنه يحمل علما لا يعيه و لا يفهمه، و مثله في ذلك مثل الحمار الذي يحمل الأسفار و لا يدري ما فيها، ثم إنه يقيم مفارقة بينه و بين خصمه فيقول: قبل الاقتباس القرآني أنه: اتبع الدواوين و جلس إلى الأساتيذ، و كان متوقد الذهن سريع الفهم، يفيده يسير المطالعة و قليل الالتماح. كما تكرر الإقتباس و التضمين من القرآن الكريم في مواضع متعددة من رسالة التوابع و الزوابع، كقوله مجيبا على سؤال تابعه زهير:" من تريد بعد تابع أبي الطيب؟ " قلت : " مل بي إلى الخطباء فقد قضيت وطرا من الشعراء "، فهو تضمين للآية 37 من سورة الأحزاب " فلما قضى زيد منها وطرا زوّجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا و كان أمر الله مفعولا " [2] .

و قوله في المشاجرة الكلامية بينه و بين تابع أبي قاسم الإفليلي الذي ادعى أن المؤدبين علموه البيان أن البيان ليس من شأنهم، و إنما هو من تعليم الله تعالى حيث قال : " الرحمان (1) علم القرآن (2) خلق الإنسان (3) علمه البيان " [3].

و هكذا استطاع أبو عامر أن يوظف معاني القرآن الكريم في مواقف مختلفة، و هو بذلك يظهر

"1"– محمد سعيد، محمد دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 293.

"2"– المرجع نفسه، ص: 293،294 .

"3"– من سورة الرحمان، الآيات: (1 – 4) .

مخزونه القرآني،و يبزر صلته الوثيقة بالقرآن الكريم ،و حسن استغلاله في تعبيره الشعري"[1]

و استعمل أبو عامر الحديث النبوي في التعبير من خلال"رسالته التوابع و الزوابع" حين تحدث عن حالة الفقيه النهم مع صاحب ثمر النشنا :" فأثبت في صدره العصا، فجلس القرفصاء يذري الدموع، و يبدي الخشوع، و ما منا أحد عن الضحك قد تجلد، فرقّت له ضلوعي، و تجمل الصدفة على ذوي وقر، و في كل ذي رطبة أجر " "[2]. كما أجاد في توظيفه هذا الحديث النبوي: " ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة " "[3].و ذلك حين أراد أن يصور رقة حاله لذلك الفقيه الجائع الذي ازداد نهمه، و تلهف تلهفا شديدا اللحوي .

وترددت اقتباسات متعددة للأمثال العربية في رسالة التوابع و الزوابع، بما يخدم غرض، ابن شهيد في النيل من خصومه، وإبراز شأوه في الكتابة الأدبية شعرها ونثرها، و حين أراد أن يعبر عن تعليمه الأول قال : " وقليل الالتماح من النظر يزيدني ويسير المطالعة يفيدني، إذ صادق شن طبقة ." فهو اقتباس من المثل العربي: وافق شن طبقة. و قوله على لسان تابعه "زهير بن نمير" ينبهه إلى لقاء تابع أبي الطيب المتنبي: " أشدد له حيازيمك"؛ اقتباس من المثل شد لفة حيزمه،و معناه تمّر و تأهب. و قوله يتحدث عن تابع الإفليلي: " العصا من العصية ،" و هنا تضمين للمثل العربي " إن العصا من العصية ". و قوله على لسان بغلة أبي عيسى و هي تتحدث عنه :" شب عمر و عن الطوق "؛ و هو مثل عريق يضرب لمن يلبس شيئا دون قده، أو لمن كبر عن شيء كان يتزيا به. و هو هنا يريد أن يسخر و ينال من أحد مشايخ اللغة غي الأندلس عن طرق البغلة، مشيرا إلى أن الإنسان لا يجب دائما أن يعتمد على ما يقوله غيره، و إنما لابد للإنسان أن يعتمد على قدراته و موهبته الخاصة،

"1"– محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 294.

"2"– المرجع نفسه، ص:294.

"3"– محمد علي صبيح ،صحيح البخاري، (د ط)، ميدان الأزهر،ج3، (د س)،ص: 128.

و لا بد له أن يجيد صياغة أفكار و خواطر و لا يظل كطائر الببغاء يكرر ما قد قيل و فات. و أن لا يبقى عالة على غيره يأخذ منهم و لا يزيد عليهم ولا يشغّل نفسه ثم يوهم نفسه، بأنه أديب أو لغوي أو نحوي .....و هو في الحقيقة غير ذلك "[1].

و كذا قوله في قصيدة رثاء أنشدها لتابع أبي تمام :

يود الفتى منهلا خاليا ***و سعد المنية في كل واد

و في هذا البيت تضمين للمثل العربي: " في كل واد بنو سعد ". و المتأمل لهذا البيت يلحظ مافية من الفرار من المباشرة، فرار من تلك الظروف الاجتماعية و السياسية المضطهدة، فلو كان الأمر بيد الكاتب لواجه معاصريه بما فيهم من علل و نقائص، و لكن خوفه من السجن مرة أخرى حال دون ذلك. فبنو سعد المتواجدون في كل زاوية من قرطبة يترصدونه متلهفين، فأين المفر من بين أيديهم ما إن كشف الستار عن عيوب كل واحد منهم، و واجههم بما فيهم من خطل عقل و فساد ذوق ."[2].

كما وردت له عدة اقتباسات من أشعار بعض شعراء العربية منها على سبيل المثال: قول زهير تابع ابن شهيد، ينادي عتبة بن نوفل تابع امرئ القيس " بسقط اللوى فحمل،ويوم دارة جلجل" و هنا تضمين لقول امرئ القيس :

قفا بنك من ذكرى حبيب و منزل *** بسقط اللوى بين الدخول فحومل [3]

و قوله :

ألا رب يوم لك منهن صالح *** و لا سيما يوما بدارة جلجل [4]

"1"– محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 294.

"2"– البستاني فؤاد أفرام ، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 125.

"3"– ياسين الأيوبي ،أمرئ القيس ،الديوان جمعه وشرحه وقدم ووضع حواشيه وفهارسه، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي،بيروت،دمشق ، عمان ،سنة :1419 هـ –1998م ،ص:40

"4"– المصدر نفسه، ص: 42.

و قوله لعتاب بن جناء تابع أبي تمام " فبمعمرو و القمر الطالع، و بالرقعة المفكوكة الطابع، " و هنا اقتباس من قول أبي تمام :

يا عمر قل للقمر الطالع *** اتسع الخرق على الرافع

ما أنت إلا رشا خاذل *** حل بمغنى أسد جائع [1].

و قول ابن شهيد لزهير " أو هل صرنا بذات الأكيراح ؟"اقتباس من قول أبي نواس :

يا دير حنة في ذات الأكيراح *** من يصح عنك فإنني لست بالصاحي

رأيت فيك ضباء لا قرون لها *** يلعبن منا بألباب و أرواح [2].

كما ورد اقتباسه من كلام العرب حين قال مخاطبا تابع البحتري " إن الرجال لا تكال بالقفزات" و قد قال هذه العبارة: " شقة بن ضمرة " للنعمان بن المنذر و العبارة هي " أيها الرجال إن الرجال لا تكال بالقفزان و لا توزن بالميزان "[3].

والملاحظ هنا أن ابن شهيد بانتقائه كبار شعراء الجاهلية و العصر العباسي، إنما يريد القول أنه شاعر فحل فذ كما له القدرة على مقارعة الشعراء الجاهليين في بيئتهم، له القدرة على مضاهاة كبار أدباء بني العباس، و منافستهم في بيئتهم الثرة،و التفوق عليهم، فإن كانوا_ هم_ أحدهم يجيد في النثر و الخطابة ،و الآخر في النظم و القريض فإنه هو(أي ابن شهيد)مجيد في الاثنين على حد السواء، فهو شاعر خطيب بإجازة توابع الشعراء و الكتاب الجاهليين و العباسيين، أنفسهم و اعترافهم بقدرته الأدبية، إنه يجيد في المنظوم كما يجيد في المنشور، و لذلك فهو يستحق حمل لواء الريادة الأدبية في المشرق و المغرب العربي معا .

"1"– المصدر السابق، ص: 42.

"2"– البستاني فؤاد أفرام، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 125.

"3"– المرجع نفسه، ص: 125.

و هكذا يظهر أبو عامر مخزونه الثقافي من التراث العربي من خلال حشده لهذه الأمثال،وكذا بعض الشعر، و عبارات النثر، بالإضافة إلى القرآن الكريم، و الحديث الشريف، و يبين قدرته على توظيفها في سياقات مختلفة تناسب مواقفه المتباينة [1].

وقد أدت هذه التضمينات والإقتباسات دورا كبيرا قي رسالة "التوابع" التي استوعبت كل ما جادت به ذاكرة "أبي عامر" و أعطاها قيمة أدبية جعلت منها موسوعة تضم شتى جوانب الثقافة، مما كتب لها الخلود، و أصبحت منهلا يعطي لكل جيل حصيلة ذات قيمة .

و قد لجأ أبو عامر في أسلوبه إلى استعماله للمحسنات البلاغية بصورة لافتة للنظر، وبخاصة السجع و ذلك راجع إلى إيمانه بأن السجع و البديع يضيفان للنثر خصائص الكلام الجميل، و كان يرى في المقال أن خلو النثر من البديع يجعله أقرب إلى العجمة و أبعد عن الفصاحة العربية، لهذا نراه يكثر من السجع في "التوابع و الزوابع" [2].

أما رسائله التي ضمنها "توابعه و زوابعه" فيتضح فيها استعمال السجع والبديع، يقول وهو يتحدى تابع الإفليلي " ليس من شعر يفسر، أو أرض تكسر، هيهات حتى يكون المسك من أنفاسك و العنبر من أتقاسك، و حتى يكون مساقك عذبا، و كلامك رطبا، و نفسك من نفسك، و قليبك من قلبك و حتى تتناول الوضيع فترفعه و الرفيع فتضعه ،و القبيح فتحسنه " [3] .

كما يقول و هو يصف برغوثا: " أسود زنجي، و أهلي وحشى ليس بوالي و لا زميل ،و كأنه جزء من ليل شوينزة، أو ثبتها غريزة أو نقطة مداد، أو سويداء قلب قراد، شربه عب، و مشيه وثب ،يكمن نهاره و يسرى ليله... ". [4]

"1"– محمد سعيد محمد ،دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 395.
"2"– البستاني فؤاد أفرام ، رسالة التوابع و الزوابع، ص :125.
"3"– المرجع نفسه، ص: 125.
"4"– الشنتريني ابن بسام ،الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1/م1 ،ص: 275.

و يظهر السجع من خلال حديث أبي عامر عن حركة حمر الجن " فهي تصطك بالحوافر، وتنفخ من المناخر و قد اشتد ضراطها، و علا شحيحها و نهاقها "[1].

و يظهر السجع حين مخاطبته للإوزة: " أيتها الإوزة الجميلة، العريضة، الطويلة، أيحسن بجمال حديقتك ،و اعتدال منكبيك، و استقامة جناحيك ،و طول جيدك، و صغر رأسك، مقابلة الضيف بمثل هذا الكلام "[2].

و يبدوا واضحا أن هدفه من الإكثار من السجع إحساسه بأن الذواقة في قرطبة أصبحت تستسيغ النثر الذي يبنى على السجع و الإزدواج، و السجع الذي ارتضاه "أبو عامر" و يصدرعنه لا تكلف فيه، بل هو صادر عن طبعه، و ساقه في ألفاظ لا يظهر عليها الإغراب و التكلّف [3].

وقد كان "ابن شهيد" شديد الإعجاب بالمتنبي لذا نراه قد حشد ألوانا من البديع في قصائده التي عارض بها تابعه كقوله :

لا تبكـي من الليالي أنـها *** حرمتك نخبة شارب مشرب

فأقل مالك عندها سيف الردى *** يستل من شعر القذال الأشيب

و رحيل عشيك كل رحلة ساعة *** و فناء طيبك في الزمان الأطيب

فإذا بكيت فابك عمرك انـه *** زجل الجناح يمر مر الكوكب [4]

و من الطبيعي أن يعجب ابن شهيد "بالمتنبي" فقد كان الإعجاب به و التعصب له من سمات الحياة الأدبية في الأندلس، و خير دليل على ذلك ما أورده" ابن رشيق" فيما بعد عندما قال " و يختمون الشعر بأبي الطيب و هو خاتمة القوم لا محالة "[5].

"1"- الشنتريني ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1/م1 ،ص: 297.

"2"- المصدر نفسه ،ص: 299.

"3"- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 291.

"4"- البستاني فؤاد أفرام ، رسالة التوابع و الزوابع، ص :149.

"5" القيرواني ابن رشيق ،العمدة في محاسن الشعر وأدبه و نقده، ص:81.

و لقد قدر لابن شهيد أن يصطفي من عمداء الكتابة الثلاثة المشهورين في المشرق العربي ، وهم الجاحظ ، و ابن الحميد ، و بديع الزمان، أولئك الذين يكثرون من استخدام المحسنات البديعية و خاصة السجع و أساليب التوشية ،و التي تولي بدورها عناية فائقة للوصف لكن السجع عند" ابن شهيد" غير متكلف و لا مجتلب، و إنما يرد عفو الخاطر، لذا تجده يعلق بالنفوس، و ينشرح له الفؤاد، فلا تحس معه صنعة و لا افتعالا.

و العائد إلى رسالة التوابع والزوابع يلحظ أن ابن شهيد لا يستخدم فيها دائما أسلوب السجع، بل يسجع تارة و لا يسجع أخرى، " فتراه يلتزم السجع أحيانا، و يؤثر المجاز على الحقيقة، فتكثر عنده الاستعارات و التشابيه و الكنايات ... وجملته رشيقة العبارة محكمة التركيب، فيها جزالة و إيجاز، على غير خشونة ... يمدها بآيات القرآن الكريم و الحديث الشريف، و أقوال العرب وأمثالهم، و يستعين عليها بمأثورات أخبارهم و أحاديثهم " (1).

و يخبرنا "ابن شهيد" في ثنايا رسالته أن كلا من تابعي "الجاحظ" و "عبد الحميد" قد استحسنا أسلوبه بالرغم من أنهما لا يميلان إلى السجع ،فكأنما هو هنا بصدد رد الاعتبار للسجع و مبررا لاستخدامه الفني له، حيث يقول بعد أن قرأ عليهما رسالته في الحلواء فاستحسناها و ضحكا عليها وقالا : " إن لسجعك موضعا من القلب، و مكانا من النفس ،و قد أعرفه من طبعك، و حلاوة لفظك و ملاحة سوقك ما أزال أفنه و رفع غينه "[(2)].

و ربما هذا هو معنى قولنا إن الكاتب الكبير في الأندلس لم يكن يخضع في صنع نماذجه لمذهب معين من مذاهب المشرق، بل هو على نحو مانرى الآن عند ابن شهيد – كان يتقلب بين

"1"– السيوفي محمد مصطفى، تاريخ الأدب الأندلسي، ص: 88.

"2"– البستاني فؤاد أفرام ، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 122.

المذاهب و المناهج المختلفة. ومع ذلك فلا تظن أن "ابن شهيد "حين يستخدم السجع كان يستخدم البديع الذي هو الشق الثاني لمذاهب التصنيع، فإنه لم يكن يتصور هذا المذهب بكافة تفاصيله كما تركه أصحابه، و ليس معنى ذلك أنه لم يقرأ لهم ما يفهم به هذا المذهب، بل لقد قرألهم كثيرا و خاصة الصابي و بديع الزمان"[1].

كما ورد الجناس و الطباق في مواضع متعددة في رسالة "التوابع والزوابع" ومن ذلك قوله في رسالة الحلواء التي قرأها لتابعي "الجاحظ" و "عبد الحميد"، و هو يتحدث عن الفقيه المنهوم " ورأى الخبيص فقال : بأبى هذا الغالي الرخيص، هذا جليد ماء الرحمة، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة، يجرح باللحظ، و يذوب من اللفظ ،جمر أبيض ؟ قالوا بماء البيض البض، قال غض من غص"[2]. وقوله مخاطبا لتابع الإفليلي "...ليس من شعر يفسر، ولا أرض تكسر، هيهات حتى يكون المسك من أنفاسك، والعنبر من أنقاسك ،وحتى يكون عذبا ،وكلامك رطبا، ونفسك من نفسك، وقليبك من قلبك، وحتى تتناول الوضيع فترفعه، والرفيع فتضعه ،والقبيح فتحسنه "[3].

و يلاحظ من خلال ما ورد من جناس وطباق و مقابلة في نثره الذي ورد في رسالة" التوابع والزوابع" الاعتدال في استعمالها فهو لم يسرف في ذلك، و كل ما صدر عنه كان يصدر عن طبعه، وكأنه يطبق نظريته التنظيرية في البديع... ثم جاء " أبو تمام " فأسرف في التجنيس، وخرج عن العادة وطاب ذلك منه،وامتثله الناس،فكل شعر لا يكون اليوم تجنيسا تمجه الآذان، والتوسط في الأمر أعدل، ولذلك فضل أهل البصرة صريع الغواني على أبي تمام [4].وهو يفضل التوسط في استعمال المحسنات البديعية دون إسراف،وقد يوحي هذا بتناقض مواقف أبي عامر حين أشار على لسان تابع "الجاحظ "

"1"- ضيف شوقي، الفن و مذاهبه في النثر العربي ، الطبعة التاسعة،دار المعارف بمصر ،(د.س)،ص:122..

"2"- الشنتريني ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1/م1 ،ص:209.

"3"- المصدر نفسه، ص: 275.

"4"- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 294.

بأنه مغرى بالسجع، لكن مبرر أبي عامر في إكثاره من السجع هو انصراف الأذواق عن الأساليب البلاغية الرفيعة، و إنتشار اللكنة، و أصبح ذوق العصر ينصرف إلى الأساليب التي يطغى عليها السجع و الإزدواج. و على هذا تصرّف "أبو عامر" بما يناسب هذا الحال [1].

2- الوصف :كما وظّف إبن شهيد " الوصف " في رسالة "التوابع والزوابع" لأغراض شتى في نفسه، فوصف بصورة مقتضبة في أرض الجن المكان الذي يقيم فيه تابع " إمرئ القيس " في واد من الأودية ذي دوح تتكسر أشجاره و تترنم أطياره " [2]. و كذلك الوادي الذي يوجد فيه تابع " طرفة "، ووقف طويلا في وصف " دير حنة " الذي يقيم فيه تابع " أبي نواس "،فهو دير عظيم تعبق روائحه، و تصوك نوافحه "،أما الرهبان فيقول عنهم:" وأقبلت نحونا الرهابين، مشددة بالزنابير قد قبضت على العكاكيز،بيض الحواجب و اللحى،إذا نظروا إلى المرء استحيا،مكثرين للتسبيح،عليهم هدى المسيح ".ووصف البيت الذي نزلوا فيه و يوجد بداخله تابع" أبي نواس " :و نزلنا و جاءوا إلى بيت قد اصطفت دنانه،وعكفت غزلانه،وفي فرجته شيخ طويل الوجه و السبلة و قد افترش أضغاث زهر و اتكأ على زق خمر،وبيده طر جهارة و حواليه صبية كأضب تعطو إلى عرارة "[3].ووصف برغوث و قال عنه:" أسود زنجي، و أهلي وحشي، ليس بوان و لا زميل،وكأنه جزء لا يتجزأ من ليل " [4]. ووصف الثعلب فقال:"أدهى من عمرو وأفتك من قاتل حذيفة بن بدر،كثير الوقائع في المسلمين مغرى بإراقة دماء المؤذين "[5].كما وصف الماء و الإوزة،وحلبة حمر الجن،وهذا إنما يدل على براعته في فن الوصف ،وجاء وصفه محكم التركيب رشيق العبارة، و يبرز في صورة رائعة.

"1"- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 292.

"2"- الشكعة مصطفى ،الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه، ص: 647.

"3"-المرجع نفسه، ص: 653.

"4"- البستاني فؤاد أفرام ، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 125.

"5"- المصدر نفسه ،ص: 125.

و لعل أول شخصية يعمد إليها ابن شهيد في رسالته، و يتعرض لها بالوصف المجمل و الدقيق شخصية تابعه " زهير بن نمير، " لذا قال عنه: " فإذا أنا بفارس على باب المجلس على فرس أدهم، كما بقل وجهه و قد اتكأ على رمحه " [1].

وما تجدر الإشارة إليه، أن الوصف الذي قدمه لنا "ابن شهيد" لم يكن وصفا عشوائيا، نظرا لما تعرض له من أحداث و قصص كان تابعه شاهدا عليها.

و لما كان الوصف عنصرا جوهريا من عناصر العمل القصصي، حاول ابن شهيد اعتماد هذا الأخير في رسالته، التي جعلها تحفل ببعض صيغ الوصف المسجوع، في أسلوب قصصي غير مسبوق في تراثنا النثري [2].

و القاص يمهد للأحداث في رسالته بأوصاف سريعة ،بسيطة في مجملها ،من مثل وصفه للجواد قائلا : " فصرنا عليه، و سار بنا كالطائر، يجتاب الجو فالجو، و يقطع الدوفالدو. "ثم يصف صاحب" أبي تمام" بأنه فتى متجهم الوجه كفلقة القمر، يسكن قعر عين يصفها الراوي بأنها كمقلة حوراء، لينتقل فيما بعد إلى تابع " أبي القاسم " ،"أنف الناقة"، ليشخصه لنا فيقول بأنه:" جني أشمط وارم الأنف، يتظالع في مشيته، كاسرا لطرفه زاويا لأنفه " [3] .

و قد كان ابن شهيد بارعا في تصويره،حين يعمد إلى الوصف،فنجده يصور من يصف في حركاته و سكناته،ويجعله ماثلا أمام أعيننا،وهذا دليل واضح على المقدرة الفائقة للقاص و على الوصف و التشخيص باعتبارهما عنصران مهمان في القص .

و الفصل الأخير من رسالة "التوابع و الزوابع" يؤكد هذه النتيجة، و ذلك حين نراه يعرض فيه

"1"- المرجع السابق، ص: 89.

"2"- الشناوي علي الغريب محمد، فن القص في النثر الأندلسي، ص: 308.

"3"- ينظر: البستاني بطرس ، رسالة التوابع والزوابع، ص 91-124.

إلى تقديم لوحات رائعة عن داوي الجن ،والحيوانات التي لقيها فيه، فيصف بركة ماء بإحدى جوانب الوادي،ومن حولها طائفة من حمر الجن وبغالها، وتتقدم له بغلة شهباء عليها جلها و برقعها فتنشد بعض الشعر. ليدخل "ابن شهيد" في مناظرة لغوية مع إوزة فصيحة، ناقدة، نحوية، لغوية، اسمها العاقلة، وكنيتها أم خفيف التي اتهمته بالهوى في حكمه على شعر دكين الحمار و غريمه البغل،هذه المناظرة التي أكسبت الرسالة خفة و رشاقة.

على أن الأمر الذي ينبغي أن نقف عنده طويلا في هذا الجزء من المشهد هو ذلك الوصف الدقيق،الأخاذ والممتع السلس،المتحرك الذي وصف به أبو عامر الإوزة،ساكنة متحركة،معجبة بنفسها ومغرورة فرحة،غاضبة ... وفي جميع حالاتها،وشخصها وكأنها ماثلة أمام أعيننا فقال عنها :" فكانت بالقرب منا إوزة بيضاء شهلاء في مثل جثمان النعامة،كأنما عليها الكافور،أو لبست غلالة من دمقس الحرير،لم أر أخف من رأسها حركة، ولا أحسن للماء في ظهرها صبّا، تثني سالفتها و تكسر حدقتها و تلولب قمحدودتها " [1].

و رغم تهرب "ابن شهيد" من الإوزة الأدبية،لضعف فيه اتجاه النحو والغريب، إلا أنه اضطر لمعارضتها، ومواجهتها،سائلا تابعه عنها،فأجاب بأنها تابعة شيخ من مشايخ زمانه،وقد سكت عن الإفصاح عن الشيخ الذي ترمز إليه لأنه دل عليه بالحوار وتسمى العاقلة و هي ذات حظ في الأدب، فاستعّد لها بقالب وصفي مليء بالسجع يحرك غافي الحس،يبغي من ورائه التأثير فيها،فقال : " أيتها الإوزة الجميلة العريضة الطويلة أيحسن بجمال حديقتك،واعتدال منكبيك،واستقامة جناحيك، وطول جيدك، وصغر رأسك مقابلة الضيف بمثل هذا الكلام ... و أنا الذي همت الإوزة صبابة" [2]. فنزل عليها فجأة ظرف شديد ،ودخلها العجب من كلامه،ثم " ترفعت بخفة شديدة في مائها،ذاهبة

"1"- الشكعة مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه، ص: 676.

"2"- المرجع نفسه، ص:676.

جائية،طائرة وسابحة أخرى،تغمس رأسها في الماء،ثم تبسط جناحها،وتقدم حركات استعراضية تدل على فرحها، وسرورها من الوصف الذي وصفها به " ابن شهيد " "[1].

و قد أجاد الراوي باختتام رسالته بهذا الفصل، الذي كثر فيه الوصف؛ إذ جاء ستارا أراد من خلاله أن يهاجم أهل زمانه من المعلمين و الأدباء و النقاد،ورغبته في إثبات تفوقه الأدبي أمام سلطان معلمي قرطبة،مع لغويين و نحويين حكموا بقصوره في علم النحو و اللغة والغريب،متواريا خلفه بسبب الآلام التي يعاني منها،من جراء رفض مجتمعه له،وإنزاله في مكانة غير لائقة بأديب ناقد مثله؛ فقد كان الرجل غرضا لكل حجر عابر [2].

وفي وصفه لهم يقول:" وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من،النحو وحفظ كلمات من اللغة،يحنون على أكباد غليظة،وقلوب كقلوب البعرات،ويرجعون إلى فطن حمئة،وأذهان صدئة،لا مدب لها من شعاع الرقة،ولا مدب لها من أنوار البيان،سقطت إليهم كتب في البديع و النقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الإيقاع و الرمز على الألحان " [3].

و من هنا يتضح لنا أن "أبا عامر" بأوصافه هذه يريد أن يثبت أن له القدرة على الوصف دون حدود فباستطاعته وصف الأشياء الكبيرة والصغيرة،الجادة والتافهة،الإنسان والحيوان،وباختصار يستطيع وصف ما تقع عليه عينه،وبذلك يكون قد ألجم الأفواه التي لا تعترف بعبقريته،وقد أظهر طريقته في الوصف حين قال على لسان " زبدة الحقب " تابع بديع الزمان " أو ما علمت أن الواصف إذا وصف شيئا لم يتقدم إلى صفته،ولا سلط الكلام على لغته،اكتفى بقليل الإحسان وإجترأ بيسر البيان، لأنه لم يتقدم وصف يقرن بوصفه ولا جرى مساق يضاف إلى مساقه . " [4].

"1"- المرجع السابق، ص:42.

"2"- الشناوي علي الغريب محمد فن القص في النثر الأندلسي، ص: 323.

"3"- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 259.

"4"- المرجع نفسه، ص: 290.

و هو بقدر ما يبين للواصف كيف يتعامل مع الأشياء الموصوفة، و هو ينظر للنقد في بيئة قرطبة يظهر في الجانب التطبيقي من وصفه قدرته على الإتيان بالوصف البديع [1].

وبطبيعة الحال تعتبر النزعة الوصفية القصصية نمطا أسلوبيا تمرس فيه الأندلسيون و أثبتوا فيه قدراتهم التي توشي الألفاظ و المعاني بألوان و أصباغ زاهية تجعل كتاب الأندلس يبدون كأنهم مبتكروا هذا اللون من التعبير.

هذا عن كتاب الأندلس بعامة أما عن ابن شهيد فهو بصفة خاصة يعد " من النفر الذين إذا كتبوا ارتاحت لهم البلاغة و تشققت لهم أكمام البيان " [2].

3- الأحداث : و قد جاء تسلسل " الأحداث " منتظما على الرغم من أن الرسالة لم تصل إلينا كاملة،إذ اختصرها الكاتب ثم اختصرها" ابن بسام "،وهي تبدأ بتعريف "أبي بكر " أبي عامر بقدرته الإبداعية في ودب ويتهمه بأنه يردد ما يقوله غيره، وقد ذكره "ابن شهيد" في مقدمة الرسالة و تعجّب من نبوغه في قوله: " إما إن به شيطانا يهديه، وشيصبانا يأتيه،وأقسم لأن له تابعة تنجده وزابعة تؤيده، ليس هذا في قدرة الإنس، ولا هذا النفس لهذه النفس "[3].

وذكره مرة أخرى في وعده من خصومه بقوله:" أما أبو بكر فأقصد وأقتصرعلى قوله : له تابعة تؤيده"[4].و توحي هذه المقولة بذم أبي عامر أكثر مما توحي بمدحه، وكأنه يردد أقوال غيره ولكن هذا الكلام الذي يحمل في باطنه التعريض" بأبي عامر" سرعان ما عرف هذا الأخير مغزاه، عندها ثارت ثائرته،ورد أمام خصمه هذا بقوله: " فأما وقد قلتها أبا بكر فاصغ أسمعك العجب العجاب " [5].

"1"- المرجع السابق ، ص :291.

"2"- السيوفي محمد مصطفى، تاريخ الأدب الأندلسي، ص: 88.

"3"- محمد سعيد محمد ،دراسات في الأدب الأندلسي ،ص: 258.

"4"- المرجع نفسه، ص: 258.

"5"- المرجع نفسه، ص 258.

وهو بذلك يريد أن يدافع عن نفسه أمام خصمه من تهمة الانتحال التي نعته بها أبو بكر و غيره،فألف رسالته هاته محاولا فيها إثبات مقدرته على النظم و النثر بإجازة كبار شعراء العربية و كتابها،بواسطة توابعهم التي استحضرها،ومن خلال نقده الذي أبداه في مجالس نقد الجن [1].

و قد ذكر"ابن شهيد" بعد ذلك لأبي بكر كيف تلقى تعليمه،وحكى قصة مفادها: ذات يوم بينما هو في البستان يرثي حبيا له مات ؛إذ عجز فجأة عن استكمال ما هو بصدده من قول الشعر فظهر له فارس اسمه " زهير بن نمير " من أشجع الجن،وأكمل له، ورغب إليه في اصطفائه ومصاحبته، فقبل "ابن شهيد" هذه الصحبة، وقبل أن يودع صديقه الجني ،قال لأبي عامر متى شئت استحضاري أنشد هذه الأبيات :

و إلى زهير الحب يا عز أنه *** إذا ذكرته الذاكرات أتاها

إذا جرت الأفواه يوما يذكره *** يخيل لي إني أقبل فاها

فأغشى ديار الذاكرين و إن نأت *** أجارع من داري هوى لهواها [2]

و كان أبو عامر فيما بعد كلما عجز عن تكلمه أبيات ينظمها أنشد الأبيات فيظهر له " زهير الجني " فيعينه و يمده فينطق و يكمل ما هو بصدده .

بعد هذا المدخل ينتقل أبو عامر إلى صلب الموضوع؛ فبعد أن تأكدت الصحبة بين الأشجعي الإنسي و الأشجعي الجني تذاكرا أخبار الشعراء والخطباء، وتساءل ابن شهيد إن كان في الإمكان أن يلتقيا فذهب زهير يستأذن شيخهم، وبعد أن تمت الموافقة انطلق "أبو عامر" وتابعه" زهير"يقطعان الجو والدوّ حتى وصلا إلى أرض الجن، وطاف "زهير" بابن شهيد على تابع امرئ القيس، تابع "طرفة بن العبد" وتابع "قيس بن الخطيم" من شعراء الجاهلية ،وتابع أبي تمام، وتابع البحتري،

"1"- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 258-259.

"2"- المرجع نفسه، ص: 257.

وتابع "أبي نواس " و تابع "أبي الطيب المتنبي" من شعراء العباسيين،فيسمع أبو عامر من توابع الشعراء أحيانا ،ويطلب التوابع منه أن ينشد من شعره أحيانا أخرى، وفي كلتا الحالتين يعجب هؤلاء بشعر أبي عامر و يشيدون به ثم يجيزونه جميعا.

و بعد ذلك يطلب أبو عامر من تابعه أن يطوف به على توابع بعض الكتاب حين ذكر له أنهم جمعوا له في مكان واحد وهو"مرج دهمان"، و كان من بينهم تابع الجاحظ،وتابع عبد الحميد الكاتب، فأولهما أعجب بأدب ابن شهيد فأخذ عليه إكثاره من السجع،وثانيهما تدخل في النقاش و أكد أن السجع طبع "ابن شهيد" وأن ما ذكره من المماثلة تكلف، فدافع ابن شهيد عن نفسه، ثم طلبا منه أن يقرأ عليهما من رسائله فقرأ عليهما رسالته في صفة البرد والنار والحطب؛ ثم رسالته في الحلواء فاستحسناها، أما تابع الإفليلي فتحاور مع أبي عامر و طلب منه أن يبارزه في كتاب الخليل و كتاب سيبويه فاستهان بهما، وبارى تابع " البديع " في وصف الماء فخجل تابع " البديع " لتفوق أبي عامر عليه. وفي آخر الجلسة أجازه تابع "الجاحظ" و"عبد الحميد" و أقرا بتفوقه. وبعد ذلك ينتقل "أبوعامر" و تابعه إلى أحد مجالس الجن النقدية التي احتد فيها النقاش بين من تفوق و من قصر من الشعراء في المعنى الواحد ،ولأبي عامر في هذا المجلس لمحات نقدية مهمة [1].

ثم ينتقل هو و تابعه إلى مكان يوجد به حيوان الجن،وقد كانت بين الحيوانات خصومة بين قطعتين غزليتين من الشعر إحداهما لحمار والأخرى لبغل اختلفا فيهما، وحكما أبا عامر فحكم للبغل بالتفوق.وعلى مقربة منهما توجد بركة ماء بها إوزة و هي صاحبة أحد النحويين أرادت مناظرة "أبي عامر"في النحو والغريب فاستخف بسخفها بعد أن أفحمها و بين لها حماقتها. وهذا آخر ما وصل إلينا من الرسالة التي فيما يبدو لم تنته بعد لأن أبا عامر بقي في أرض الجن و لا ندري

"1"– المرجع السابق ، ص: 258–259.

مصيره بعد ذلك [1].

و على هذا نستطيع القول –بارتياح– أن هناك تسلسلا منطقيا ينتظم الأحداث؛إذ ينسجم المدخل مع بقية الفصول،حيث أراد "أبو عامر" أن يثبت للناس تفوقه الأدبي – تفوق الأديب الأندلسي – و أن يرضي غروره الذاتي شاعرا عبقريا و ناثرا مبهرا ثم ناقدا وقد حقق ذلك من خلال سرد أحداث نصه [2].ولا أدل على ذلك مما سجله بقلمه في ثنايا رسالته من ثناء على شعره ساقه على ألسنة من لقيهم من قدامى الشعراء و الخطباء،فهو يقول مثلا على لسان تابع "المتنبي" عند ما سمع بعض أشعاره فقال : " إن امتد به طلق العمر فلا بد أن ينفث بدرر، وما أراه إلا سيحتضر بين قريحة كالجمر و همة تضع أخمصه على مفرق البدر " [3].

وكأننا بأبي عامر هنا يحس بأن عمره قصير،وأنه لن يعمر طويلا وفي جعبته الكثير من قريح الشعر، وحياكة للكلام وللنثر، و لابد لهما من تفريج وتسريح، قبل وصول ملاك الموت إلى روحه. وأنه رغم إحساسه ذاك ؛ وإحساسه بظلم أهل زمانه و انقلابهم عليه،لا يريد الأنحناء البتة قدام أرجلهم؛ فهو صاحب همة و كرامة كبيرة. وبالفعل فقد كان "أبوعامر" والموت يدنو منه شيئا فشيئا، يكتب إلى أصدقائه ومن بقي لهم في قلبه حب و مودة، رسائل حب كثيرة يملؤها الحزن و الأسى، وأشعارا تفيض مودة ورقة، هي من أجود ما جادت به قريحة شاعر أندلسي إذ ذاك لأنها نابعة من قلب صادق متألم .

و كذلك ما ساقه الشاعر الخطيب القاص على لساني تابعي " الجاحظ " و " عبد الحميد " يوجه الخطاب إلى نفسه: " إنا لنخبط منك ببيداء حيرة، و تفتق أسماعنا منك بعبرة ما ندري أنقول شاعرا

"1"– محمد سعيد محمد ، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 257.

"2"– المرجع نفسه ،ص: 288.

"3"– المرجع نفسه، ص: 260.

أم خطيبا ؟ فقلت : الإنصاف أولى، و الصدق بالحق أحجى، ولا بد من قضاء. فقالا: إذهب فإنك شاعر خطيب " [1].

و عليه فإن الانتقال في رسالة التوابع والزوابع من مشهد إلى مشهد، ومن لقطة إلى لقطة؛ ومن فصل إلى فصل، لا يشعر بالملل ولا بالخلل، فالطريقة التي روى بها البطل الأحداث تنم عن قدرته الفائقة في القص، فتراه يجيد أسلوب التشويق والإثارة، ويحسن هز مشاعر الآخرين والشعور معه بما يشعر، وبالخصوص حيال خصومه و حساده. وها هو ذا مثلا ينقلنا من خلال سرده إلى نقطة جوهرية تتصل بخصومه و حساده، وذلك من خلال ما بلغ تابعا " الجاحظ " و" عبد الحميد " من أنه : لا يجاز في أبناء جنسه ولا يمّل من الطعن عليه و الاعتراض له "[2].

و لكنهما لا يسألانه عن السبب في ذلك؛ وهو بطبيعة الحال سبب مسكوت عنه في الرسالة، وهو يرجع في المقام الأول إلى تفوقه عليهم مما أدى إلى حسدهم له؛ وفي المقام الثاني إلى لهوه ومجونه، وزهوه بنفسه وأدبه. ويذكر ابن شهيد ثلاثة كانوا لا يملون من الطعن عيه و هم : أبو محمد و أبو القاسم و أبو بكر [3]

و عموما فإنه يمكننا القول بأن الأحداث في رسالة التوابع والزوابع اتسمت بحسن التنسيق والانسجام، وحسن التخلص والإنتقال من مشهد إلى آخر، دونما خلل أو ملل. على أنه مزج بين أساليب السرد و الوصف و الحوار ليعطي عمله بذلك قيمة فنية كبرى.

4- الحوار: و قد شمل " الحوار " جوانب كثيرة و متعددة من الرسالة، وهذه الظاهرة كانت موجودة في المشرق ،ومقامات بديع الزمان تحوي جانبا من هذا الاتجاه ،وابن شهيد دون شك متأثر بمقامات

"1"- المرجع السابق، ص: 317.

"2"- المرجع السابق، ص: 257.

"3"- المرجع السابق، ص: 317.

البديع و أساليبها، ورسالته "التوابع" تعكس لنا هذا التأثر. ففي لقائه بتوابع الشعراء خاصة؛ يكثر" ابن شهيد" من تكرار الحوار، فيكثر من قال، قلت ، وما شابه ذلك[1].

و لا غرابة في أن يكثر "ابن شهيد" من الحوار في رسالته، لأن هدف أبي عامر انتزاع شهادات كبار الشعراء و الخطباء من خلال توابعهم، ويبدأ حواره مع "زهير بن نمير" تابعه أول لقاء بينهما :

فصاح بي : أعجز يا فتى الإنس ؟

قلت: لا و أبيك للكلام أحيان و هذا شأن الإنسان.

قال لي: قل بعدي...و قلت له: بابي من أنت؟قال: أنا زهير بن نمير من أشجع الجن [2].

و يتخلل الحوار جميع مقابلاته مع الشعراء و الكتاب و النقاد ومع حيوان الجن، ومن ذلك الحوار التالي الذي دار بين زهير بن نمير و صاحبه أبي عامر، وأهل دير حنة،عند وصولهما إلى دير أبي نواس ، يدور هذا الحديث :

وصاح زهير : سلام على أهل دير حنة.

قلت لزهير : أو هل صرنا بذات الأكيراح ؟

قال : نعم،وأقبلت نحونا الرهابين مشدودة بالزنابير قد قبضت على العكاكيز، بيض الحواجب. واللحى، إذا نظروا إلى المرء استحيا، مكثرين للتسبيح، عليهم هدى المسيح.

فقالوا: أهلا بك يا زهير من زائر، وبصاحبك أبو عامر، ما بغيتك ؟

قال : حسين الدنان .

قالوا : إنه لفي شرب الخمرة منذ عشرة أيام ،و ما نراكما منتفعين به ؟

فقالوا : و على ذلك[3].

"1"- البستاني فؤاد أفرام، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 105.
"2"- الشنتريني ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1/م1، ص: 247.
"3"- البستاني فؤاد أفرام، المرجع السابق، ص: 105.

وكمثل هذا الحوار الذي دار بين أبي عامر وتابع الجاحظ، قال أبو عامر : فاستندنا ني و أخذ في الكلام معي،فصمت أهل المجلس، فقال : إنك لخطيب و حائك لكلام مجيد لولا أنك مغرى بالسجع ثم قلت له : ليس هذا – أعزك الله – مني جهلا بأمر السجع، و ما في المماثلة والمقابلة من فضل ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام ...فقال : أهذا على تلك المناظر وكبر تلك المحابر وكمال تلك الطياليس ؟ قلت : نعم إنها لحاء الشجر، وليس ثم ثمر ولا عبق، قال لي : صدقت إني أراك قد ماثلت معي، قلت : كما سمعت [1].

وهكذا نجد الحوار يتكرر في "التوابع و الزوابع"، ولم يقتصر على هذه القضية بل وجدت هذه الظاهرة في رسائل "ابن شهيد" الأخرى.

و هو يلجأ إلى الحوار ليظهر من خلاله إحساسه بالمعاناة من خصومه ليبرز ما يتهم به من قصور في الشعر والنثر والنحو والغريب، في الوقت نفسه ليقنع التوابع الذين التقى بهم بما يتميز به من قدرات إبداعية متفردة تدعوهم على الفور للاعتراف بنبوغه [2].

و لعل استعمال "ابن شهيد للحوار" عائد إلى كونه يمر بحالة نفسية سيئة، فالقلق والأحزان يسيطران عليه لشدة معاناته من اليأس والأمل، وبين إرادة الحياة وخيبة الرّجاء لأنه تقلب في فترتين متناقضتين الأولى أيام العامريين الذين وجد عندهم كل ما يتمنى و بخاصة أيام المنصور ابن أبي عامر، والثانية أيام الفتنة التي عانى منها أشد ما تكون المعاناة؛ حيث بدأت المصائب تتوالى عليه ابتداءا من وفاة المنصور "ابن أبي عامر" سنة 392هـ ثم وفاة والده 393هـ إلى سقوط المجد العامري، وحلول الفتنة في قرطبة، وسجنه أيام الحموديين، إضافة إلى ما يعانيه من الصمم الذي غير منعطف أمانيه، وكذلك عدم وجود أسرة تؤويه، كل هذه الأشياء التي تسيطر عليه لا يستطيع _____

"1"– الشنتريني ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1/م1 ، ص: 268.

"2"– محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 289–290.

التعبير عنها إلا بقالب الحوار الذي يستوعبها.

ثم إن القاص أو الراوي – ابن شهيد – قد عمد إلى استخدام أسلوب التشويق في حواره مع " "أبي بكر " حيث قال : أصغ أسمعك العجب العجاب، فمن خلال هذه العبارة ندرك بأن الراوي ومنذ هذه اللحظة يصبح الناطق الرسمي لرحلته إلى عالم الجن، و صانع الحوار فيها.

وتتجلى البدايات الأولى للحوار في رسالة التوابع والزوابع بالسبب الذي إصطنعه "ابن شهيد"،والذي كان بدوره بمثابة طريق يجعله يلتقي بتابعه،وهو موت من كان يهواه، ثم يدور بينهما الحوار السالف الذكر.كما تدور أيضا حوارات قصيرة ومركزة بين "ابن شهيد" وتوابع الشعراء والكتاب الذين كان قد إلتقاهم في رحلته الخيالية في وادي الجن برفقه تابعه"زهير بن نمير"، و يبدوا أن شخصية الراوي تطغى دائما على مجمل الحوار، أو السرد القصصي، وحتى إنشاء الشعر [1].

ومن أمثلة ذلك إصرار التوابع على "ابن شهيد" في أن يوسع ويزيد من مساحة الشعر في البناء القصصي بل و أن ينوّع في الإنشاد أيضا، كما فعل "تابع أبي نواس" حين قال له (أنشدني من رثائك أشد من هذا و أفصح) [2].وحين قال له أيضا (أنشدني قطعة من مجونك فقد بعد عهدي بمثلك)، (و كما فعل تابع "أبي تمام" حين أنشده القاص، فلما قال له:(أنشدني من رثائك)، ثم قال بعد ذلك له :(زدني من رثائك) [3].

فالتنوع في الإنشاد لم يكن إصرارا من القاص،ولا وظيفة استعراضية لقدراته ومواهبه الشعرية، بقدر ما كان استجابة جاءت بناءا على طلب من توابع الشعراء، وما طلب توابع الشعراء في الواقع إلا طلب من إبن شهيد نفسهليشع طموحه الذاتي شاعرا متفوّلا يضاهيه شاعر فحل من الجاهليين ولا العباسيين أنفسهم .

"1"– البستاني فؤاد أفرام ، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 89.

"2"– المرجع نفسه، ص: 89.

"3"– المرجع نفسه، ص: 109.

و نظرا للحالة النفسية المتوترة التي كان يحياها الراوي البطل ابن شهيد من جرّاء كثرة خصومه و حساده ،فإنه لم يتغلغل في نفوس و خبايا الآخرين، و لجأ إلى ما يعرف بالاستبطان الذاتي ،الذي حاول من خلاله سكب كلّ مشاعره في رسالته التي أعطتنا صورة واضحة عما يدور في ذهنه ،و هذا ما فعله الراوي بطريقتين :

أ – الإستبطان المباشر :

و هو ما يعرف أيضا بالحوار الخارجي الذي يعتمد على وصف شعور أو رد فعل ما إزاء حدث معين، و بشكل مباشر و من أمثلة هذا الاستبطان قوله " فكدت – و الله – أخرج من جلدي طربا " و قوله أيضا " فأخذت في إجلاله لمكانه من العلم و الشعر ،فاشتربت منه ... فاستبلى" و قوله : " فهمت بالحيصة ثم اشتدّت قوى نفسي "و قوله " كاد ينحني فؤادي فزعا – والله – منه ...الخ " .

ب – الطريقة الثانية وهي الاستبطان غير المباشر :

و هو ما يعرف بالحوار الداخلي " المونولوج " حيث ينقل الراوي من خلاله ما دار في نفسه من أفكار، مثل قوله : " فقلت في نفسي العصا من العصية إن لم تعربي عن ذاتك و تظهري بعض أدواتك و أنت بين فرسان الكلام، لم يطر لك بعدها طائر و كنت غرضا لكل حجر عابر " و قوله : " فقلت في نفسي: قرعك الله بقارعته، و جاءك الله بمماثلته " و قوله أيضا " طبع عبد الحميد ومساقه ورب الكعبة " .

وليس معنى استبطان الذات أن يغفل الراوي– أو يتغافل– عن الطبيعة الفنية لعمله،فيوجه الحديث إلى نفسه ويدير معها حوارا طويلا مملا ينس معه وجود أطراف أخرى تتم العملية الإبداعية و يزداد هذا الفعل سواء حين يطالعنا الراوي في مقدمته النص التي تعد الأضعف فنيا بين أقسام القص [1].

"1"– الموافي ناصر عبد الرزاق ، القصة العربية عصر الإبداع ،ص:122

و خلاقة القول أن الحوار في "رسالة التوابع و الزوابع"، أضفى و زاد عليها نوعا من التناغم و يزداد القص توهجا و جمالا ثم إن الطريقة التي كان ابن شهيد يدافع بها عن نفسه أمام خصومه بكل قسوة و جرأة السبت الحوار قوة و حيوية ليس لها مثيل .

5- أبطال القصة : و يبدو أن " الشخصيات " في رسالة " التوابع و الزوابع " تتوزع على ثلاثة أنماط رئيسية هي: شخصية البطل ابن شهيد و توابع الشعراء و توابع الكتاب، مع توابع بعض النحاة و اللغويين.

و يبدو أن – القاص ابن شهيد – خطط " لشخصياته تخطيطا جيدا، أدت فيه كل شخصية دورها الذي رسمه لها بحيث توزعت على فصول الرسالة الأربعة و الملاحظ أن كل فصل له شخصياته المستقلة التي ينتهي دورها بانتهاء الفصل الذي تنتمي إليه و من هذه الزاوية فإن رسالة " التوابع و الزوابع " إن هي إلا مجموعة من المشاهد القصصية التي وظفها القاص لخدمة غرضه الذي أراده و هو الثأر من خصومه من رجالات الأدب و السياسة ،و استرجاع مكانته الأدبية شاعرا ناثرا ثم ناقدا و لا يربط بين هذه المشاهد سوى شخصية القاص الذي يقوم بدور الراوي فيها [1].

ففي الفصل الأول نلتقي بتوابع الشعراء و ذلك بعد أن ينتقل الراوي و تابعه إلى أرض الجن، و هنا يصف لنا الجواد الذي ركبه، و كذلك وادي الجن، وصفا بسيطا، سطحيا ،و إن كان الحري به أن يصفه لنا وصفا أسطوريا، يتفق مع ما عرف عن هذا العالم من خوارق.

فليس من المعقول قصصيا أن يصف لنا الجواد قائلا " فصرنا عليه و سار بنا كالطائر يجتاب الجو فالجو و يقطع الدوفالدو "[2] .

"1"- الشناوي محمد علي الغريب، فن القص في النثر الأندلسي ، ص: 309.

"2"- المرجع نفسه، ص: 309.

و يكون بذلك الوصف قد شخص الموصوف، كما لا يعقل أن يقول أيضا عن أرض الجن:" حتى التمحت أرضا لا كأرضنا، و شارفت جوا لا كجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر، فقال لي : حللت أرض الجن أبا عامر " و يكون بذلك قد وصف لنا هذه الأرض فحسب بينما عليه أن يفصل لنا الوصف، فيدخلنا إلى عالم الخوارق و الأساطير فيحدث بذلك تناسبا بين الصفة و الموصوف. ولذلك كان تقييم الدكتور "غنمي هلال " للرسالة برمتها من زاوية القص بأنها ضئيلة هينة "[1].

و إن كان بن شهيد قد مثل لنا بعض الخوارق : مثل الحمار و البغل الشاعرين الذين يتحكمان إليه، و مثل الإوزة الناقدة، و مثل زبدة الحقب الذي ضرب الأرض برجله فانشقت عن مثل وادي البر هوت...الخ . فإنه لم يفصل الوصف و لم يتوسع فيه مثلما فعل " المعري " في رسالة " الغفران " فإذا كنا نجد إوزة "ابن شهيد" بلهاء حمقاء، فإننا نجدها عند المعري قد نفضت عنها في الجنة بله الإوز و تستطيع أن تتحول إلى كاعب حسناء [2].

و على العموم فإنه إذا تركنا زاوية القص في رسالة "التوابع و الزوابع" و عدنا إلى زاوية الشخصيات فيها، فإن أول شخصية تطالعنا فيها : هي شخصية القاص البطل " ابن شهيد نفسه".

فقد تولى" ابن شهيد" بطولة رحلته بنفسه و لم يسلمها لتابعه " زهير بن نمير، " و هذا نوع من الكبرياء و الزهو بالنفس، فتراه لا يسد أي دور لتابعه سوى التعريف بالأماكن التي يريد الأديب الذهاب إليها و التوابع التي يريد الالتقاء بها و كانت شخصية "ابن شهيد" في "التوابع و الزوابع" متشائمة، مضطربة قلقة. و لا أدل على ذلك من هذا الحوار التالي بين بغلة أبي عيسى و ابن شهيد

"و قلت لي بغلة : أما تعرفي أبا عامر ؟ قلت : لو كان ثم علامة فأماطت لثامها، فإذا هي بغلة " أبي عيسى " والخال على خدها؛ فتباكينا طويلا، و أخذنا في ذكر أيامنا .فقالت: ما أبقت الأيام

"1"- هلال غنيمي، الأدب المقارن، ص: 284.

"2"- أبو العلاء المعري، رسالة الغفران ت.د عائشة عبد الرحمان، ط7 دار المعارف سنة: 1977 ص: 21.

منك ؟ قلت : ما ترين .قالت : شيب عمرو عن الطوق، فما فعل الأحبة يعدي ؟ أهم على العهد ؟

قلت : شب الغلمان وشاخ الفتيان، و تنكرت الخلان، و من أخواتك من بلغ الإمارة ،و انتهى إلى الوزارة"[1] .

وهذا الحوار إن دلّ على شيئ إنما يدل على حالته النفسية السيئة التي جعلته يسخط على مجتمعه و يقلل من شأن أهل بلده و اتهمهم بالغباوة و اللكنة ، ولم يلتق بتوابعهم عدا خصومه، وكأنه يريد ان يقول انه أعظم من أنجبت الأندلس في الشعر و النثر، و ما إجازة توابع الأدباء المشارقة له إلا دليل على ذلك " [2]. ثم إن هذه الحالة النفسية المتأسية و لدها إحساسه بأنه جرح في كبريائه بسبب الإحباطات التي وقفت عائقا بين طريقه لتحقيق المجد الذي كان يحلم به، و هو الوصول إلى أن يكون كاتبا من كتاب الدولة و وزيرا من وزرائها و أعدّ نفسه لأن يكون كذلك، وبخاصة أنه من أسرة تداولت مناصب مهمة من جده الأول " عيسى بن شهيد " إلى والده وزر في دولة " المنصور بن أبي عامر " و ما يزيد من معاناته أنه يرى من هم أقل منه وصلوا لمساعدة المؤدبين و اللغويين و الفقهاء الذين وقفوا في طريقه حين اتهموه بالتحرر و فساد الأخلاق والمروق.و من أصدقائه بعد وصولهم للإمارة و الوزارة أمثال " مجاهد العامري، و ابن عباس، والإفليلي "، و تنكّروا له، فولّد ذلك عنده الأحزان التي انعكست على آثاره، فألف رسالته هذه للانتقام منهم ؛ فعلى سبيل المثال ظهرت سخريته و سخطته على الفقهاء منهم من خلال رسالة " الحلواء " التي تهكم فيها على واحد منهم ،و انتقم بالتالي منهم جميعا عن طريق الأدب [3]. و في هذه الرسالة يقول " خرجت في لمة من الأصحاب و تبة من

"1"– محمد سعيد محمد، ابن شهيد الأندلسي أديبا و ناقدا، ص: 254.

"2"– المرجع نفسه، ص: 254 .

"3"– محمد سعيد مجمد،دراسات في الأدب الأندلسي،ص:259.

الأتراب فيهم فقيه ذو لقم ،و لم اعرف به، و غريم بطن، و لم أشعر له ،رأى الحلوى فاستخفه الشر، واضطرب به الوله، فدار في ثيابه، و أسال من لعابه، حتى وقف بالأكداس و خالط غمار الناس، ونظر إلى الفالوذج فقال: بابي هذا اللمص أنظروه كأنه الفص، مجاجة الزنابير، أجريت على شوابير، و خالطها لباب الحبة فجاءت أعذب من ريق الأحبة" [1].

و قد استحسن رسالته هذه كل من تابعي "الجاحظ" و "عبد الحميد" "أبو عيينة" و "أبو هبيرة" على الترتيب، فقالا له :" إن لسجعك موضعا من القلب، و مكانا من النفس، و قد أعرته من طبعك، و حلاوة لفظك، و ملاحة سوقك ،مازال أفنه، و رفع غينه، و قد بلغنا أنك لا تجازى في أبناء جنسك، و لا يمل من الطعن عليك، و الاعتراض لك، فمن أشدهم عليك ؟ فقلت: جاران دارهما صقب ، و ثالث نابته نوب، فامتطى ظهر النوى، و ألقت به في سرقسطة العصا، فقالا لي : إلى أبي محمد تشير و أبي القاسم و أبي بكر ؟ قلت : أجل ..."[2].

و قد تعرض" ابن شهيد "بسلاطة لسانه للفقهاء و علماء النحو و اللغة و الشعراء، و لكن برغم هذه الحالة النفسية السيئة التي يمر بها، فقد ظل في قرطبة و لم يغادرها لعله يجد ما يضيء به ظلمة دنياه ،و يؤنس حياته الموحشة فأخذ يقاوم الهزيمة التي حاقت به، و عاقنه عن تحقيق أمانيه، فاتجه إلى الخمرة لعلها تنسيه ما هو فيه من انشغال البال كما يدور حوله، و هذا الأسى و الحزن يعللان ذكره في القصة لمجموعة من مراثيه في " ابن ذكوان " و حسان بن مالك "، و رثاء بنية صغيرة، و قصيدته في سجن الحموديين.

"1"- الشكعة مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه، ص: 664.

"2"- المرجع نفسه، ص: 660.

و من الملفت للنظر أن شخصية" ابن شهيد" متعالية شامخة، إنه يقيم مؤلفاته بنفسه ،ففي حالات نادرة في الأدب العربي نجد شاعرا يكتب نقدا ذاتيا، و لكن ابن شهيد اختار بعض أشعاره وبعض رسائله أنشدها أمام توابع كبار شعراء العربية و أجازوه بها، و كأن ابن شهيد يريد القول إن أشعاره و رسائله هذه من أجود الأشعار، و من أجود الرسائل التي قالها إلى هذا التاريخ ؛تاريخ كتابة " التوابع و الزوابع "[1].

و من هنا يتبين لنا أن رسالة التوابع و الزوابع حالة فريدة،" فأبو عامر بن شهيد "هو المؤلف و البطل و الراوي في آن واحد، و لا أحد يشك بأن ابن شهيد هو المؤلف، فالبطل كنيته " أبوعامر" حيث وردت الكنية في النص ثلاث مرات و الأشعار المستشهد بها في الرسالة هي "لابن شهيد" نفسه، و الأعداء هم أعداء له حقيقة وواقعا، و بعض الأحداث وقعت له بالفعل .

و حري بنا أن نشير إلى ضرورة الفصل بين المؤلف و الراوي البطل ،لا لغرض التحليل فحسب،إنما لأن الراوي البطل يختلف تمام الإختلاف عن" أبي عامر" المؤلف منذ لحظة بروز شخصية "زهير بن نمير"، و يصبح بذلك شخصية أخرى تدبّ فيها روح الفن و الخيال المفارق للواقع.

و الراوي في النص هو راو داخلي؛ إذ أنه الشخصية الرئيسية التي يتمحور النص حولها، ويشاركه في ذلك و لو بنسبة أقل "زهير بن نمير" الذي يمثّل الراوي، كما يقوم بدور المساعد أو القوى المانحة – حسب التحليل الوظيفي – في مقابل القوى الشّريرة المتمثلة في خصوم الراوي البطل الذين ينهزمون في حلبة المنافسة الإبداعية بسبب العون الذي تقدمه له القوى المانحة، ذلك العون الذي يجلب للراوي الإعجاب و الثناء من المحبين، و الحقد و الحسد من الخصوم المعادين[2].

"1"– محمد سعيد محمد، ابن شهيد الأندلسي أديبا و ناقدا، ص: 254.

"2"– الموافي ناصر عبد الرزاق، القصة العربية عصر الإبداع، ص: 120.

و إذا كان الراوي بطلا على مستوى الفعل الحدثي فإنه كان بطلا أيضا على مستوى فعل الرواية فهو يمسك بخيوط النص، و يقوم بدور مزدوج: بطولة القصة و رواية النص، وقد كانت الرواية على مستوى البطولة ؛إذ أن الراوي بضمير المتكلم سيطرعلى النص منذ البداية إلى النهاية، و كان متسلطا إلى درجة لم يسمح معها لأحد أن يشاركه في الرواية، رغم ارتباط مصيرهما [1].

و هذا باختصار –و إن أجزنا لأنفسنا –القول– من جانب أن شخصية ابن شهيد القوية الشامخة، المغرورة و الزاهية بنفسها، تمتلك من الكبرياء ما أهلها لتحدي خصوم عصرها من خلال رسالة "التوابع و الزوابع" التي حمل فيها لواء البطولة و الرواية في آن واحد. هذا من جهة و من جهة أخرى لا يمكننا إغفال الجانب الآخر من شخصية "ابن شهيد" نعني بذلك خفة روحه و أسلوبه الفكه الظريف،الذي أضفى على رسالته نوعا من الحيوية،و طابعا فكاهيا يبعث الأنس للنفس.و يبدو ذلك جليا في الفصل الرابع منها،هذا الفصل الذي يهل بالفكاهة،و يفيض بالسخرية اللاذعة،و القاص قد استنفذ فيه كل طاقات الرمز ووظّفها متعرضا بذلك للشعراء ة الأدباء في عصره[2].

و من أجمل ما قدمه "ابن شهيد" في هذا الفصل تلك الطريقة الرائعة في وصف مسرح الأحداث،وصفا سريعا و مركزا لحيوانات الجن،من مثل وصفه للإوزة الأدبية،و قطيع حمر الوحش من الجن،و هو لا ينسى أن يسجل لنا حركاتها و سكناتها في روح مرحة يقول واصفا هذا القطيع: " لقد أصابها أولق،فهي تصطك بالحوافر،و تنفخ من المناخر،و قد اشتد ضراطها،و علا شحيحها،و نهاقها"[3]

و هو حين يحكم لا تخلو أحكامه من المباشرة و الوضوح،و الحدة اللاذعة،كما حدث حين

"1"– المرجع السابق، ص :121.

"2"– الشناوي محمد علي الغريب، فن القص في النثر الأندلسي، ص: 321.

"3"– البستاني بطرس، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 147.

احتكم إليه حمار وبغل، و الحوار الجميل الذي دار بينه و بين بغلة " أبي عيسى " و الذي يدل على مقدرة فائقة في الفكاهة و التلميح– و يحرص ابن شهيد في عمله–الإبداعي–دائما على بث آرائه في فكاهات مبتكرة يعرض لها بأسلوب قصصي ممتع جميل [1].

و كحوصلة لما سبق يمكننا القول بان ابن شهيد قد وفق و إلى حد كبير في إبراز ملامح شخصيته التي تجمع بين الجدية و الشموخ.فمن هذه اللوحات الفكهة و أسلوب التندر و السخرية التي عرض لها "ابن شهيد" في التوابع و الزوابع نرى ذلك اللون من التعبير الذي برّز فيه شأنه، و أبقاه في الناس خالدا بعده،و هي تدلك على خفة روحه،و قدرته على الهزل و النادرة و أنواع التعريض.

أما عن شخصيات الرسالة الأخرى،فإن أول من التقى به ابن شهيد من توابع الشعراء تابع " امرئ القيس " بن حجر" شاعر المعلقة الأولى و أقل من وقف على الأطلال،و كان هذا الشاعر فارسا شجاعا،و ملكا شامخا بأنفه،و لهذا نراه يقابل أبا عامر و تابعه على صهوة جواده الأشقر و كيف لا يفعل ذلك و هو الذي شقي بأثر أبيه و قال عبارته الشهيرة " اليوم خمر وغدا أمر " [2] .

و القاص يمهد بوصف سريع يبرز فيه البناء المعماري للمكان الذي يسكنه التابع،بما يماثل نفس البناء في عالم الإنس،فصاحب امرئ القيس يعيش في واد من الأودية ذي دوح تكسر أشجاره، و تترنّم أطياره. فهو وصف مجمل بسيط،و التابع يحمل دائما صفات متبوعه الإنسي،فتابع "امرئ القيس" هنا ينادي عليه تابع الرّاوي (بسقط اللوى فحومل،و يوم دارة جلجل)[3].

ثم يدور حوار قصير مركز بين ابن شهيد و تابع امرئ القيس فيطلب منه ابن شهيد أن ينشد،

"1"– السيوفي محمد مصطفى، تاريخ الأدب الأندلسي، ص: 86.
"2"– محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 256–266.
"3"– الشناوي محمد علي الغريب، فن القص في النثر الأندلسي، ص: 310.

فإذا به يتطامح بطرفه،و يهتز بعطفه،و يقبض عنان الشقراء،و يضربها بالسوط،و ينشد قصيدته التي مطلعها :

سمالك شوق بعدما كان أقصرا *** و حلت سليمى بطن قوفعرعرا

ثم طلب من أبي عامر أن ينشد، فأنشد قصيدته التي مطلعها:

شجته مغان من سليمى و أدؤر

وعندما أكمل ابن شهيد إنشاده أجازه تابع امرئ القيس بقوله: اذهب فقد أجزتك، و قد كان اسم تابع امرئ القيس"عتيبة بن نوفل "،و للاسم دلالة عند"ابن شهيد" فالعتبة: الغليظ في الأرض،كما تعني العتوب :الطريق و منعطف الوادي،أما نوفل فتفيد الرجل المعطاء مثلما تفيد البحر،و يشير الاسم إلى شاعريةامرئ القيس،وغزارة نتاجه و سنه للطريق الشعرية للشعراء بعده فصار أميرهم.[1].

ثم التقى بعد تابع امرئ القيس بتابع"طرفة بن العبد"، و لم يختلف تابع "طرفة" عن تابع امرئ القيس،فقد كان هو الآخر راكبا،جميل الوجه قد تقلد السيف و توشح بالخز،و بيده خطي و أنشد قصيدته التي مطلعها:

لسعدى بحزان الشريف طلول *** تلوح و أدنى عهدهن محيل

ثم أنشد "ابن شهيد" بعد ذلك قصيدته التي منها

و لما هبطنا الغيث ترعى وحشه *** على كل خوار العنان أسيل

فأعجب تابع"طرفة" بما أجادت به قريحة "ابن شهيد"و أجازه، وكان اسم التابع"عنترة بن العجلان،" و للتسمية أيضا دلالة عند ابن شهيد،" فعنترة" رمز للشجاعة،و"العجلان"رمزلتهور طرفة، حتى لكأنه يستعجل الموت، و نحن نعلم أن طرفة كان شجاعا و كان قد قتل شابا لشدة تهوره [2].

"1"- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 266.

"2"- المرجع نفسه، ص: 266-267.

و آخر توابع شعراء الجاهلية الذين التقى بهم "ابن شهيد" هو تابع " قيس بن الخطيم "،و كان هو الآخر فارسا كأنه الأسد،على فرس كأنها العقاب،و فيما يبدوا أن "ابن شهيد" قد أعجب بقصيدة لقيس بن الخطيم مطلعها:

تذكر ليلى حسنها و صفاءها *** و بانت فأمسى ما ينال لقاءها

و التي منها هذا البيت:

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر *** لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

فعارضها ابن شهيد بقصيدة مطلعها:

منازلهم تبكي إليك عفاءها *** سقتها الثريا بالغري نحاءها

و يعد ما سمع تابع "قيس" هذه القصيدة أجازه بقوله :اذهب فقد أجزتك،و كان اسم"أبو الخطار" أي رجل خطار بالرمح طعان به،و هذه الصورة التي رسمها له أبو عامر تقترب من الصورة الحقيقية "لقيس" الذي سيطر عليه حبٌ الانتقام [1] . و الثأر لوالده،و هذا التابع لم يكن في مخطط الزيارة، و اكتفى"ابن شهيد"بتابع امرؤ القيس و طرفة،لكن هذا التابع ظهر له فجأة،و قد عللت " ألفت الرويبي " ذلك بقولها " يمثل تعارضا مع اختيار الراوي،إنه حيلة قصصية معتمدة لإبراز التضاد بين الشاعر الموهوب موهبة حقيقية " امرؤ القيس و طرفة " و الشاعر التقليدي غير الموهوب الذي تقف قدراته عن إتباع التقاليد الشعرية "[2].

و يبدو أن الحكم على شعر " قيس بن الخطيم " يخلو من الموهبة، وفيه شيء من القسوة ، وربما كانت طبيعة القص والتنوع في المواقف هي التي دعت أبا عامر لذلك، ويبدو أن شاعرية قيس لا تقل عن شاعرية صاحبيه و إلا لما اختاره – في رأي الدكتور محمد سعيد محمد – الكاتب

"1"– المرجع السابق، ص: 267.

"2"– كمال الرويبي ألفت، تشكل النوع القصصي في رسالة التوابع و الزوابع، ص: 205.

ضمن ثلاثة من شعراء الجاهلية المتميزين[1].

و هكذا نلحظ أن الشعراء الجاهليين الثلاثة الذين التقى بهم كانوا فرسانا التقي بهم و هم على صهوات جيادهم، وفيما يبدو أن أبا عامر أحب شعر هؤلاء الثلاثة أكثر من شعر غيرهم؛ بدليل أنه عارضهم بقصائده واصطفاهم من بين شعراء الجاهلية ليتحدث إليهم و يعرض عليهم نتاجه الأدبي، و ليرفع نفسه بإجازاتهم، ثم انتقل " أبو عامر " بعد ذلك إلى لقاء توابع العصر العباسي، وهنا نتساءل :لم لم يلتقي بتوابع شعراء صدر الإسلام،والدولة الأموية" كجرير والفرزدق و الأخطل " و غيرهم ؟ هل كان بسبب اختلافهم و تنازعهم و تهاجيهم في القصائد المسماة بالنقائض ؟ أو بسبب انتماءاتهم المختلفة إلى مختلف الاتجاهات السياسية، وابن شهيد يريد أن يبتعد عن هذه الصراعات ؟ أو أنه كان مثل بقية شعراء الأندلس،لا يعتد إلا بالشعر الجاهلي، ويعده المثال الذي يجب أن يحتذى لأنه في نظره يمثل جزالة الألفاظ،وحسن الصياغة وكذلك الشعر المحدث الذي يناسب الطبيعة الأندلسية من حيث رشاقة الألفاظ و حلاوة العبارة وبعده عن الإغراب و هو ما فقدناه عند شعراء صدر الإسلام، وعصر بني أمية الذي جاء في أغلبيته احتذاءا للشعر الجاهلي ويقل عنه جودة و لم يحدثوا تجديدا في القصيدة مثلما فعل شعراء العصر العباسي ؟ و يبدو ذلك. لذا ركز "أبو عامر" على الشعر الجاهلي و الشعر المحدث ،وتلمذ عليهما و تأثر بهما،ولم يعر أيّ اهتمام لشعراء صدر الإسلام،والعصر الأموي،ولم يلتق بتوابعهم في أرض الجن،فانتقل بعد توابع شعراء العصر الجاهلي مباشرة إلى توابع العصر العباسي.وأول من التقى به تابع " أبي تمام " عتاب بن حيناء ونحن نعرف أن أبا تمام قد كثر لومه وعتابه من قبل النقاد بسبب طريقته في الشعر التي نحا فيها منحى جديدا، في الصياغة الشعرية،من هنا جاء اسم تابعه عند ابن شهيد (عتاب)، و جعل مقره في قعر عين

"1"– محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص:267.

لأنه عرف عن "أبي تمام" أنه يستخرج الكنوز من أعماق الفكر[1].

و مما يلفت النظر أن ابن شهيد أراد أن يبين لنا مجون "أبي تمام"،و في الوقت نفسه يريد أن يصور لنا بيئة قرطبة و ما تنفس به من لهو ومتعة، وما يجده فيها من إشباع لرغباته و شهواته ، ويبدوا أن حالته النفسية سيئة، ويعاني آلاما أليمة وهو يلتقي بتابع "أبي تمام" فها هو ينشده قصيدة فيها هذا البيت :

إني امرؤ لعب الزمان بهمتي *** و سقيت من كأس الخطوب دهاقها.

كذلك أنشد "ابن شهيد" قصيدته في رثاء " حسان بن مالك بن عبده "، وقصيدته في الشكوى التي مطلعها :

أعينا امرئ نزحت عينيه *** و لا تعجبا من جفون جماد

لهذا أجازه " تابع أبي تمام " بقوله : " ما أنت إلا محسن على إساءة زمانك " [2].

ثم التقى "ابن شهيد "بـ "أبي الطبع" تابع البحتري الذي اعترف ابن شهيد أنه من أساتذته، وأنه تتلمذ على أشعاره الرقيقة السلسة،حتى أنه عرف عن البحتري أن شعره مطبوع سهل لا يحتاج في فهمه إلى كد الذهن، لذلك سمى صاحبه " أبا الطبع " كما جعل مسكنه في ناورد ، وينحو منحى السهولة والطبع في شعره .[3]و فيما يبدو أن قصيدة للبحتري أعجبت ابن شهيد و هي التي مطلعها:

ما على الركب من وقوف الركاب *** في مغاني الصبا و رسم التصابي

أين أهل القباب بالأجزع القر*** د تولوا لا أين أهل القبـاب [4]

فعارضها بقصيدته التي مطلعها :

"1"- المرجع السابق، ص: 268.

"2"- البستاني فؤاد أفرام ، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 114.

"3"- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص :268-269.

"4"- البحتري، الديوان، لشرح و تقديم حنا الفاخوري، (د ط)، دار الجيل بيروت، المجلد الأول، قافية الباء ،ص: 62.

هذه دار زينب و الرباب *** .....

قد تركنا الصبا لكل غوي *** و انسلخنا من كل ذام و عاب

و انقطعنا لواعظات مشيب *** آذنتا حياتها بذهاب [1].

و يستنتج من خلال هذا الحوار و الإنشاد أن "أبا عامر" يريد إثبات قدرته على المعارضات الشعرية في عروضها وبحرها الأصليين، وتفوقه على شعر "البحتري" بخاصة، فشعره رقيق جذاب، يملؤه الحنين والحزن، ويكسوه إلى جانب السهولة المعاني الصادقة الشجية الدفينة في قلب الشاعر، و التي أخرجها كلمات موسيقية مترنمة ترمز إلى حالته القلقة المستاءة، جرّاء ما رماه واتهمه به أقرانه من الأدباء بالسرقات و كثرة المعارضات.

والتقى بعد ذلك بتابع "أبي نواس" واسمه " حسين الدنان " و"حسين" من الحسن، فقد عرف ابن شهيد عن أبي نواس أنه كان جميلا، والدنان جمع دن وهي تلك الأواني التي توضع فيها الخمر، و" أبو نواس " من أشهر شعراء العربية الذين شكلت الخمرة تيارا كبيرا في شعره، وكان شديد الافتتان بها، فعرف أنواعها، وتحدث عنها حديث خبير بها. وما أطرف الصورة التي رسمها "أبو عامر" لتابع " أبي نواس" فهو في نظره ذلك العربيد الماجن الموغل و المسرف في الشراب الذي غلبت عليه الخمر حتى لم يعد يدري ما يقول، ولم يصح من حالته هذه إلا بخمرية أبي عامر التي مطلعها :[2].

و لرب حان قد أدرت بديره *** خمر الصبا مزجت بصفو خموره [3].

و فيما يبدو أن هذه القصيدة التي أنشدها لتابع "أبي نواس" هي معارضة في المعنى لقصيدة أبي نواس التي مطلعها :

يا دير حنة من ذات الاكيراج *** من يصح عنك فإني لست بالصاحي

"1"- ابن شهيد، الديوان، ص: 85.

"2"- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 269.

"3"- البستاني فؤاد أفرام ، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 114.

و عندما ينتهي ابن شهيد من إنشاد البيت الأخير في قصيدته:

فولت و للمسك من ذيلها *** على الأرض خط كظهر الشجاع

ينهض تابع "أبي نواس" فيردده و يرقص وهو يقول: " هذا والله شيء لم نلهمه نحن". [1]. وتلك هي منية أبي عامر؛ أن ينال الإجازة والإعتراف بعبقريته في الشعر من كبار الشعراء وفحولهم من مثل أبي نواس وغيره.ولا أدل على ذلك من أنّه (ابن شهيد)جعل مسكن تابع أبي نواس هذا في قمم الجبال فكأن "أبا عامر" هنا يعترف بشاعرية أبي نواس التي لا تضاهى، فهي تقف في قمة كل شعر في كل زمن أو جيل [2].

وإذ تنتهي هذه المقابلة الرائعة بين أبي نواس وبين" زهير"و"أبي عامر"نجد أن نفس "أبي عامر" لا زلت طامحة إلى لقاء شيطان أشهر من شعراء العربية ونعني به شيطان" أبي الطيب المتنبي" و اسمه " حارثة بن المغلس"، والحارثة كنية للأسد، والمغلس الذي يسري في آخر الليل[3] .

وقد اختار أبو عامر هذا الاسم من خلال قراءته لشعر المتنبي الذي طالما افتخر بنفسه في شتى الأمور؛ فهو يقول عن شجاعته:

الخيل و الليل و البيداء تعرفني *** و السيف و الرمح و القرطاس و القلم [4]

و يقول في تفرده فيما يصدر عنه من قول :

أنام ملء جفوني عن شوا ردها *** و يسهر الخلق جراها و يختصم [5].

و يمهد ابن شهيد للقائه بأوصاف عرفت عن شاعر العربية الكبير،ويحاول أن يحتشد له كوكبة

"1"- المرجع السابق، ص: 114.

"2"- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 269.

"3"- المرجع نفسه، ص: 269.

"4"- المتنبي ، الديوان،(د ط)، دار الجيل، بيروت، المجلد الأول، قافية الميم، ص: 32.

"5"- المصدر نفسه، ص: 322.

من الأوصاف ومجموعة من الشيات، وهي أوصاف أقرب ما تكون إلى شخصية المتنبي نفسه، احتراما منه لشيطان أبي الطيب وإجلالا [1]،فهو فارس على فرس بيضاء،وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه ،وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى عذبة صفراء ... ناظرا من مقلة شوساء، قد ملئت تيها وعجبا [2]و الملاحظ هنا أن احتشاده يجيء دونما احتشد به " لحسين الدنان " شيطان "أبي نواس"، وليس السبب راجعا إلى حكم "ابن شهيد" "لأبي نواس" بالتفوق على المتنبي، و لكن لأن ابن شهيد كان واحدا من مدرسة الأدباء المجّان الذين ينتسبون "لأبي نواس" نسبا فنيا أكثر من انتسابهم إلى مدرسة المتنبي الجادة الوقورة التي ترفعت في شعرها عن كثير مما تورطت فيه المدرسة النواسية في الأدب[3].

و بعد هذا فلنعد لكي نشهد لقاء زهير و أبي عامر بحارثة بن المغلس شيطان أبي الطيب ، إذ يستنشده هذا الأخير فينشده أبو عامر قصيدته التي مطلعها:

أبرق بدا أم لمع أبيض قاصل *** و رجع شذا أم رجع أشقر صاهل.

ثم قصيدته التي مطلعها :

ها تيك دراهم قف بمعانها *** تجد الدموع تجد في همىلانها.

و كان "ابن شهيد" يرى أن هاتين القصيدتين من أجود قصائده التي قالها بدليل أن تابع "المتنبي "عندما سمعها قال لزهير:" إن امتد به طلق العمر،فلا بد أن ينفث بدرر،وما أراه إلا سيحتضر بين قريحة كالجمر، وهمة تضع أخمصه على مفرق البدر " [4]

"1"- الشكعة مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه، ص: 657.

"2"- الشنتريني ابن بسام، الذخيرة، ج1/م1 ،ص: 265.

"3"- الشكعة مصطفى، المرجع السابق، ص: 257-258.

"4"- البستاني فؤاد أفرام، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 114.

ويلاحظ أن ابن شهيد أمام توابع الشعراء الجاهليين يقف موقف الإحترام، والإجلال والتردد، بينما يتجرأ على الشعراء المحدثين، مثل البحتري، الذي يباري تابعه في إنشاد الشعر فيسودّ وجهه، و يكرّ راجعا إلى ناو رده .

فمن أمثلة احترامه للجاهليين قوله حين طلب منه تابع " امرئ القيس " أن ينشده من شعره " " فهمت بالحيصة، ثم اشتدت قوى نفسي، وأنشدت " [1].ثم يجيزه التابع فيقول له: "اذهب فقد أجزتك"

و نحن نقف أمام تابع طرفةفإذا به،(راكب جميل الوجه، قد توشح السيف، واشتمل عليه كساء خز و بيده خطي) [2].

ولنا أن نلاحظ أن تابع "امرئ القيس " حين استنشده قال له " السيد أولى بالإنشاد " [3].

وتابع طرفة أجاب عليه بقوله: " الزعيم أولى بالإنشاد " [4].

ثم يستوقفنا صاحب " قيس ابن الخطيم "، ويدعى "أبا الخطار " الذي يقول للراوي " أنشدنا يا أشجعي ،و أقسم أنك إن لم تجد ليكوننّ يوم شر " [5].

تلك هي صورة الجاهليين، حين التقى بهم لينال إجازتهم،صورة زاهية تعلوها المهابة ، ويكسوها الوقار والتجلية.واختياره لكل من "امرئ القيس" و" طرفة ". يستدلّ منه ،سرّ هذا الإنتقاء؛ فالأول هو سيد الشعراء و أميرهم وزعيمهم،كما أنه يمثل قيمة فنية كبرى في تاريخ الشعر العربي، و الثاني من أشعر الناس ؛ قال الشعر بالفطرة، والثالث يتكئ على غيره فهو صاحب قنص [6].

و كأن ابن شهيد بإنتقاءاته هذه يريد القول بأنه شاعر عبقري يستحق لقب زعيم وسيد الشعراء

"1"- البستاني فؤاد أفرام ، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 93.
"2"- المرجع نفسه، ص:93-94.
"3"- المرجع نفسه، ص:92.
"4"- المرجع نفسه، ص:94.
"5"- المرجع نفسه، ص:96.
"6"- الشناوي محمد علي الغريب، فن القص في النثر الأندلسي، ص: 311.

في المغرب و المشرق العربي معا،ثم إنه شاعر فريد من جنسه يقول على البديهة و الإرتجال إذا ما اضطره الحال، ثم إنه شاعر فحل لا ينحل أشعار غيره، على نحو ما اتهمه به بعض الشعراء المعاصرين له. وإذا ما أعجب بشعر لغيره، يجيء بشعر من عنده في تلك العروض أو في عروض أخرى، يحمل بصماته ولمساته الفنية الخاصة التي تميزه عما سواه.

في حين كانت صورة العباسيين، صورة عادية خالية من المهابة والوقار. وذلك أن ابن شهيد – فيما يبدو – ينظر إلى العباسيين على أنهم وارثوا الشعر القديم، وعلى ضوئه ساروا في شعرهم، صاقلين إياه ببعض مظاهر البيئة العباسية الجديدة،وحضارتها المزدهرة . ولذلك نجده يكتفي بوصف صاحب أبي تمام فأنه فتى كفلقة القمر و هو يسكن قعر عين وصفها الرّاوي بأنها كمقلة حوراء و لا يخفانا دلالة سكنه على هذا النحو، والتي تتمثل في أن " أبا تمام " يمثل مذهب المحدثين في مقابل مذهب القدماء من أمثال " امرئ القيس " و طرفة بن العبد، حيث يظهر صاحب كلاّ منهما وقد امتطى صهوة جواد.

بالإضافة إلى أن تبرير صاحب " أبي تمام " لسكنه على هذا النحو فيه تهكم و سخرية من أولئك النقاد الذين يعادون طريقة أبي تمام التي يؤديها ابن شهيد و ينحاز لها.

و يدور بينهما حوار بسيط؛ يسأله فيه الراوي عن السبب الذي من أجله سكن قعر هذه العين، ويأتي الجواب من تابع " أبي تمام " مثيرا للراوي ؟ حيث يقول له: "حيائي من التحسن باسم الشعر، وأنا لا أحسنه !"[1]. وتطغى شخصية الراوي (القاص) دائما على مجمل الحوار،أو السرد القصصي، أو حتى إنشاد الشعر، وهو لا ينشد الشعر أمام توابع الشعراء إلا حين يطلبون منه ذلك.

و هو لا يزيد من مساحة الشعر في البناء القصصي إلا بطلب من التوابع أيضا فالتابع دائما يستنشده فينشد وقد يطلب منه المزيد، فيزيد ،كما فعل تابع " أبي نواس " حين قال له :

"1"– المرجع السابق ص312.

" أنشدني من رثائك أشد من هذا وأفصح " [1] . فالتنوع في الإنشاد هنا جاء بناء على طلب توابع الشعراء و ليس بإصرار من القاص.

ومن هنا كان مشهد لقائه بتوابع الشعراء مكتظا بالشعر، لسبب بسيط و هو أن الراوي يرغب في أن ينصّبه توابع الشعراء شاعرا. ولذلك لم تكن وظيفة الشعر في هذا الفصل وظيفة استعراضية، و إنما كانت وظيفته إبانة شاعرية القاص ابن شهيد و إحسانه للشعر. ويبدو أن تابع أبي تمام " وهو من الشعراء المحدثين "، هو الوحيد من بين توابع الشعراء الذين التقى بهم الراوي،الذي أنصفه بصورة مباشرة، حين قال له : (و ما أنت إلا محسن على إساءة زمانك) [2].

و بقيت كلمة فيما يخص لقاء القاص بتوابع الشعراء، وهي أن حركة الأحداث كانت باهتة وبطيئة من طرف الراوي وتابعه، حيث سيطر القاص بسرده، وتابعه بوصف الأماكن و تشخيص التوابع، ولم يكن ثمة تفاعل بين الراوي والتوابع، أكثر من طلب الإنشاد والسماع و الإجازة.[3].

ولم يقتصر لقاء "أبي عامر" على توابع الشعراء فقط بل التقى أيضا بتوابع الكتاب وهي فكرة جديدة صاحبها "أبو عامر" وذلك أنه لم يكن من الشائع أن هناك شياطين أو توابع للكتاب،وقد اختلفت طريقة طوافه على توابع الشعراء عنها على توابع الكتاب، فبينما كان يذكر مع توابع الشعراء بعض أشعاره و ينهج نهج المعارضة، ويلتقي بكل تابع على انفراد، نجد أن توابع الكتاب قد جمعوا له في مكان واحد و هو " مرج دهمان " وقد وجد "أبو عامر" الكتاب جميعهم جالسين ينظرون إلى شيخ أصلع جاحظ العين اليمنى على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة هو: " عتبة بن أرقم تابع " الجاحظ "، والملاحظ أن ابن شهيد قد صور هذا التابع صورة تقرب صورة الجاحظ و ما عرف عنه

"1"- البستاني بطرس، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 109.
"2"- الشناوي محمد علي الغريب، فن القص في النثر الأندلسي، ص: 312-313.
"3"- المرجع نفسه، ص: 314.

من صفات وردت في كتب الأدب [1] .

و عاب تابع " الجاحظ " على "ابن شهيد " استعماله السجع بكثرة، و لكن ابن شهيد دافع عن ذلك بقوله: " ... ليس هذا أعزك الله ،مني جهلا بأمر السجع، و ما في المماثلة من فضل، و لكني عدمت ببلدي فرسان الكلام، و دهيت بغباوة أهل الزمان، و بالحري أن أحركهم بالازدواج، و لو فرشت للكلام فيهم طولقا، و تحركت لهم حركة مشولم لكان أرفع لي عندهم،و أولج في نفوسهم "[2].

فالمتأمل لهذه المقولة يلحظ فيها مدى حقد " ابن شهيد " على أهل زمانه و معاصريه من الأدباء، فقد وسمهم بالغباوة و فساد الذوق، فما أدبهم إلا عجعجة و قعقعة يملؤها النشاز، جراء انتشار اللكنة الأعجمية، و عدم الإلتزام بقواعد النحو و اللغة.

وإلى جانب " عتبة بن أرقم " تابع " عبد الحميد " الكاتب و هو " أبو هبيرة ،" و معنى هبيرة " لغة الضفادع أو الضبع، أو الكثير اللحم، و هذه التسمية إشارة من ابن شهيد إلى ضخامة جثة "عبد الحميد". و يبدو أن " أبا عامر " قد استشف صفات التابعين من خلال قراءته لأخبارهم الواردة في المصادر فكوّن في خياله صورة لها [3].

ويبدو أن تابع " عبد الحميد " لم يقتنع بالمبرر الذي قدمه "ابن شهيد " لتابع " الجاحظ "، و ادّعى أن السجع من طبعه، فأغاظ ذلك " ابن شهيد " و همّ بالرد عليه " ... إن قوسك لنبع و إن ماء سهمك لسمّ، أحمارا رميت أم إنسانا؟ وقعقعة طلبت أم بيانا ؟...الزمان دفء لا قر، و الكلام عراقي لا شامي إني لأرى من دم اليربوع بكفيك،و المح من كشي الضب على ماضغيك،فتبسم إليّ وقال : أهكذا أنت يا اطيلس تركب لكل نهجه، وتعج إليه عجة فقلت:الذئب أطلس،وإن التيس ما علمت"[4]

"1"– محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 270.

"2"– الشكعة مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه، ص: 662.

"3"– محمد سعيد محمد، المرجع السابق، ص: 270–271.

"4"– الشكعة مصطفى، المرجع السابق، ص: 663–664.

فانظر إلى هذه العبارات و ما تحمله من سخرية و سفّ بتابع عبد الحميد؛ فقد اتهمه بالبداوة و البربرية ،وهو إنما يريد بذلك التعريض بمعاصريه وتناولهم بالتجريح والتشهير في شخصية تابع عبد الحميد.

من ثم يسأله التابعان أن يقرأ عليها بعض رسائله فقرأ عليهما رسالته في وصف البرد والنار والحطب، ورسالته في الحلواء، فإذا بنا أمام رسالة قد ألبسها القاص ثوب المقامة قد هاجم فيها فقيها من فقهاء زمانه، ووصفه بأنه غريم بطن،رأى الحلوى فاستخفه الشره، وهي تفيض بروح الفكاهة والسخرية. فاستحسنا الرسالتين وتيقنا أن لسجعه موضعا من القلب و مكانا من النفس و تلك هي منية ابن شهيد ،وتخيل كم أراحته هذه العبارة من التابعين "اذهب فإنك شاعر و خطيب"[1].

فما كان هدف ابن شهيد من لقاء كبار الخطباء، إلا ليرضي غروره الذاتي خطيبا ناثرا بارعا يراعي لكل ذي حال حاله ،حائكا للكلام مجيد، قانصا للمعنى مصيب.

ورسالة الحلواء هذه يمكن الاستدلال بها على مقدرة القاص (ابن شهيد) على الوصف والتشخيص وهما كما نعلم من أعمدة القص.

وقد كان ابن شهيد بارعا في تصويره هذا الفقيه في تلك الرسالة فحلّل نفسيته وصور أخلاقه وشكله وتلك طريقته حين يعمد إلى الوصف،فنجده يصور من يصف في حركاته وسكناته،ويجعله ماثلا أمام أعيننا.ولقد كان ابن شهيد في وصفه يعنى بتراسل الحواس خاصة حين يمازج بين حاستي البصر والذوق أكثر من السمع.وربما لذلك علاقة بثقل سمعه،ويتابع الوصف ليشخص الموصوف تشخيصا كاملا[2].وأجمل صورة رسمت لشخصية التقاها ابن شهيد رسما ساخر هي شخصية " أنف الناقة "

"1"- الشكعة مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه، ص: 666.

"2"- الشناوي محمد علي الغريب ، فن القص في النثر الأندلسي، ص: 316.

"بن معمر" تابع " أبي القاسم " الإفليلي، فهو جني أشمط ربعة وارم الأنف يتظالع في مشيته، كاسرا لطرفه زوايا لأنفه. ويبدو أن تسمية تابعه بأنف الناقة يدل على الإحتقار، وزاد من تحقيره أيضا و هو يظهر عيوبه الجسدية و النفسية حين وصفه بالجني الأشمط الذي يظهر الإحمرار من أنفه لشدة غيظة و يتظالع في مشيته لعيب فيه أو خيلاء منه.

و بالطرافة تصوير وجه تابع " الإفليلي" أنف الناقة بعد سماعه لبعض أوصاف " أبي عامر"؛إذ ظهرت على وجهه كآبة غيرته وتلعثم لسانه واختلط كلامه،وكأننا بأبي عامر ممن ينتسبون للمدرسة النفسية ؛فهو خبير بالنفوس يترجم من خلالها آثارها على وجوه أصحابها كما فعل ذلك مع أنف الناقة [1].

وفي المناظرة بين "أبي عامر" و "أنف الناقة" يقول ابن شهيد: " و أخذت للكلام أهبته، ولبست للبيان بزته ...قال: فطارحني كتاب الخليل .قلت هو عندي في زنبيل .قال : فناظرني على كتاب سيبويه، قلت:خريت الهرة عندي عليه وعلى شرح ابن درستويه.قال لي:دع عنك، أنا أبو البيان، قلت : لاه الله ،إنما أنت كمغن وسط ،لا يحسن فيطرب، ولا يسيء فيلهي ...[2].

وأن لك تلاحظ ما تعكسه هذه العبارات من استهزاء و ازدراء و سخرية حادة و تعريض بابن الإفليلي ،لما في نفس ابن شهيد عنه من حقد وغضب لا تخمد له نار، كيف لا وهو الذي حكم بقصوره في علم النحو و اللغة والغريب . فقد وضع بذلك أنفه عند أخمص قدميه، إلى حيث لن تقوم له راية قط في مجالس النحو و الغريب.

كما التقى " أبو عامر " بتابع بديع الزمان الهمذاني " و سماه " زبده الحقب "، و الزبدة تعني

"1"- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 271.

"2"- الشكعة مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه، ص: 668.

الخلاصة، والحقبة هي ثمانون سنة، وكان " بديع الزمان " هو خلاصة كتاب عصره بكامله ، واستحق.ذلك لأنه المبتكر لفن المقامات،وهذا اعتراف من "أبي عامر" بعبقرية البديع ، والغريب أنه استخف به و انتهى بتابعه نهاية لا تليق" ببديع الزمان" الذي كان أبو عامرغرسا أديبا من أدبه، وأحد تلاميذه الذين تلمذوا عليه وعلى مقاماته، وجحد أستاذية "البديع" وأظهر تلمذة عاقة من جانب ابن شهيد قبل أستاذه " بديع الزمان " [1]. فعندما وصف أبو عامر الماء معارضا به وصف البديع للماء، " ضرب زبدة الحقب الأرض برجله فانفجرت له عن مثل برهوت وتدهدى إليها، واجتمعت عليه، وغابت عينه، وانقطع أثره، فاستضحك الأستاذان من فعله، واشتد غيظ أنف الناقة علي " [2].

ولك أن تلمس في هذه المقولة، تلك النفس الزاهية الجريئة المتعالية،"لأبي عامر"، والمعتزة بنفسها، خطيبة لا تضاهى، حتى إن البديع نفسه وهو أستاذه، لا يمكنه أن يرقى في النثر إلى مستوى أسلوبه ومقامه، ولا أدل على ذلك من تلك النهاية التي أتى بها لتابعه، وقد هم بوجهه على الأرض ولم يستدر قطّ. وهي نهاية لا تليق به مطلقا، فقد كان من الحري به أن يكرمه التكريم الذي ينبغي أن يلقاه أستاذ من تلميذه و يستحقه شيخ بمقام البديع.

ثم إن ابن شهيد لا يريد أن ينهي مقارعته أو قل مبارزته لشياطين كبار الأدباء عند هذا الحد؛ إذ أن في نفسه الكثير من " الإفليلي "، وهو يريد أن يثأر لنفسه من شيطانه "أنف الناقة "، ولكنه في الوقت نفسه يكنّ له، مودة كانت قد سلفت، وعلما لم ينكره عليه ،وهو لذلك يبتدع شخصيه جني اسمه "أبو الآداب" صاحب "إسحاق بن حمام"، وقد كان ابن شهيد يقدره فلم يستخف به ولم ينعته بعنوت فيها شيء من السخرية، و لم يظهر عيوبه الخلقية ، بل سمى التابع " أبا الآداب" ؛

"1"- محمد سعيد محمد، المرجع السابق، ص: 272.

"2"- الشكعة مصطفى، المرجع السابق، ص: 669.

أي أن إسحاق كان من الأدباء اللذين يحترمهم أبو عامر، وهكذا نلمس هذا التحيز من "أبي عامر" إلى هذا الأندلسي، ونشم رائحة الاعتزاز بالقطر مع هذا الأديب[1]. و في تابعه يقول: " فإنه على علاته زير علم، وزنبيل فهم، وكنف رواية "[2]. ويمضي أبو عامر في اصطناع العتاب فيقول مجيبا أبا الآداب: " وهل كان يضر أنف الناقة و ينقص من عمله، أو يقل شفرة فهمه أن يصبر لي على زلّة تمر به في شعر أو خطبة، فلا يهتف بها بين تلاميذه، ويجعلها طرمذة من طراميذه" [3].

و آخر ما ختم به المؤلف توابعه تحفة أدبية فكهة اعتمد فيها "أبو عامر" قريحته أكثر من اعتماده على قريحة كبار الشعراء والخطباء على ما مر المشاهد التي سلفت، وهو في هذا المشهد يمتع ويطرف، ويسخر و يفكه ويصف ويجادل ،و هذا المشهد مع حيوان الجن، في مجلس نقدي عقد في أرض الجن مع الحمير والبغال، والمشهد الأطرف هو وصفه للإوزة الحمقاء التي حاولت أن تجادله في النحو والغريب. وهي تابعة أحد النحويين الأندلسيين الذين احتفظ ابن شهيد بأسمائهم لنفسه، بيد أنه دل عليه بالحوار، وترى في هذا الحوار الإوزة و هي تتهم الراوي بالغرور، وتسأله كيف ينقد الشعر و هو لا يعرف أصول اللغة (النحو و الغريب)

ثم تسأله: ما الذي تحسن ؟ فيجيبها : ارتجال شعر و اقتضاب خطبة

فتقول له: ليس عن هذا أسألك ! فيقول لها:و لا بغير هذا أجاوبك ، ويسألها هل تعرفين في الخلاق أحمق من إوزة ؟! فتجيبه: لا، فيقول لها: فتطلبي عقل التجربة، إذ لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة [4].

"1"- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 272.

"2"- المرجع نفسه، ص: 670.

"3"- المرجع نفسه، ص: 670.

"4"- البستاني بطرس، رسالة التوابع و الزوابع، ص: 152.

و ينهي حواره مع الإوزة بأنها بحالها الذي رأى لا تصلح للمناظرة في الأدب وإن شاءت فقد رسم لها الطريق عندما قال لها : إذا أحرزت من عقل الطبيعة نصيبا وبؤت منه بحظ فحينئذ ناظري في الأدب [1].

ويبدو أن القاص قد أحسن حين أختتم توابعه بهذا الفصل، الذي هاجم فيه أهل زمانه من النحاة و المعلمين، و الأدباء، و النقاد هجوما ساخرا، جاءت فيه الفكاهة قناعا، يتوارى فيه الألم الذي ألم به، فقد كان الرجل غرضا لكل حجر عابر.

و قد قال ابن شهيد يصف بركة الماء التي وجد فيها حمر الجن " إذ أشرفنا على قرارة غناء، تفتر عن بركة ماء ،و فيها عانة من حمر الجن و بغالهم ،قد أصابها أولق فهي تصطك بالحوافر،و تنفخ من المناخر، و قد اشتد ضراطها، و علا شحيحها و نهاقها " [2]. إنها صورة ساخرة و تصوير فكه مرح، يصور فيه المؤلف توابع بعض الأدباء في الأندلس، فقد شبههم بالحمير و البغال لجهلهم بالشعر، و ركوبهم مراكبه الوعرة عليهم، و على من شاكلهم و أن كلامهم و أشعارهم عبرة عن جعجعة و قعقعة لها أصوات و فقاقيع كفقاقيع الماء المنتشرة في الهواء إذ سرعان ما تختفي [3].

و قبيل لقاء ابن شهيد بالإوزة و بغلة أبي عيسى، يصطنع القاص نفسه مجلسا للأدب و النقد حضوره من نقاد الجن و هنا تظهر ثلاثة أسماء من التوابع هي:"شمرذل السحابي"،تلك الشخصية الخيالية التي ظهرت فجأة و اختفت بالسرعة نفسها التي ظهرت بها في مجلس نقاد الجن، و كذلك "فاتك بن الصعقب" تابع "أبي عامر" الذي ظهر فجأة في مجلس نقدي واختفى، و" فرعون بن الجون" تابع شيخ من مشيخة الأندلس معروف لدى أبي عامر مجهول لدينا [4].

"1"- الشناوي محمد علي الغريب ، فن القص في النثر الأندلسي، ص: 323.
"2"- البستاني فؤاد أفرام، رسالة التوابع و الزوابع ، ص: 147.
"3"- المرجع نفسه، ص: 147.
"4"- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 272-273.

ثم يجعل ذلك الجني يسأله عن أشعار، بعينها فيجيبه أبو عامر إنها تارة لأبيه و تارة أخرى لأخيه ،و ثالثة لعمه، و أخرى لجده أو جد أبيه فإذا سئل في النهاية من القائل :

ويح الكتابة من شيخ هبنقة *** يلقى العيون برأس مخه رأز

و منتن الريع إن حببته أبدا *** كأنما مات في خيشومه فار[1].

قال : هذا الشعر لي .فيقول الجني : لا عرضت لك أبدا، إني أراك عريقا في الكلام [2].

و إن هذه الإجابة من " فرعون بن الجون " إن كانت تنم عن شيء فإنما تنم عن اعتزاز " "أبي عامر " البالغ بأصالة فنه، و اعتقاده بنبوغه الفذ، فهو شاعر كبير قد ورث الشعر كابرا عن كابر.

ثم يخبرنا الراوي " أن هذا الجني الذي يدعى " فرعون بن الجون " قد قل و اضمحل، بعد سماعه لشعره، حتى أن الخنفساء لتدوسه فلا يشغل رجليها.

و قد اعتقد الراوي أنه بإثبات صفة الغراقة لنفسه في قول الشعر على هذا النحو، يكون بذلك قد رفع شبهة الضعف و السرقة عن شعره و من أجل إثبات نجاحه في رفع هذه الشبهة فقد أتى بهذا الجني الذي يدعى " فرعون بن الجون "، و هو تابع لرجل من أهل زمانه وصفه بأنه كبير، مما يعني أنه رمز لأعلى مستوى للمكانة الأدبية في عصره [3].

فكما قد ذكرنا سابقا أن ابن شهيد كان متهما بكثرة معارضاته لفحول الشعراء، و سطوه على معانيهم، مما كشف عن مقاتله، و أتاح الفرصة لحساده للنيل منه شاعرا.

من هنا كان لابد أن يدافع عن شعره،فأباح لهذا السبب في الفصل الثالث –السرقات الشعرية–على شرط وضعه على لسان حني يعلّم بنياله صناعة الشعرحيث يقول "إذا اعتمدت معنى قد

"1"– الشناوي محمد علي الغريب، فن القص في النثر الأندلسي، ص: 321.

"2"– الشكعة مصطفى، المرجع السابق، ص: 673.

"3"– الشناوي محمد علي الغريب، المرجع السابق، ص: 321.

سبقك إليه غيرك، فأحسن تركيبه، و أرق حاشيته، فأضرب عنه جملة، و إن لم يكن بدّ ففي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن، لتنشط طبيعتك و تقوي منتك [1].

و قد كان ابن شهيد على صواب في دفاعه عن السرقات الشعرية، التي هو متهم بها بالإضافة إلى أن هذا المفهوم للسرقة الأدبية قد عفى عنه الدهر في الدراسات النقدية الحديثة حيث أصبحت السرقات الأدبية ظاهرة نصية تدرس من خلال التناص IH TERTEXTUALITE الذي هو بمعناه العام يتعلق بالصلات التي تربط نصا بآخر، و بالعلاقات أو التفاعلات الخاصة بين النصوص مباشرة أو ضمنا عن قصد أو غير قصد ،حيث لا يمكن لنص أن يتأسس كيفما كان جنسه أو نوعه أو نمطه إلا على قاعدة التفاعل مع غيره من النصوص فيما يعرف بالتفاعل النصي [2].

و بعد هذا فإنه لا يمكننا أن نغفل شخصية أخرى من شخصيات " التوابع و الزوابع " و هي شخصية" زهير بن نمير" تابع "أبي عامر" في رحلته إلى أرض الجن، و زهير تصغير للزهر،و الزهرة تعني البياض، وزهرة الدنيا حسنها، و بهجتها،" فزهير" صغرها "أبو عامر" للتلميح و المديح، و هو أبيض و بهيج و حسن، أما نمير "فالنمير "من الماء: و هو الكثير و الزاكي والنامي و الناجع و أبو عامر اختار هذه التسمية لما فيها من تفاؤل و إشراق و بهجة و خير كثير وهو ما يتمناه أبو عامر ويرجو أن يكون. وهو أشجعي ولم يرض أن يختاره من قبيلة أخرى؛ لأنه فضل صلة القرابة بين أشجع الإنس و أشجع الجن،وهذا يؤكد اعتزاز ابن شهيد البالغ بنسبه. كما أنه لم يجنح إلى الإغراب في اختيار أسماء توابعه بل اختارها من واقع البيئة العربية وركبها، وهذا يؤكد عامل الأصالة عنده واعتزازه بأرومته،وجاءت شخصياته متنوعة من إنسان وحيوان وطير [3].

"1"- المرجع السابق، ص: 320.

"2"- يقطين سعيد، الرواية والتراث السردي ،ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، سنة: 1992 ص: من 10 إلى 16.

"3"- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 273.

وقد كان دور هذا التابع لا يتعدى تعريف "ابن شهيد" بأسماء توابع الشعراء والكتاب ،وبأماكن تواجدهم إذ تولى أبو عامر ريادة رحلته بنفسه، فكان هو البطل الراوي في آن واحد.

و بهذا نجد أن أبا عامر رسم بيئة جنية لا تختلف أسماؤها عن البيئة الإنسية،و نحس في أسماء بعض التوابع القوة ،و هذا إسقاط نفسي من ابن شهيد الذي يعتز بذاته و يتطامح إلى العلا، فلا يتحدى و يبارز إلا من هم في القمة والعلا، وتبرز صفة القوة في أسماء كل من " زبده الحقب"، و" شمرذل السحابي ،"و"فاتك بن الصعقب " و" فرعون بن الجون " [1].

ويستنتج من خلال ما سبق أن رسالة "التوابع والزوابع" بالجملة تصور تذمره على دهره الذي أوجده بين قوم ضاع أدبه فيهم، فلم ينصفوه، ولا غرابة في ذلك فهم كما أخبر عنهم، حظهم من الفهم الحفظ، ومن العلم الذكر وهذا حظ القصاص، وأعلى منازل النواح، فترى المخرق منها إذا قرئ عليه الشعر يزوي أنفه،ويكسر طرفه وإذا عرضت عليه الخطبة يميل شقه يلوي شدقه.

6-المكان : و مثلما كان أبو عامر مجيدا في رسم صورة التوابع الذين التقى بهم في أرض الجن فقد أجاد أيضا في تصوير "أماكن التوابع"، فقد رسم صورة جميلة للبيئة الجاهلية من خلال تجواله على توابع أصحابه فتكاد تنطق بكل ما فيها من أودية و أشجار محيطة بها و أزهار يفوح منها السام والبهادر، وتتخللها الأنهار الجارية، وتغرد فيها الطيور بأصواتها العذبة، وخير ما يمثل هذه البيئة قوله يصف مكان تابع طرفة: "وركضنا حتى انتهينا إلى غيضة شجرها شجران،سام يفوح بهارا، وشجر يعبق هنديا وعارا ،فرأينا عينا معنية تسيل و يدور ماؤها فلكيا و لا يحول. " ثم أنشد أبو عامر لتابع طرفة قصيدة تصور تلك البيئة و هي صورة صادقة لها:

و لما هبطنا الغيث تذعر وحشية على *** كل خوار العنان أسيل

"1"- المرجع السابق ص 272.

و ثارت بثات الأعوجيات بالضحى *** أبابيل من أعطاف غير وبيل

مسومة نعيدها من خيارها *** لطرد قنيص أو لطرد رعيل

إذا تغنى الصحب فوق متونها *** ضحيا أجابت تحتهم بصهيل [1].

وقد أجاد "أبو عامر" في تصوير البيئة العباسية، فصورها تحوي القصور وتناسب ما أشيع في العصر العباسي من لهو و خمر و مجون فسخر من تابع " أبي نواس " الذي وجده في حالة سكر منذ عشرة أيام و بعد أن أنشد له أحد خمرياته أفاق، كما رسم صورة لديره الذي يقيم فيه إذ قال :" وسرنا نجتاب أديارا و كنائس و حانات حتى انتهينا إلى دير عظيم تعبق روائحه و تصوك نوافحه، فوقف زهير ببابه و صاح " سلام على أهل دير حنة ..... و أقبلت نحونا الرهابين مشددة بالزنابير قد قبضت على العكاكيز بيض الحواجب و اللحى إذا نظروا إلى المرء استحيا مكثرين للتسبيح عليهم هدى المسيح... و نزلنا و جاءوا بنا إلى بيت قد اصطفت دنانه و عكفت غزلاته[2].

و هذه صورة تمثل في حقيقتها جانبا من الحياة الاجتماعية في عصر" أبي نواس"، و تقص ما كان من أمر هذا الشاعر الماجن الذي خلّق لنا أشعارا تدل على تهتكه و فجوره.

ونرى من خلال النموذجين الذين استشهدنا بهما آنفا،أن الأماكن التي يتواجد بها الجن (التوابع) والتي تصورها هذه الرسالة لا تختلف عن أماكن الإنس "وهذا التماثل بين العالمين يؤكد بعدا أساسيا من أبعاد الرسالة يتمثل في كونها تعبيرا عن رغبة ذاتية لم تجد لها متنفسا إلا في بناء واقع ثان فوق الواقع الذي عاشه "ابن شهيد"،فرسم له بيئة أندلسية جديدة،وبيئة جاهلية وعباسية أخرى،في عالم آخر هو عالم الجن الذي يمثل المعادل الموضوعي لقضيته مع واقعه بكل ملابساته ناشدا، النصر والإنصاف في محكمة الجن.والانتقام من خصومه وحساده في هذه البيئة الجديدة،

"1"- الشنتريني ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ،ج1/م1 ،ص: 250-251.

"2"- المصدر نفسه، ص: 259.

بعد إذ لم يستطع الرد على غمزا تهم و تعليقاتهم في بيئته الحقيقية.

7- الزمان : و لما كان " الزمن " عنصرا هاما و مساعدا في آن واحد على تحديد البناء الزمني السردي، لعمل ما من الأعمال القصصية، كذلك كان الحال في رسالة" التوابع والزوابع" لصاحبها أبي عامر ابن شهيد الأندلسي ،الذي مزج بين عالمين اثنين هما العالم الواقعي والعالم المتخيل.

و لعل المظهر الجلي الذي يجسد هذا التزاوج الزمني بين زمن النص الطبيعي و الزمن الآخر المتخيل هو مقدمة الرسالة التي انطلقت من أرض الواقع صاعدة إلى سماء الخيال ، لكن ابن شهيد لم يفصل بين العالمين لأن سماء الخيال كانت مشدودة بوثاق محكم إلى أرض الواقع. و دليل ذلك أن الراوي حين يصف لنا أرض الجن يقدمها لنا في قالب بسيط سطحي بعيد عن الوصف الأسطوري، بأوصاف متعارف عليها عند البشر، و في عالم غير الأناسى يقول " حتى التحمن أرضا لا كأرضنا، وشارفت جوا لا كجونا، متفرع الشجر ،عطر الزّهر، فقال لي زهير:حللت أرض الجن أبا عامر ...."

و بذلك يكون قد وصف لنا هذه الأرض دون مراعاة التناسب القائم بين الصفة و الموصوف و دون اللجوء إلى عالم الخوارق و الأساطير.و لأن الزمن الواقعي أو الطبيعي يتسم بالاستمرارية و الجريان فقد كان من الصعب على المؤلف أن يحشد كل المبدعين ليشهدوا له بالتميز و يجيزونه، لذلك لجأ إلى عالم الخيال الذي وجد فيه ضالته ففي هذا العالم يصبح كل مستحيل ممكنا و يصبح من الطبيعي أن يلتقي توابع الشعراء و الكتاب سواء كانوا عباسيين أو جاهليين أو أندلسيين سابقين لابن شهيد أو معاصرين له(1)

وهذا ما يعني بالضرورة أن رسالة " التوابع و الزوابع هي اتحاد لأزمنة مختلفة اجتمعت في زمن واحد لتقرر حقيقة مفادها أن العيب ليس في شخص ابن شهيد و إنما العيب كامن في أهل عصره وزمانه و هذا ما يلخصه تابع " أبي تمام " " عتاب بن حبناء" حين يخاطب أبا عامر بقوله "

(1)البستاني بطرس ،رسالة التوابع والزوابع ،ص:101.

و ما أنت إلا محسن على إساءة زمانك " [1].

و من المهم جدا الإشارة إلى أن إجتماع زمنين، أمر فيه من الخطورة ما فيه، اللهم إلا إذا تعاملنا معه بحذر شديد، و بطريقة خاصة، متناسين أحد خصائص هذين الزمنين أثناء التحليل، كما فعل ابن شهيد في تناسيه للزمن الطبيعي و اعتماده على الزمن الخيالي في عمله الأدبي هذا.

و أخيرا سنحاول تقديم بعض العلامات الزمنية الواردة في رسالة "التوابع و الزوابع" من خلال جداول إحصائية تبين ألفاظ الزمان المبهم و ألفاظ الزمان المحدد على النحو التالي [2].

أ- الألفاظ الزمنية المبهمة:

المجموعة الأولى	الزمن الدهر الأبد	10 مرات 04 مرات مرة واحدة
المجموعة الثانية	الحين	مرتان
المجموعة الثالثة	العهد الدأب المدة المرة	04 مرات مرتان مرة واحدة 04 مرات
المجموعة الرابعة	العمر الأيام	مرة واحدة 3 مرات

"1"- المرجع السابق، ص: 101.

"2"- المرجع نفسه، ص :101-102.

ب- الألفاظ الزمنية المحددة:

المجموعة الأولى	العام	مرة واحدة
المجموعة الثانية	الشهر	مرة واحدة
المجموعة الرابعة	اليوم	14 مرة
	الساعة	مرتان
	النهار	مرة واحدة
	الليل	مرتان
	الصبح	04 مرات
	المشرق	مرة واحدة
	الضحى	مرة واحدة
	المغرب	مرة واحدة
	البيات	مرة واحدة
	غدا	مرة واحدة

(1)

8- العقدة :أما " العقدة " في نص التوابع والزوابع، فإنه كما عرفنا سابقا أن "أبا عامر بن شهيد" كان كثير الخصوم والحساد، ولقي منهم عنتا و أذية وضيما لم يصبر له، الشيء الذي ولد عقدة نفسية داخلية عند "أبي عامر" وغضبا شديدا كأنه بركان لا تخمد نيرانه أبدا، ولا تكف حممه عن السيلان فرسالة "التوابع والزوابع" ليس لها غرض سوى معالجة هذه العقدة الدفينة في أعماق " إبن شهيد" وهي الطعن على أنداده ومنافسيه من الوزراء والأدباء، وأهل السياسة والقلم، ثم الدفاع عن أدبه وقدرته في النقد، بالرد على غمزات مغتابية ومغتالية.وقد ركز ابن شهيد في قصته على ثلاثة أشخاص ألّبوا عليه حياته و كانوا سبب أزمته النفسية، والضغط والصراع الداخلي الذي يضطهد أعماقه ويهز كيانه، فقد نغّصوا عليه هناء عيشته، وكدّروا صفاء نشوته، وكانوا يحسدونه، ويطعنون عليه، وهؤلاء هم: أبو محمد ،أبو القاسم وأبو بكر.[2]

---

(1)- المرجع السابق ،ص:102

(2)-الشكعة مصطفى ، الأدب الأندلسي موصوعاته وفنونه ،ص:643

و تظهر نقطة التوتر القصوى في " التوابع والزوابع " من فاتحتها و بدايتها، مجسدة في قول ابن شهيد للمدعو "أبا بكر محمد بن حزم الفقيه :" لله أبا بكر، ظن رميته فأصميت، وحدس أمّلته فما أشويت، أبديت وجه الجلية،وكشفت عن ثمرة الحقيقة، حين لمحت صاحبك الذي تكسّبته، ورأيته قد أخذ بأطراف السماء، فألف بين قمريها ونظم بين فرقديها، فكلما رأى ثغرا سده بسهاها والمح خرقا رمّه بزباناها ،فقلت كيف أوتي الحكم صبيا،وهز بجذع نخلة الكلام، فاساقط عليه رطبا جنيا، أما إن به شيطانا يهديه، وشيصيانا يأتيه، وأقسم أن له تابعة تنجده، وزابعة تؤيده، ليس هذا في قدرة الإنس، ولهذا النفس لهذه النفس فأما و قد قلتها، أبا بكر، فأصغ أسمعك العجب العجاب "[1].

ومنذ هذه اللحظة يشتد غضب "أبي عامر"، وتزداد رغبته في الثأر والانتقام، فيتأزم الصراع بين أبي عامر و خصومه من الأدباء و رجالات السياسة، فيمضي في رحلته مبارزا إياهم بشراسة وعنف، مستعملا جميع الوسائل والسبل، فوصفهم بأنهم كالقرود اليمانية التي ترقص على الإيقاع، ولا تفقه من حقيقة الأدب شيئا البتة، لا بل وعايرهم بعيوبهم الجسمانية، والتي كانت السبب في خطل عقولهم و فساد أذواقهم، مثلما فعل مع " أنف الناقة " تابع أبي القاسم الإفليلي .

ثم تحتدم الأحداث و تزداد حدة و توترا في بقية فصول " التوابع والزوابع".

9- لحظة الإنفراج : وحتى يخفف " أبو عامر " من لظى النار التي تكوي وجدانه كيا، وحتى يفرج عن نفسه حالة الغضب و الغيض الشديدين اللذان يطبقان عليه حتى الاختناق،لجأ أبو عامر إلى محطة تنفيسية فيها يغادر البطل القاص من عالمه المزدحم بالخصوم والحساد،والمعوقات التي تقهر كرامته وتنال من مكانته الأدبية، إلى عالم الجن بكل ما فيه من تشويق وإثارة، و هناك أجازته و ناصرته محكمة الجن، ووضعته الموضع الذي يليق به ونصبته المنصب الذي يستحقه؛ أديبا شاعرا ناثرا ناقدا،

"1"- الشكعة مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه، ص: 643-644.

فسمت به ورفعته عن أقرانه من الأدباء و الخطباء، و جعلته سيدهم و على رأسهم جميعا و بهذا تنفرج عقدة ابن شهيد، و تجد لها مخرجا يريحها و يبهجها. و كيف لا و قد وجد أبو عامر نفسه – في هذا العالم – زعيما للشعر و النثر معا، بعد إذ شقي في عالم الإنس، و لم ينل هذه المكانة التي كان يصبوا إليها. و بهذا التفريج والإرتياح تختم قصة " التوابع والزوابع " لصاحبها " ابن شهيد الأندلسي.

****

وخلاصة القول أن رسالة " التوابع والزوابع "التي كانت نتاجا للأوضاع الإجتماعية والسياسية التي عاشها " إبن شهيد " ، قد أستوفت الكثير لا بل جميع العناصر الفنية الناضجة في موضوعها وبنائها الفني ،كالسرد ،والوصف،والأحداث، والحوار ،والشخصيات والأماكن، والزمان ، وغيرها ، الأمر الذي جعلها تقف في صدارة القصص الفني في بواكيره الأولى ، وقبل أن عرف المشرق العربي مثل هذا العمل ببضع سنوات ،وإرتقائه لمنافسة القصص الفني الحديث ومجاراته .

و بعد هذا البحث و التنقيب يعز علينا أن نختم هذا الموضوع الذي رافقنا طيلة سنتين أو تزيد، فتعلقنا به علاقة حميمية، كون الموضوع فتح أمامنا أبوابا لمعرفة عالم القصص الأندلسي إبان القرن الخامس الهجري من جهة و معرفة مختلف القضايا الثقافية و الاجتماعية التي تناولها "ابن شهيد " من خلال " التوابع و الزوابع "،لا سيما قضية الصراع الفكري و الأدبي القائم في شبه جزيرة الأندلس، ومن جهة ثانية : التواصل و التنافس الثقافي بين المشرق و المغرب العربي.

و طبعا إن لكل بداية نهاية و ها نحن بعون الله وحمده وصلنا إلى ختام بحثنا هذا؛ إن لم نقل ختام البحث تماما، فما الموضوع الذي طرقناه في هذه المذكّرة ما هو إلا بداية لأبحاث و دراسات جديدة ، وقد كان إجابة عن أسئلة شتى كانت تجوب في أذهاننا منذ اختيارنا لهذا الموضوع (موضوع البنية القصصية في رسالة التوابع و الزوابع دراسة نفسية)، و قد توصلنا إلى النتائج التالية :

1- أولا و قبل أي شيء، فقد أفلح الكاتب في تشكيل ولادة عمل أدبي جديد يمثل طفرة في الأدب الأندلسي بخاصة و الأدب العربي بعامة، يتمثل في عمل قصصي يرحل فيه صاحبه من عالم الإنس إلى عالم الجن متجشما رحلة أدبية من أجمل ما عرف أدبنا العربي، وفي نسيج غير مسبوق، وفكرة جديدة حطّمت كل أشكال النثر البسيط و الممثل في الخطبة والوصية؛ إذ أنه وثب إلى الضفة الأخرى التي لا تتناول أحداثا و أبطالا من عالمنا الذي نعيش فيه إنما تتناول أحداثا من عالم آخر غير عالمنا هذا إنها قصة " التوابع و الزوابع ".

2- إن إشكالية ضبط المصطلح ليست إشكالية بمعناها الحقيقي؛ فإذا كانت تارة يطلق عليها إسم رسالة، وأخرى مقامة وثالثة رحلة، فإن ذلك راجع إلى اختلاف وجهات نظر النقاد و الدارسين حيال هذا النتاج الأدبي.والمهم هنا أن الرسالة المدروسة أقرب إلى جنس القصة منها إلى

فن الرسائل وعيرها .

3- إن رسالة " إبن شهيد " التي جاءت على شكل قصة كان الهدف وراء تأليفها شخصيا بالدرجة الأولى يرمي صاحبها إلى الرد على خصومه النقاد و الخطباء – من معاصريه – الذين ينتقصون من مكانته الأدبية والنقدية بغية إثبات مدى قدرته و مهارته و إجادته في الفنين الأدبيين على السواء: شعرا و نثرا. و قد نبغ " أبو عامر " في فني النثر و الشعر معا و عزف على أوتارهما ببراعة و ذلك بجمعه بين جوهري الفنين و الإجادة فيهما معا.فإبن شهيد- دونمامبا لغة- يمثل طريقة متميزة في تأدية المعاني والأغراض الشعرية بالنثر الفني.

4- في تقريري الخاص ، لقد نجح " ابن شهيد " أمام نفسه- على الأقل – في أن يثأر لنفسه من معاصريه بعد أن نجح في أن يحظى بإجازة كبار الشعراء و الخطباء. لقد ثأر لنفسه بالحملة عليهم و السخرية منهم في أكثر من موضع، وبخاصة من خصمه " أبي القاسم الإفليلي " الذي بالغ في السخرية من شيطانه " أنف الناقة "، بل إنه ازداد غلوا في التعريض بهم في مجال حديثه مع " بغلة أبي عيسى "، فجعلهم – وهم الذين يشبهون البغال غباوة – وزراء أو أمراء.

5- لقد حقق " أبو عامر " هدفه الكبير- كما ذكرنا- بالنيل من معاصريه وتحقير شأنهم، على أنه حقق هدفا آخر لا يقل شأنه عن هدفه الأصيل ذلك أنه أشبع نزعة إعجابه بنفسه و بآثاره حينما جعل قصته معرضا كبيرا لما انتقاه بنفسه من أعماله الأدبية في مجال الشعر و في ميدان النثر. و على ذلك فقد استطاع " أبو عامر " أن يحقق لنفسه في عالم الخيال ما لم يستطع تحقيقه في عالم الواقع.فحسب " فرويد " فإن " إبن شهيد " قام بإشباع رغبته المكبوتة في لا شعوره في عالم الكتابة .

6- إن " إبن شهيد " في "التوابع " قد أبرز –بحق- معالم القصة الأدبية الفنية، ذلك النتاج الأدبي الذي يمتاز بالتحليل والتعليل والقص والنقد، وظهور الصورة الذاتية وعليه يمكننا اعتبار "

التوابع والزوابع " قصة أدبية مكتملة النمو من حيث البناء الفني والمضموني معا، سواء من حيث اللغة أو البنية السردية المكونة من الأحداث والوصف و الحوار وغيرهما.

7- كما نخلص إلى أن رحلة أبي عامر تبدأ من قرطبة إلى جزيرة العرب ،حيث يتجول من الجزيرة العربية موطن"امرئ القيس" إلى العراق حيث "أبي نواس" مرورا بالشام موطن " أبي تمام " و"المتنبي" إلى مصر،وينتهي بها المطاف للعودة من جديد إلى قرطبة، أما زمانها فيمتد من الجاهلية إلى عصر الكاتب، الشاعر، الناقد، القاص، وهو القرن الهجري الخامس فترة عصر الطوائف.

8- و هذه الرحلة الخيالية التي ذهب فيها " أبو عامر " إلى أرض الجن هي في حقيقتها رحلة في ديوان العرب،ومعجم أدبائهم،وفي ديوان الشعر ومجمع رسائله" فعلى صافيتها تصطف النصوص متوازية متناظرة متماثلة متقابلة،" نصوص الفطاحل و بعض الأضاحل العظماء، وأعاظم بين الأقزام. وإنما كانت الرحلة لتحقيق غايته في مصره قرطبة " وفي عصره، فكان من أوّل الرحلة لم يقطع بنا إلا مسافة نفسه؛ من ذاته إلى ذاته ينصبّ بنا في السفر منه شاعرا إليه خطيبا ثم ناقدا فحكما.

9- و عليه فقد سجل التاريخ "لأبي عامر بن شهيد الأندلسي " في صفحات الخلود، ظاهرة التفوق و الاقتدار في ميدان التعبير الفني، فقد كان يعارض المشارقة تارة و أخرى يبتكر أطرا جديدة لم تعرف في الأدب المشرقي،وهي المزج بين فنين أدبيين ضمن قالب واحد تتخلله بصمات نقدية و طابع الذاتية.

10- أثبتت الدراسة أن رسالة " التوابع والزوابع " حازت على الكثير من العناصر الفنية للقصة العربية الحديثة ، التي تؤهلها إلى مستوى إدراجها ضمن جنس الفن القصصي .

11- وقفت العديد من الدوافع النفسية في بناء الرسالة ، " فإبن شهيد " إندفع في كتابة

القصة بدوافع واعية «لا شعورية» ، ولعل أبرز هذه الدوافع النفسية حب الظهور إنطلاقا من مركب النقص كما يرى " آدلر " فالكاتب آلمه إنتقاص أهل زمانه لمكانته فسعى إلى إثبات وجوده الفني من خلال القصة وتفنّنه فيها شعرا ونثرا ونقدا ، كما كان دافع الإنتقام من الخصوم رغبة مكبوتة في لاشعور " إبن شهيد " ، فلا تسمح له ظروف عصره ، وقيم مجتمعه «الأنا الأعلى » من إشباع هذه الرغبة بشكل صريح ، فلجأ إلى عالم الخيال وأفرغ هذه الشحنة المكبوتة في هذا العمل القصصي الفريد ، وقام كما يقول " فرويد " بآلية " التسامي " أو " التصعيد " وذلك بتجسيد الرغبة المقموعة والمحضورة «الإنتقام» بشكل فني يستسيغه الذوق وتقرّه القيم الإجتماعية .

و في الأخير نأمل أن نكون قد وفقّنا في عملنا هذا و لو بقدر يسير، آملين أن يكون بحثنا هذا درب كل باحث يرمي إلى ما رمينا نحن إلى تحقيقه و الوصول إليه،وربما طوره أكثر وتناوله وفق رؤى و مناهج و آفاق جديدة.

وعلى أية حال، فعلى الرغم مما عرض من جهود في دراسة النثر الفني الأندلسي غطت جوانب عديدة منه؟ فإن المجال لا يزال خصبا في حاجة إلى جهود أخرى تهتم بقراءة نصوصه في ظل مداخل نقدية متعددة و متضافرة مما يمنح التحليل تكامليته المنشودة.

قائمة المصادر :

- القرآن الكريم [راوية ورش]

1- امرؤ القيس ، الديوان ، جمعه وشرحه وقدم ووضع حواشيه وفهارسه ياسين الأيوبي ، ط.الأولى ، المكتب الإسلامي ،بيروت ، دمشق، عمان ، سنة :1419هـ .

2- الأزدي علي بن ظافر ،بدائع البدائه ، ت.د محمد ابو الفضل ،(د.ط) ،مكتبة الأنجلو المصرية ، سنة :1970 م .

3- البحتري ،الديوان ، ت.د ، بدر الدين الحاضري ،(د.ط)، دار الشرق العربي ،بيروت، سنة : 1999 م .

4- البحتري ، الديوان ، شرح وتقديم " حنا الفاخوري" ، (د.ط)، دار الجيل ، بيروت،المجلد الأول ، قافية الباء ، (د.س).

5- الجمحي إبن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر ، (د.ط) ، دار المدني بجدّة للنشر ، الجزء الأول ،(د.س).

6- الجاحظ ، أبي عثمان (عمرو بن بحر)، البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ،(د.ط) ، دار الجيل ، بيروت ، الجزء الأول ، سنة : 1972 م .

7- إبن الحزم ، طوق الحمامة في الألفة والآلاف ، تحقيق محمد عبد اللطيف ، عبد المنعم خفاجي ، إبراهيم هلال ، الطبعة الأولى ، المكتبة الحسينية بميدان الأزهر ، سنة : 1395 هـ .1975 م .

8- الحميدي ، جذوة المقتبس ، تحقيق د.محمد بن تاويت الطنجي ،(د.ط)،القاهرة ، سنة :1952 م .

9- إبن خلّكان (أحمد بن محمد)، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، تحقيق د.إحسان عباس ، (د.ط)، دار صادر ، بيروت ، الجزء الأول ، سنة : 1977 م .

10- إبن سعيد الأندلسي ، المغرب في حلى المغرب ، ت. د .شوقي ضيف ، طبعة دار المعارف بمصر ، الجزء الأول ، سنة : 1964 م .

11- الشنتريني إبن بسام ، (أبو الحسن علي)، الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق د.إحسان عباس ، الطبعة الأولى، دار الثقافة ، بيروت ، ج1/م1/،سنة :1979 م .

12- إبن شهيد ، الديوان ، ت. د يعقوب زكي ، راجعه د.محمود علي مكي ،(د.ط)، دار الكتاب العربي ، القاهرة ،(د.س) .

13- طرفة بن العبد،الديوان ،ت.د محمد محمود ،(د.ط)، دار الفكر اللبناني ،بيروت، سنة:1994 م.

14- أبو العلاء المعري ، رسالة الغفران، ت.د.عائشة عبد الرحمان ، الطبعة السابعة ، دار المعارف، سنة : 1977 م .

15- عمر بن أبي ربيعة ، الديوان ،شرح د.يوسف شكري فرحات ،الطبعة الأولى ، دار الجيل ، لبنان ، بيروت ، سنة :1992 م .

16- الفتح إبن خاقان ، مطمح الأنفس ومدح التأنس ،(د.ط) ، ت. د.محمد علي الشوابكة .

17- قيس بن الخطيم ، الديوان ، تحقيق د.ناصر الدين الأسد ،(د.ط)، مطبعة المدني ، القاهرة ، سنة : 1966 م .

18- إبن قتيبة ، الشعر والشعراء ،تحقيق د.أحمد محمد شاكر ،(د.ط)، دار المعارف ، القاهرة ، الجزء الثاني ، سنة : 1966 م .

19- القيرواني إبن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،تحقيق د.محمد محي الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة دار الجيل ، بيروت ،الجزء الأول ، سنة : 1972 م .

20- المقرّي أحمد بن محمد ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرّطيب ،ت.د.إحسان عباس ،(د.ط) ، دار صادر، بيروت ،الجزء الثاني ، سنة : 1988 م .

21- المقرّي التكساني (أحمد بن محمد)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرّطيب ،ت.د.إحسان عباس ،(د.ط) ، دار صادر، بيروت ،الجزء الرابع ، سنة : 1988 م .

22- المتنبي ، الديوان ، (د.ط) ، دار الجيل ، بيروت ، المجلد الأول ، قافية الميم ، (د.س) .

23- إبن منظور ، لسان العرب ، تحقيق عبد الله العلايلي ، (د.ط) ، دار لسان العرب للنشر ، بيروت ، المجلد التاسع ، (د.س) .

24- أبو نواس ، الديوان ، تحقيق د.علي نجيب عطوي ،(د.ط) ،دار المكتبة الهلال للنشر ، سنة : 1986 م .

قائمـة المراجـع :

1- أحمد الجبل إيمان ، المعارضات في الشعر الأندلسي ،(د.ط)، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع ،عمان ، الأردن ، سنة : 2006 م .

2- البستاني فؤاد أفرام ، رسالة التوابع والزوابع ، الطبعة الأولى ،دار الشرق ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، لبنان ، سنة :1962 م .

3- بوملحم علي ،مقامات بديع الزمان الهمذاني ، قدّم له وعلق عليه وشرحه ،الطبعة الأخيرة ، دار مكتبة الهلال للنشر ، سنة (1421هـ . 2000 م) .

4- البستاني بطرس ، رسالة التوابع والزوابع لإبن شهيد الأندلس ، (د.ط)، دار صادر ،بيروت ، سنة : 1980 م .

5- ثابت محمد رشيد ، البنية القصصية ومدلولها الإجتماعي في حديث عيسى بن هشام ، (د.ط)، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، (د.س) .

6- خفاجي محمد عبد المنعم ، الأدب الأندلسي التطوّر والتجديد ، ط.الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، سنة :(1412هـ . 1992 م) .

7- الدقاق عمر ، ملامح الشعر الأندلسي ،(د.ط)، دار الشرق العربي ،بيروت، سورية ، (د.س) .

8- أبو ذياب خليل إبراهيم ، دراسات في فن القصة ، الطبعة الأولى ،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية، سنة : 2001 م .

9- الرّكيبي عبد الله خليفة ، القصة الجزائرية القصيرة ،الطبعة الثالثة ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ،تونس ، سنة :1997 م .

10- رضوان الداية محمد ، دراسات أندلسية ، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، ط.الثانية ،مؤسسة الرسالة ، دمشق ،سنة : (1401هـ . 1981 م) .

11- السيوفي محمد مصطفى،تاريخ الأدب الأندلسي،(د.ط)،دار البيان للطباعة والنشر،سنة:2003م.

12- سلام محمد زغلول ، دراسات في القصة العربية الحديثة ، أصولها إتجاهاتها ،أعلامها ، (د.ط) ، نشأة المعارف بالإسكندرية ،جلال جزّي وشركاؤه ،(د.س) .

13- إبن سلامة الربعي ،محاضرات في الأدب العربي والأندلس ،(د.ط)،منشورات جامعة منتوري، قسنطينة ، سنة (2006 – 2007 م) .

14- الشايب أحمد، تاريخ النقائض في الشعر العربي، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية، سنة:1998 م .

15- الشناوي محمد علي الغريب ،فن القصة في النثر الأندلسي ، (د.ط)، كلية الآداب للنشر ،جامعة المنصورة ، (د.س) .

16- ضيف شوقي ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ط.التاسعة بمصر،دار المعارف ،(د.س) .

17- ضيف شوقي ، الأندلس عصر الدول والإمارات ، ط.الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة :1994 م .

18- ضيف شوقي ، المقامة ، ط.الرابعة ، دار المعارف للنشر والتوزيع ،(د.س) .

19- ضيف أحمد ،بلاغة العرب في الأندلس ،(د.س)،مطبعة مصر، سنة :(1342هـ .1924م) .

20- عصفور جابر ، المرايا المتجاورة دراسة في نقد طه حسين ،(د.ط)، الهيئة العامة للكتاب ، سنة : 1983 م .

21- عيسى فوزي ،الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي ،(د.ط)، دار المعارف الجامعية ،الإسكندرية ، سنة :1991 م .

22- عروة عمر ،النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه ،(د.ط)،دار القصة للنشر، الجزائر،(د.س) .

23- عباس مراد حسن ،الأندلس في الرواية العربية والإسبانية المعاصرة (دراسة مقارنة)،(د.ط)، كلية الآداب ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، (د.س) .

24- العياشي حدوش ،التراث المغربي والأندلسي ،كلية الآداب للنشر ،تطوان ،(د.س) .

25- عباس إحسان ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ،(د.ط)، دار الشروق للنشر والتوزيع ، سنة : 1997 م .

26- علي بن محمد ، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار العرب الإسلامي ، ج- الأول ،سنة :1990 م .

27- العياشي حدوش ، حركة النقد الأدبي في قرطبة عصر الحجابة والفتنة ،(د.ط)، كلية تطوان، (د.س) .

28- فضل صلاح ،مناهج النقد المعاصر ،(د.ط)،دار الآفاق العربية ،القاهرة ،سنة :1996 م .

29- الفاخوري حنا ، تاريخ الأدب العربي ،الأدب في المغرب والأندلس ، ط.التاسعة ،المكتبة البوليسية ، بيروت ، لبنان ، سنة : 1978 م .

30- الفاخري حنا ، الجامع في تاريخ الأدب العربي ، الأدب القديم ،(د.ط)، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، سنة : 1978 م .

31- فروخ عمر ،تاريخ الأدب العربي ،الأدب في المغرب والأندلس إلى آخر عصر ملوك الطوائف ،(د.ط)،دار العلم للملايين ، بيروت ، ج . التاسع ،(د.س) .

32- الكتّاني محمد، التراث المغربي والأندلسي ،التوثيق والقراءة ، (د.ط)، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ،(19-20-21) أبريل سنة :1991 م .

33- لمباركية صالح ،محاضرات في الآداب الأجنبية القديمة ،(د.ط)،مكتب الخدمات والمعلوماتية ، باتنة ، سنة : 2007 م .

34- ميدان محمد أيمن ،دراسات في الأدب الأندلسي ،ط.الأولى ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، سنة : 2004 م .

35- محمد علي ضبيح ، صحيح البخاري ،(د.ط)، ميدان الأزهر ، ج-الثالث ،(د.س) .

36- الموافي ناصر عبد الرزاق ، القصة العربية عصر الإبداع ، دراسة للسرد القصصي في القرن الرابع هجري ،(د.ط)،كلية الآداب ،القاهرة ،(د.س) .

37- مارون عبود ،أدب العرب ،(د.ط)،دار الثقافة ،بيروت ،لبنان ، سنة : 1960 م .

38- مبارك زكي ، النثر الفني في القرن الرابع هجري ،(د.ط)، دار الجيل ،بيروت ،(د.س) .

39- محمد سعيد محمد ، دراسات في الأدب الأندلسي ،(د.ط)، منشورات جامعة سبها ، ليبيا ، طبع بإشراف دار النهضة العربية ،بيروت ،عمان ،بنغازي ،روما ،برونـاي ،(د.س) .

40- محمد سعيد محمد،إبن شهيد الأندلسي أديبا وناقدا،(د.ط)،منشورات جامعة سبها، سنة:1988 م.

41- نجم محمد يوسف ،فن القصة ، الطبعة الأولى ، دار صادر ، بيروت ، دار الشروق (عمان) ، سنة : 1996 م .

42- نجا أشرف محمود ، في الأدب الأندلسي ، بحوث في نقد الخطاب الإبداعي ، الطبعة الأولى ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ،الإسكندرية ، سنة : 2006 م .

43- هلال محمد غنيمي ،الأدب المقارن ، (د.ط)، دار النهضة للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، سنة : 1928 م .

44- هلال محمد غنيمي ، النقد في الأدب الحديث ، (د.ط)، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، تاريخ النشر ، يناير 2001 م .

45- هيكل أحمد ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، الطبعة الثامنة ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة : 1982 م .

46- ياسين السيد ، التحليل الإجتماعي للأدب ، الطبعة الثالثة ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، سنة : 1992 م .

47- يقطين سعيد ، الرواية والتراث السردي ، الطبعة الأولى ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، سنة : 1992 م .

48- يوسف وغليسي ، مناهج النقد الأدبي – مفاهيمها وأسسها ، تاريخها وروادها وتطبيقاتها العربية ، ط1 جسور للنشر والتوزيع ، المحمدية ،الجزائر ، سنة : 2007 م.

. قائمـة المراجـع الأجنبية :

1- برتار فاليت ، مدخل إلى المناهج والتقنيات المعاصرة للتحليل الأدبي ، ترجمة عبد الحميد بورايو ، السداسي الأول ، (د.ط)، دار الحكمة ، الجزائر ، سنة : 2002 م .

2- غرسية غومس ، الشعر الأندلسي ، بحث في تطوّره وخصائصه ، ت. د.حسين مؤنس، ط2 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة : 1956 م .

. المجـلاّت :

1- بوتيش عز الدين ، مجلة السرديات ، (ط/ش/د/هـ/ن/ت) ، عين مليلة ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، الجزائر ، العدد : 1 ، جانفي 2004 م .

2- حافظ صبري ، التناص وإشارات العمل الأدبي ، مجلة عيون المقالات ، الدار البيضاء ، العدد :2 ، سنة : 1986 م .

3- الحسيني قاسم ، المؤثرات الثقافية في القصيدة الشعرية الأندلسية ، مجلة كلية الآداب والعلوم ، الرباط ، عدد : 16 ، (د.س) .

4- كمال الرّوبيي ألفت، تشكل النوع القصصي ، قراءة في رسالة التوابع والزوابع، مجلّة فصول، م 13/ العدد3 /سنة : 1993 م .

5- المعطاني عبد الله سالم ، قضية شياطين الشعراء وأثرها في النقد العربي ، مجلة فصول ، العدد 1،2 ، أغسطس ، سنة : 1991 م .

فهــرس الموضوعات

مقدمـة : ..... أ

المدخل (مدخل إلى فن القصة)

– مدخل إلى فن القصة

1) نشأة فن القصة : 3

1–1– عند الغرب 3

1–2– عند العرب : 11

2–1 : في الأدب الجاهلي 15

2–2 : في الأدب الإسلامي 17

2) مفهوم القصة العربية : 28

2–1 – لغة 28

2–2 – اصطلاحا 29

3) أشكال القصة : 32

3–1– القصة القصيرة أو الأقصوصة 32

3–2– المقامة 34

3–3– القصة بين الأقصوصة و الرواية 36

3–4– الحكاية 36

3–5– الخبر 37

3–6– الرواية 37

3–7– الملحمة 38

3-8- المسرحية 40
4) العناصر الفنية للقصة : 41
4-1- الوسط أو البيئة 42
4-2- الزمن 43
4-3- الحدث 44
4-4- شخصيات القصة و أبطالها 45
4-5- الوصف 47
4-6- الحوار.....48
4-7- السرد 49
4-8- الحبكة 51
4-9- الفكرة 53
4-10- العقدة 53
4-11- الحل 53

الفصل الأول (إبن الشهيد الأندلسي الفنان والإنسان)

1 - جهود الدارسين في ترجمة السيرة الأدبية لأبي عامر بن شهيد..... 55
2- ترجمة المؤلف. 62
أ- مولده و نشأته. 62
ب- صفته و أخلاقه و ثقافته 64
ت – أدبه : 69
- ت1 – شعره..... 69
- ت2 – نثره..... 80
- ت3 – آراءه في الأدب و النقد..... 84
ث- خصومه 91

ج – علته و وفاته..... 95
خ – آثاره..... 98

الفصل الثاني : رسالة إبن شهيد(دراسة في الشكل والمضمون)

1- طبيعة الرسالة و شكلها الأدبي 102
2- تاريخ تأليفها و أقسامها 107
3- مصادر الرسالة 109
4- السبب و الغاية من تدوين التوابع و الزوابع 115
5- موقف ابن شهيد في هذه الرّسالة 121
6- الهيكل الوظيفي للرسالة 123
7- أسلوب الرّسالة 126
8 – قضايا نقدية في ثنايا رسالة التوابع و الزوابع 131
9- مضمون الرسالة

الفصل الثالث : التحليل النفسي للبنية القصصية في رسالة التوابع و الزوابع

1– السرد.....148
2 – الوصف.....170
3– الأحداث.....174
4– الحوار.....178
5– أبطال القصة 183
6– المكان 208
7– الزمان.....210

8- العقدة 212

9- لحظة الإنفراج 213

خاتمــة 215

المصادر والمراجع 220

فهرس الموضوعات 227